مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف

أبلوموف

القسم الثاني

ترجمة يوسف سلمان

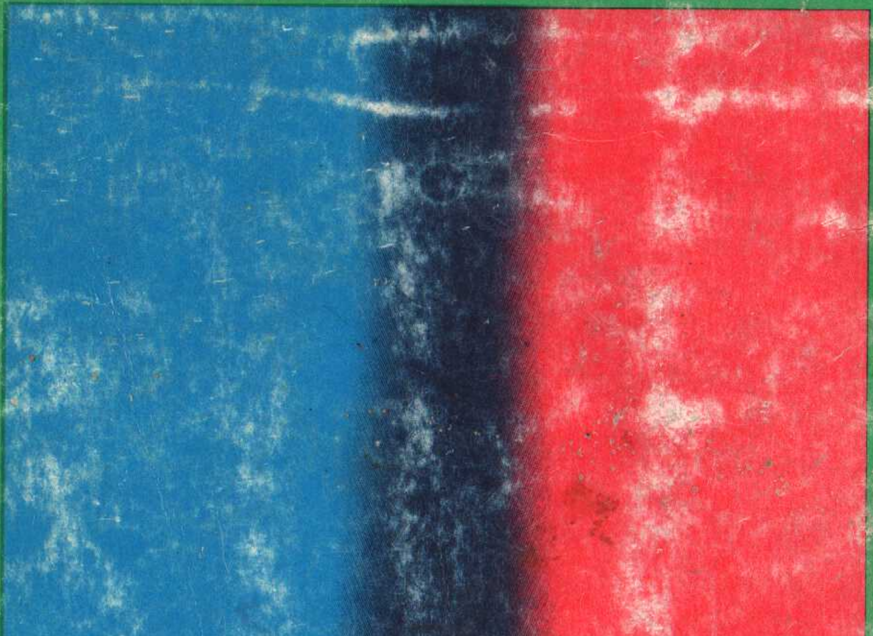

سلسلة روايات عالمية "١٢"

الإشراف الفني : زهير الحمو

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ح.ع.ج.ج

سلسلة روايات عالمية «١٢»

twitter @baghdad_library

الكساندروفيتش غونتشاروف

أبلوموف

القسم الثاني

ترجمة يوسف سلمان

منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٥
في الجمهورية العربية السورية

العنوان الأصلي للكتاب :

И. А. ГОНЧАРОВ

ОБЛОМОВ

РОМАН

В ЧЕТЫРЕХ ЧАСТЯХ

twitter @baghdad_library

الجزء الثاني

twitter @baghdad_library

— ١ —

كان أبلوموف متألقاً وهو في طريقه الى البيت . كان دمه يغلي وعيناه تلتمعان . حتى شعره ، بدا له ، وكأنه يشتعل . دخل حجرته وهو في هذه الحالة — وفجأة اختفى تألقه وتسمّرت عيناه بلا حراك ، وقد تملكته الدهشة ، على مكان واحد : كان تارانتييف جالساً على أريكته .

— مللت الإنتظار . أين كنت تتسكع ؟ — سأل تارانتييف بصرامة ، وهو يمدّ له يده المكسوة بالشعر .

— لقد خرج خادمك الشيطان العجوز زاخار عن طاعتك تماماً : أطلب شيئاً لآكله ، فيجيبني بالرفض ، حتى أنه امتنع عن تقديم قطرة من الفودكا لي .

— كنت أتنزّه هنا في الغابة . — قال أبلوموف بعدم اكتراث ، وهو لم يصح بعد من الصدمة ، التي سببّها ظهور مواطنه المفاجىء عنده ، وخاصة في لحظة كهذه !

كان أبلوموف قد نسي تماماً الوسط المظلم ، الذي عاش فيه طويلاً ، ولم يعد يطيق ذاك الجو الخانق . وبلحظة واحدة ، أعاده تارانيتيف من جديد ، الى ذاك المستنقع الذي كان يتخبّط فيه .

أخذ أبلوموف يسائل نفسه : لماذا جاء تارانتييف ؟ هل سيمكث طويلاً ؟ — وهو يتوجّس خشية أن يبقى عنده الى مابعد الغداء ، فيمنعه من الذهاب الى آل إيلينسكايا . كانت فكرة واحدة تشغل بال أبلوموف هي أن يصرف تارانتييف ، مهما كلّفه ذلك من نفقات مالية . أخذ ينتظر بصمت وتجهّم ما سيقوله تارانتييف .

— ألا تفكّر يامواطني بأن تلقي نظرة على الشقة الجديدة ؟ — سأل تارانتييف .

— لا ضرورة لذلك الآن ، — قال أبلوموف متفادياً النظر الى تارانتييف . — لن أنتقل الى هناك .

— ماذا ؟ كيف لاتنتقل ؟ اعترض تارانتييف بعنف — لقد استأجرتها فكيف لاتنتقل ؟ والعقد ؟

— أي عقد ؟

— هل نسيت ؟ لقد وقّعت عقداً لمدة عام . أعطني ثمانمائة روبلاً واذهب بعدها الى أي مكان تشاء . لقد جاء أربعة مستأجرين ، رُفِضوا بسببك . أحدهم كان يريد استئجارها لثلاث سنوات .

تَذَكّر أبلوموف الآن ، بأن تارانتييف قد جلب له ورقة في نفس

twitter @baghdad_library

اليوم الذي انتقل فيه الى المنزل الريفي ، الذي يقطنه حالياً . فوقّعها على عجلة ، دون أن يقرأها .

« آه ، ياالهي ، ماذا فعلت ! » ـ فكّر أبلوموف .

ـ لكن لاحاجة لي بتلك الشقة ، فأنا مسافر الى الخارج

ـ الى الخارج ! ـ قاطع تارانتييف ـ مع هذا الألماني ؟ لن تسافر !

ـ لماذا لن أسافر ؟ لقد حصلت على جواز السفر : سأريك إياه ، كما اشتريت حقيبة .

ـ لن تسافر ! ـ كرّر تارانتييف بعدم اكتراث ـ من الأفضل أن تدفع الإيجار مقدّماً عن نصف سنة .

ـ لاتوجد لديّ نقود .

ـ عليك أن تؤمّنها ، فأخ اشبيتّي إيفان ماتفييتش لايحب المزاح . فهو جاهز لأن يرفع بحقك دعوى على الفور : وعندها لن تفلت منه . لقد قمت بتسديد النقود عنك ؛ ادفعها لي !

ـ من أين حصلت على مبلغ كهذا ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ وماعلاقتك بذلك ؟ لقد استرددت مبلغاً قديماً . هات النقود ! من أجل هذا أتيت .

ـ حسناً ، سأذهب قريباً لأسلّم الشقة لشخص آخر ، أما الآن فانني مستعجل . . .

بدأ أبلوموف يزرّر سترته .

مانوعية الشقة التي تحتاجها ؟ فلن تعثر على أفضل منها في المدينة كلها
قال تارانيتيف . ألم ترها ؟ —

— لاأريد أن أراها ، — أجاب أبلوموف ، — لماذا أنتقل الى هناك ؟ فهي بعيدة بالنسبة لي . . .

— لماذا ؟ — سأل تارانتييف بفظاظة .

لكن أبلوموف لم يذكر السبب .

— بعيدة عن مركز المدينة ، — أضاف أبلوموف بعدها .

— عن مركز المدينة ؟ وماحاجتك اليه ؟ فأنت مستلقٍ دائماً في فراشك .

— كلا ، لقد أقلعت عن ذلك .

— ماالسبب ؟

— هكذا . فأنا . . . اليوم . . . . — بدأ أبلوموف .

— ماذا ؟ — قاطع تارانيتيف .

— أتناول الغداء خارج المنزل . . .

— أعطني النقود ، واذهب بعدها الى الشيطان !

— أية نقود ؟ — كرّر أبلوموف بنفاذ صبر . — سأمرّ قريباً الى الشقة الجديدة . واتحدث مع مالكتها .

— مع مالكتها ؟ مع إشبيتي ؟ إنها لاتعرف شيئاً بهذا الخصوص . تحدّثْ إلى أخيها ، وسترى !

twitter @baghdad_library

ــ حسناً ، سأذهب وأتحدث اليه قريباً .

ــ أعطني النقود وانْصرِف .

ــ لاأملك نقوداً ، يجب أن أستَلِف من أحدٍ ما .

ــ ادفع لي الآن ، على الأقل ، أجرة العربة ، ــ ألحّ تارانيتيف ، ولتكن ثلاثة روبلات .

ــ أين سائق عربتك ؟ ولماذا ثلاثة روبلات ؟

ــ لقد سمحت له بالإنصراف . ــ لماذا ثلاثة روبلات ؟ أنت ترى أنّ الطريق رملية هنا ، فلا يقبل السائق أقلّ من ذلك .

ناوله أبلوموف أربعة روبلات ، سرعان ماأخفاها تارانتييف في جيبه .

ــ يبقى لي في ذمتك سبعة روبلات . ــ أعطني ثمن الغداء !

ــ ثمن أي غداء ؟

ــ لن أستطيع الوصول الى المدينة الآن : سأضطر لأن أعرّج على حانة في الطريق . الأسعار غالية هنا ، فلن يكلفني الغداء أقل من خمسة روبلات .

أخرج أبلوموف بصمت من جيبه روبلاً ورماه له . لم يكن قادراً على الجلوس بسبب نفاذ صبره ، فقد كان يرغب كل الرغبة بأن ينصرف تارانيتيف بأسرع ما يمكن ، لكن هذا لم يتحقق بسهولة .

ــ أصدِرْ أوامرك كي يقدموا لي شيئاً ما ألتهمه ، ــ قال تارانتييف .

— (ملاحظاً) ألم تقل بأنك تريد أن تذهب الى الحانة ؟

— سأذهب الى الحانة وقت الغداء ! أما الآن فالساعة لم تبلغ الثانية بعد .

أمَرَ أبلوموف زاخار بتقديم شيء ما يأكله .

— لم نحضّر شيئاً ، — أجاب زاخار بجفاء ، وهو ينظر الى تارانتييف بغضب . —

متى ستعيد قميص سيّدي وسترته ياميخا أندرييتش ؟ . . .

— عن أي قميص وسترة تتحدث ؟ — قال تارانتييف متجاهلاً . — لقد أعدتهما منذ زمن بعيد .

— متى ؟ — سأل زاخار .

— ألم تستلمهما مني بيديك عندما انتقلتم الى هذا البيت ؟ لقد وضعتهما في إحدى الصّرات ومع ذلك تعود وتسألني . . .

بدت على زاخار علامات الذعر .

— آه ياالهي ! ياله من عار ! إيليا إيليتش ، أي رجل هذا ! — قال زاخار موجهاً كلامه الى إيليا ايليتش .

— غنِّ ، غنِّ هذه الأغنية ! — قال تارانتييف معترضاً . — شربت الشاي وأعود لأسأل عنه . . .

— كلا ، فأنا لم أفعل هذا أبداً ، — قال زاخار بصوت أجش . — فأنت الذي . . .

— كفى يازاخار ! — قاطع أبلوموف بصرامة .

twitter @baghdad_library

ـ ألم تأخذ من عندنا مكنسة وفنجانين ؟ ـ سأل زاخار من جديد .

ـ مكنسة ؟ ـ دوّى صوت تارانيتيف . ـ آه منك أيها الشيطان العجوز ! من الأفضل لك أن تأتيني ببعض الطعام !

ـ أسمعت ياإيليا إيليتش كيف ينبح ؟ ـ قال زاخار ـ لايوجد لدينا طعام ، حتى كسرة خبز واحدة لاتوجد في البيت ، وأنيسيا ليست موجودة ، ـ أتمتم زاخار كلامه ثم انصرف .

ـ أين ستتناول طعام الغداء ؟ ـ سأل تارانتييف . ـ عجباً حقاً : أصبح أبلوموف يتنزه في الغابة ويتناول الغداء خارج المنزل . . . متى ستلقي نظرة على الشقة الجديدة ؟

فها هو ذا الخريف على الأبواب . هيا اذهب سريعاً .

حسناً ، حسناً ، سأذهب قريباً . . .

ـ لاتنسَ أن تجلب النقود معك !

ـ أجل ، أجل ، أجل . . . ـ قال أبلوموف بفارغ الصبر .

ـ هل تحتاج لشيء ما في الشقة الجديدة ؟ فقد طلى أخ اشبينتي خصيصاً من أجلك ، أرض الشقة وسقفها ، والنوافذ والأبواب ـ فالكلفة تجاوزت المئة روبل .

ـ حسناً ، حسناً . . . كنت أريد أن أقول لك ـ تذكّر أبلوموف فجأة ، ـ بأن تذهب وتصدّق لي وثيقة توكيل . . .

ـ هل أصبحت معقّب معاملات عندك ؟ ـ أجاب تارانتيف .

ـ سأزيد لك قيمة الغداء ، ـ قال أبلوموف .

– سأتلف من الأحذية أكثر مما ستزيده لي .

– اذهب ، وسأدفع لك ماتريد .

– لاأستطيع – قال تارانتييف متجهّماً .

– لماذا ؟

– يوجد لديّ أعداء حانقون .

– حسناً ، سأذهب بنفسي ، – قال أبلوموف وهو يلتقط سدارته .

– عندما تذهب الى الشقة الجديدة ، سينجز لك إيفان ماتفييتش هذا الموضوع .

انه انسان رائع ماهر ، لايضاهيه أي ألماني ! فهو موظف روسي أصيل ، أمضى ثلاثين عاماً من الخدمة وهو يجلس على نفس الكرسي ، يعمل كالآلة ،ويملك نقوداً ، لكنه لايستأجر عربة ، يرتدي بدلة ليست أفضل من بدلتي ، حليم وديع ، يتكلّم بصوت لايكاد يسمع ، ولا يتسكّع في بلدان غريبة كما يفعل صاحبك . . .

– تارانتييف ! – صرخ أبلوموف وهو يضرب الطاولة بقبضةيده. اسكت ، فأنت لاتفقه شيئاً !

وقف تارنتييف مشدوهاً من ردّ فعل أبلوموف الحاد هذا ، حتّى أنّه نسي أن يبدي استياءه ، لأنّه وُضِع في منزلة أقل من منزلة شتولتس.

– هكذا أصبحت إذن ياأخي . . . – تمتم تارانتييف ، وهو يأخذ قبعته ، – ياله من نشاط ! مسّد قبعته بكمّه ، ثم نظر إليها والى قبعة أبلوموف المعلّقة .

twitter @baghdad_library

— أنت لاتلبس قبعّة ، بل سدارة ، — قال تارانتييف وهو يأخذ قبعّة أبلوموف االمعلّقة ويقيسها — أعطني القبعّة ياأخي .

رفع أبلوموف بصمت قبعّته من على رأس تارانتييف ووضعها في مكانها السابق ، ثم كتّف يديه وراح ينتظر انصرافه .

— اذهب الى الشيطان ! — قال تارانتييف ، وهو يحشر نفسه في الباب بارتباك ، — لقد تغيّرت ياأخي لاتنسَ أن تذهب الى إيفان ماتفييتش لتتحدث إليه .

— ٢ —

انصرف تارانتييف ، أما أبلوموف فقد جلس على أريكته وهو في وضع نفسّي غير مريح ، وبقي طويلاً قبل أن يتحرر من هذاالإنطباع المزعج الناجم عن زيارة تارانتييف . لكنّه مالبث أخيراً أنتذكّر الصباح . فاختفت صورة تارانتييف المزعجة من رأسه ، وظهرت الإبتسامة من جديد على وجهه .

وقف أمام المرآة ، ثم أصلح ربطة عنقه وابتسم طويلاً ، ونظر الى وجنتيه ليرى فيما إذا كان قد بقي عليهما أثر من قبلة أولغا الحارة .

— كم هو شائع الفرق بين « أبداً » السابقة و « أبداً » الراهنة ، — قال أبلوموف بصوت خافت وهو يضطرب بسرور : فالسابقة أصبحت شاحبة ذابلة ، أمّا الأخيرة فقد تألّقت بسطوع . . .

استغرق بعدها في تفكير عميق . أحسّ بأنّ عيد الحب المشرق

الصافي قد انقضى ، وأن الحب قد أصبح في حقيقة الأمر واجباً يمتزج بحياته كلها ، ويدخل في تكوين وأداء واجباتها الإعتيادية ، وأنّه بدأ يبهت ويفقد ألوانه الزاهية .

ربمّا يكون شعاع الحب الوردي الأخير قد انقضى صباح هذا اليوم ، فلن يتلألأ بعد الآن بسطوع ، بل سيدفىء الحياة بشكل غير منظور ، لكنّ الحياة ستمتصه مع الزمن ، وستصبح بالطبع ، الباعث القوي والخفي له . ستصبح تجاليات الحب بسيطة عادية ، منذ الآن .

القصيدة العاطفية انتهت ، وابتدأت حكاية الواقع الصارم :

وثيقة التوكيل ، السفر ألى أبلومفكا ، بناء البيت ، شقّ الطريق ، قضايا الفلاحين التي لاتنتهي ، نظام العمل ، الحصاد ، المحصول ، الحسابات ، ناظر القرية ، انتخابات النبلاء ، الإجتماعات .

لكنّ نظرة أولغا كانت تبرز أحياناً . هنا وهناك ، وتتردد أنغام أغنية العذراء الطاهرة ، وأصداء قبلة عجلى ، ثم تبرز المشاغل من جديد السفر الى المدينة ، الحسابات وغيرها .

يصل الضيوف ، فتدور الأحاديث : فلان ينتج كميات كبيرة من النبيذ ، وآخر كميات كبيرة من الخوخ . . . ماهذا ؟ أين المتعة في ذلك ، هل هذه حياة ؟ . . . والغريب في الأمر ، هو أنهم يجدون في ذلك ، الحياة كلها . وأندريي أيضاً ، تعجبه هكذا حياة !

لكنّ الزواج والعرس يظلان قصيدة الحياة وأنشودتها ، وزهرتها المتفتّحة الناجزة . تخيّل أبلوموف نفسه وهو يصحب أولغا الى الكنيسة ،

twitter @baghdad_library

وعلى رأسها غصن النارنج . يتهامس حشد الحضور ثم تتعالى صيحات الإعجاب . وتمدّ له يدها ، بحياء ، وصدرها يخفق بعض الشيء ورأسها يميل قليلاً بانسجام وكبرياء ، دون أن تعرف كيف ستواجه الجميع بنظراتها . فتظهر الابتسامة تارة ، والدموع تارة أخرى ، ثم تتعقد الفكرة فوق حاجبيها على شكل ثنية لاتكاد تظهر .

وبعد أن ينصرف الضيوف ، ترتمي على صدره ، كما فعلت اليوم ، وهي لاتزال في أبهى حلتها . . . « كلا ، سأذهب الى أولغا حالاً ، فأنا لاأستطيع أن أفكّر وأنعم بهذه الأحاسيس لوحدي ، -- تخيّل أبلوموف -- . سأخبر الجميع ، بل العالم كلّه بمشاعري هذه . . . كلا ، سأخبر في البداية عمّتها ، ومن بعدها البارون ، وسأكتب الى شتولتس. ستتملكهالدهشة ! سأخبر زاخار . وسيطير فرحاً ، ثم أعطيه خمسة وعشرين روبلاً .

تأتي بعد ذلك أنيسيا فترتمي على يدي لتقبّلها : فأعطيها عشرة روبلات . . . بعدها أصرخ أمام مسامع البشر كلّهم ، صرخة فرح وسرور ، صرخة تدفع الناس للقول :

« أبلوموف سعيد ، أبلوموف سيتزوج ! » .

سأطير الى أولغا : حيث ينتظرني هناك همس لاينقطع ، وميل خفي لتوحيد حياتين في حياة واحدة ! . . . »

أسرع أبلوموف الى أولغا . كانت تسمع أحلامه والبسمة بادية عليها

لكنه ما إن وثب من مكانه عازماً على الذهاب الى عمتها لابلاغها بالنبأ ، حتى قطبت حاجبيها ، فتسمّر مكانه وخاف .

— لاتتفوّه بكلمة لأحد ! — قالت أولغا ، وهي تضع اصبعها على شفتيها متوعدة وآمرة بأن يخفض صوته كي لاتسمع عمتها في الغرفة المجاورة . — لم يحن الوقت بعد !

— ومتى سيحين ، مادام كل شيء قد تقرر بيننا ؟ — سأل أبلوموف بفارغ الصبر . — مالعمل الآن ؟ من أي شيء نبدأ ؟ — سأل أبلوموف . لايجوز أنْ نجلس مكتوفي الايدي . المسؤولية ابتدأت ، والحياة الجدية أطلّت . . .

— أجل ، ابتدأ الجد والمسؤولية ، — كررت أولغا ، وهي تنظر إليه بإمعان .

— كنت أريد أن أخطو الخطوة الاولى ، فأذهب الى عمتك . . .

— هذه هي الخطوة الأخيرة .

— ماهي الخطوة الأولى ؟

— الخطوة الأولى : أن تذهب لتصادق على وثيقة التوكيل .

— أجل . . . سأذهب غداً . . .

— لماذا لاتذهب اليوم ؟

— اليوم . . . لاأستطيع أنْ أبتعد عنك في مثل هذا اليوم يا أولغا !

حسناً ، اذهب غداً . وماذا ستفعل بعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، — أخبر عمتك ، وأكتب الى شتولتس .

— كلا ، يجب أن تسافر الى أبلوموفكا بعد ذلك . . . فقد كتب

twitter @baghdad_library

اليك أندريي إيفانيتش بخصوص مايجب أن تفعله في القرية : لاأعرف بالضبط ماهي الأعمال ، التي تنتظرك هناك . هل ستشيد مبنى ؟ سألت أولغا وهي تنظر الى وجهه .

– ياإلهي ! – قال أبلوموف ، – اذا ماأخذنا بنصائح شتولتس ، فسيمر وقت طويل جداً قبل أن تصل المسألة الى عمتك ! انه ينصحني بأن أبدأ ببناء منزل ، ثم بَشقّ طريق ، وبتأسيس مدرسة . . . فهذه الأعمال تتطلب قرناً من الزمن لإنجازها . من الأفضل أن نذهب سوية الى ابلوموفكا ياأولغا ، وعندئذ . . .

– الى أين سنذهب ؟ هل يوجد لديك بيت هناك ؟

– كلا : يوجد منزل قديم جداً ، أعتقد أن سقفه قد تهدم تماماً .

– الى أين سنذهب اذن ؟ – سألت أولغا .

– يجب أن نبحث عن شقة هنا .

– أجل هذا ، يجب أن تذهب الى المدينة أيضاً ، – لاحظت أولغا هذه هي الخطوة الثانية . . .

– بعد ذلك . . . – بدأ أبلوموف

– نَفِّذ الخطوتين أولاً ، وبعدها . . .

« ماهذا ! – تفكر أبلوموف بأسى ، – فليس هذا هو الهمس الذي لاينقطع ، ولا الميل الخفي لتوحيد حياتين في حياة واحدة ! فكل شيء يبدو مختلفاً عما تخيلته ! كم هي غريبة أولغا هذه ! فهي لاتستقر في مكان واحد ، ولا تستمتع بحلاوةِ اللحظةِ الشاعرية ؛ فكأنه لاتوجد

لديها أحلام إطلاقاً ، أو حاجة للغوص في التأملات ! إنها كأندريي تماماً ! فهي لاتفتأ تكرر بأن أذهب حالاً ، للتصديق على الوثيقة ، وللبحث عن شقة . كأن اتفاقاً قد أبْرِم فيما بينهما لإنجاز المشاغل الحياتية بأسرع مايمكن ! »

في اليوم التالي ، أخذ أبلوموف بعض الأوراق الرسمية وتوجّه الى المدينة ، على غير رغبة ، وهو يتثاءب وينظر الى ماحوله بشرود . لم يكن يعرف جيداً ، مكان الدائرة الحكومية التي يقصدها ، لذا فقد عرّج على إيفان غيراسيميتش ليسأله عن الدائرة ، التي ستصادق على وثيقته .

سُرَّ إيفان غيراسيميتش كثيراً لزيارة أبلوموف ، ولم يترِكه دونما إفطار . بعد ذلك ، قرر أن يُحْضِر أحد أصدقائه كي يستفسر منه ، عن كيفية انجاز هذه الوثيقة الرسمية ، لأنه كان قد انقطع أيضاً عن مثل هذه الأمور ، منذ زمن بعيد .

انتهى الإفطار والاجتماع في الساعة الثالثة ، حيث أصبح الوقت متأخراً للذهاب الى الدائرة الرسمية . وصادف أن كان الغد هو يوم السبت ، يوم عطلة رسمية ، فتأجّل الأمر الى يوم الإثنين .

توجه أبلوموف الى ناحية فيبورغ قاصداً شقته الجديدة . سارت العربة ، التي استقلّها طويلاً عبر الأزقة وبين الأسيجة الطويلة . أخذ يبحث أخيراً عن الحارس ، عرف أبلوموف منه ، بأن الشقة تقع في الحي المجاور ، في أحد الشوارع الخالية من الأبنية ، حيث لايوجد الا الأسيجة والأعشاب وآثار طريق جاف يخترق الأوحال والأوساخ .

twitter @baghdad_library

تابع أبلوموف طريقه من جديد ، وهو يمعن النظر بالقرّاص النابت على الأسيجة ، وبالغبيراء ، التي تُشَاهَد وراءها . في نهاية المطاف ، أشار له الحارس الى بيت قديم قائلاً : « هذا هو البيت الذي تبحث عنه ».

قرأ أبلوموف على البوابة : « منزل الأرملة بشينيتسينا » ، ثم أمر الحوذي بالدخول الى فناء الدار .

— كان فناء المنزل يحتل حيزاً بمساحة غرفة واحدة فقط ، الأمر الذي سبّب اصطدام عريش العربة بإحدى الزوايا ، مما أجفل عدداً كبيراً من الدجاج المزدحم ، فانطلق مندفعاً بسرعة ، وهو يقاقي ، في اتجاهات مختلفة ، حتى أن البعض قد استخدم موهبة الطيران ؛ وأخذ كلب أسود كبير مربوط بالسلاسل ينبح نباحاً رهيباً ، وهو يندفع بقوة تارة الى اليمين ، واخرى الى اليسار ، محاولاً أن يطال أبواز الاحصنة .

كان أبلوموف الجالس في العربة قد أصبح على نفس المستوى مع نوافذ البيت ، مما صعّب عليه عملية النزول . وعبر النوافذ ، التي تكسوها أشجار القطيفة ، كانت تُرى رؤوس تتحرك جيئة وذهاباً . خرج أبلوموف بطريقةٍ ما من العربة ، فازداد نباح الكلب شدةً واصراراً .

دخل عتبة المنزل فصادف عجوزاً متغضنة ، ترتدي ثوباً بدون أكمام ، وضعت طرفه تحت الحزام .

— من تريد ؟ — سألت العجوز .

— ربة المنزل ، السيدة بشينيتسينا .

أخفضت العجوز رأسها بارتباك .

– أليس إيفان ماتفيتيش هو من تريد أن تراه ؟ – سألت العجوز – إنه ليس موجوداً في البيت ، لم يأت من الوظيفة بعد .

– أريد أن أرى صاحبة البيت : – قال أبلوموف .

في هذه الأثناء ، استمرت الجلبة في البيت . كان رأس يُطلّ من إحدى النوافذ تارة ، ومن نافذة مجاورة تارة أخرى ، ومن خلف العجوز انفتح الباب قليلاً ثم انغلق ، حيث أطلّت منه وجوه مختلفة .

استدار أبلوموف . فشاهد في فناء المنزل طفلاً وطفلة ، ينظران إليه بفضول .

ومن مكان ما ، ظهر فلاح يبدو عليه النعاس ، يرتدي معطفاً من فرو الضأن ، كان يضع يده فوق عينيه كي يحجب نور الشمس ، وهو ينظر بتكاسل الى أبلوموف والعربة .

كان الكلب لايزال ينبح بشدة وتقطّع ، وكان نباحه يزداد ضراوة وإصراراً ، كلما تحرك أبلوموف ، أو ضرَب الحصان بحافره الأرض . من الجهة اليمنى ، عبر السياج ، شاهد أبلوموف حقلاً من الملفوف ، ومن الجهة اليسرى بعض الاشجار وتعريشة خضراء رائعة .

– تريد أغافيا ماتفييفنا ؟ – سألت العجوز . – لماذا ؟

– أخبري صاحبة البيت . بأنني أريد مقابلتها – بدأ أبلوموف كلامه – فلقد استأجرت شقة هنا . . .

twitter @baghdad_library

ـ أنت المستأجر الجديد ، صديق ميخا أندريتش ؟ انتظر ، سأخبرها .

فتحت الباب ، فانطلقت رؤوس عدة تركض مسرعة الى الغرف. استطاع أبلوموف أن يرى امرأة بيضاء اللون ، ممتلئة ، عارية المرفقين والعنق ، بدون قلنسوة نسائية . أخذت المرأة تضحك بمكر ، لأن شخصاً غريباً قد رآها ، وابتعدت هي الأخرى بدورها عن الباب متوارية .

ـ تَفَضَّل الى الحجرة ، ـ قالت العجوز بعد أن عادت ، ثم قادت أبلوموف عبر غرفة انتظار صغيرة الى حجرة كبيرة نسبياً ، ورجته أن ينتظر . ـ ستأتي صاحبة البيت بعد قليل ، ـ أضافت العجوز.

(مازال الكلب ينبح)، ـ فكّر أبلوموف وهو يتفحص الحجرة .

تسمّرت عيناه فجأة على حاجيات معروفة لديه جيداً : كانت الحجرة مكتظة بممتلكاته . الطاولات مكسوة بالغبار ، الكراسي أكوام على السرير ، الآنية مرمية بغير انتظام ، الخزانات متسخة .

ـ ماهذا ، حاجياتي غير مرتبة ولا منظفة ؟ ـ قال أبلوموف . ـ يالها من بشاعة !

صرّ الباب من خلفه فجأة ، ودخلت الحجرة نفس تلك المرأة ذات المرفقين العاريين والعنق المكشوف ، التي كان قد شاهدها .

كانت في الثلاثين من العمر ، بشرتها شديدة البياض ، وجهها ممتلىء كثيراً ، لدرجة أن الحمرة لاتستطيع ، على مايبدو ، أن تشق طريقها الى وجنتيها . لم يكن لديها حاجبان إطلاقاً ، فقد ظهر مكانهما خطّان

لامعان متورّمان قليلاً ، مع بعض الشعيرات الشقراء عليهما . العينان رماديتان وديعتان ، كوداعة تعبير وجهها كله ، اليدان بيضاوان ، لكنهما قويتان ، تظهر عليهما بعض عروق زرق منتفخة قليلاً

كان فستانها ملتصقاً بجسدها : فقد بدا واضحاً بأنها لاتستخدم أية وسائل اصطناعية تجميلية ، تُضيّق خصرها وتُكبّر وركيها . لذا ، فان نصفها العلوي ، عندما تكون بدون شال ، يمكن أن يصلح بالنسبة للرسام والنحات ، نموذجاً رائعاً لصدر قوي ممتلىء ، دون أن ينال ذلك من حشمتها . كان فستانها يبدو ، بالمقارنة مع شالها الأنيق وقلنسوتها الفاخرة ، قديماً مبتذلاً .

لم تكن تستقبل الضيوف مطلقاً ؛ لذا فانها لم تغيّر فستانها الذي ترتديه عادةً في البيت . عندما أبدى أبلوموف رغبته بمقابلتها ، بل اكتفت بأن وضعت فوقه شالها الأنيق ، واعتمرت قلنسوتها . دخلت الحجرة بحياء ثم توقفت ، وهي تنظر الى أبلوموف بارتباك .

نهض أبلوموف قليلاً ثم انحنى مسلّماً .

أملك الشرف والسعادة برؤية السيدة بشينيتسينا . أليس كذلك ؟ — سأل أبلوموف .

— أجل ياسيدي ، — أجابت صاحبة البيت . — ربما كنت تريد أن تتحدث الى أخي ؟ — سألت بتردد . — انه لايزال في عمله الوظيفي ولن يأتي قبل الخامسة .

— كلا . فأنا أريد مقابلتك ، — بدأ أبلوموف حديثه ، بعد أن

twitter @baghdad_library

جلست على الأريكة بعيدة عنه قدر المستطاع ، وراحت تنظر الى طرف شالها ، الذي كان يغطيها حتى الارض ، كما أخفت يديها أيضاً تحته .

— كنت قد استأجرت عندك ، لكن الظروف أجبرتني لأن أبحث عن شقة غيرها في الجزء الآخر من المدينة ، لذا فقد أتيت لأتحدث اليك .

كانت تصغي اليه وتفكّر ببلاهة .

— أخي ليس موجوداً الآن ، — قالت بعد برهة من التفكير .

— أليس البيت ملكاً لك ؟ — سأل أبلوموف .

— أجل ، — أجابت باقتضاب .

— إذن ، فانت التي تقررين على ماأعتقد . . .

— لكن أخي ليس موجوداً ، فهو الذي يدير كل شيء هنا ، — قالت برتابة ، وهي تنظر الى ابلوموف للمرة الأولى مباشرة ، ثم أخفضت عينيها لتنظر من جديد الى الشال .

« وجهها بسيط ، لكنه مريح ، — أسرّ أبلوموف لنفسه ، — لابد انها امرأة طيبة ! ») في هذه الأثناء ، أطلّ رأس الطفلة من الباب . أومأت لها أغافيا ماتفييفنا ، خلسة ، برأسها كي تنصرف . فتوارت الطفلة .

— أين يعمل أخوك ؟

— في أحد الدواوين

— في أي ديوان ؟

ـــ في الديوان ، الذي يُسَجل فيه الفلاحون . . . .لاأعرف ماذا يسمى .

ضحكت بسذاجة ثم استعاد وجهها فوراً تعبيره الإعتيادي السابق .

ـــ هل تعيشين لوحدك مع أخيك ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ كلا ، يعيش معي أيضاً طفلان من المرحوم زوجي : صبي في الثامنة وطفلة في السادسة ، ـــ بدأت صاحبة البيت ، وقد ظهرت عليها الرغبة في الكلام ، وأصبح وجهها أكثر حيوية ، ـــ وجدتي العجوز المريضة ، التي لاتستطيع أن تمشي الآن الا بصعوبة ، والى الكنيسة فقط. كانت تذهب سابقاً الى السوق ، لكنها توقفت الآن عن ذلك : فساقاها لاتطاوعانها . . . تأتي أحياناً أخت المرحوم زوجي لزيارتنا ، وكذلك يفعل ميخا أندريتيش .

ـــ هل يزوركم ميخا أندرييتش كثيراً ؟

ـــ أحياناً ، مرة واحدة شهرياً ، إنه صديق أخي . . .

ثم صمتت ، بعد أن استنفذت احتياطها كله من الافكار والكلمات

ـــ ماأكثر الهدوء هنا ـــ قال أبلوموف . ـــ فلولا نباح الكلب ، لاعتقد المرء بأنه لاوجود لأي كائن حي .

أجابته بضحكة .

ـــ هل تخرجين من المنزل غالباً ؟

ـــ في الصيف أحياناً . منذ مدة غير بعيدة ، ذهبنا في الجمعة المقدسة الى مصانع البارود .

twitter @baghdad_library

— هل يتواجد أناس كثيرون هناك ؟ — سأل أبلوموف وهو ينظر عبر شالها المنفتح ، الى صدرها البارز العامر ، كوسادة الأريكة .

— كلا ، كان الناس قليلين هذا العام ، فقد هطل المطر منذ الصباح ، ثم صحا الطقس بعد ذلك قليلاً . فلولا ذلك لكانت جموع الناس كثيرة .

— أين تتواجدين أيضاً ؟

— نادراً ما نغادر البيت . لكن أخي يذهب أحياناً بصحبة ميخا أندرييتش لصيد السمك . أما نحن فنبقى في البيت .

— هل يُعْقَل أن تبقوا في البيت ؟

— قسماً ، تلك هي الحقيقة . في السنة الماضية ذهبنا الى كولبينا . وأحياناً نذهب إلى الغابة هنا .

وفي الرابع والعشرين من حزيران الفائت ، أقام أخي غداء بمناسبة عيد أحد القديسين . دعا اليه زملاءه في العمل .

— هل تقومين بزيارات ؟

— أخي يقوم بذلك ، أما أنا فأخرج مع ابني وابنتي في عيد الميلاد لزيارة أقارب زوجي فقط . فنتغدّى هناك .

لم يبق هنالك موضوع يمكن أن يدور حوله حديث .

— يوجد عندكم أزهار : هل تحبينها ؟ — سأل أبلوموف .

ضحكت .

– كلا ، قالت أغافيا ماتفييفنا . – ليس لدينا وقت للإهتمام بالأزهار . كل مافي الأمر ، هو أن ابني وابنتي قد ذهبا بصحبة أكولينا الى حديقة الكونت ، فأعطاهم البستاني هذه الأزهار ، أما الصبّار وابرة الراعي فموجودان منذ أيام زوجي .

في هذه الأثناء دخلت أكولينا الغرفة مسرعة ، وفي يديها ديك كبير يخفق جناحيه بشدّة .

– أغافيا ماتفييفنا . هل هذا هو الدّيك ، الذي سنعطيه للبائع ؟ – سألت أكولينا .

– ماذا جرى لك ، ماذا جرى ! انصرفي ! – قالت صاحبة البيت بحياء . – ألا ترين الضيوف !

– أتيت لأسألك فقط ، – قالت أكولينا وهي تمسك الديك من ساقيه . ورأسه الى الأسفل – . إنه يدفع سبعين كوبيكاً فقط .

– اذهبي . اذهبي الى المطبخ ! – قالت أغافيا ماتفييفنا . – ليس هذا ، بل الديك الرمادي المرقّط . – أضافت بسرعة ، وقد خجلت من نفسها . ثم أخفت يديها تحت الشال وصارت تنظر الى الأسفل .

– انه الاقتصاد المنزلي ! – قال أبلوموف .

– أجل ، يوجد لدينا دجاج كثير ، فنحن نبيع البيض والفرّوج . فكل البيوت الكائنة هنا ، على هذا الشارع . بما فيها منزل الكونت

twitter @baghdad_library

تشتري من عندنا ، ــ أجابت صاحبة البيت وهي تنظر بجرأة أكثر الى أبلوموف .

علا وجهها تعبير من الذكاء وشدة الاهتمام ، حتى أن البلاهة قد اختفت منه تماماً ، عندما أخذت تتحدث عن موضوع تلمّ به جيداً . كانت تجيب على كل سؤال لايتعلق باهتماماتها ومجال عملها بضحكة وبصمت .

ــ كان ينبغي ترتيب هذا ، ــ لاحظ أبلوموف ، وهو يشير الى الأثاث المنزلي المكوّم ، الذي يخصه . . .

ــ كنا نريد أن نفعل ذلك ، لكن أخي لم يوافق . ــ قاطعت بحيوية وهي تنظر بجرأة تامة الى أبلوموف ، ــ فقد قال : « الله وحده يعلم ، ماذا يوجد في هذه الطاولات والخزانات ، فاذا ماضاع شيء ، فنحن سنتحمّل المسؤولية بعد ذلك . . . » . ثم توقفت عن الكلام وضحكت .

ــ كم هو حَذِر أخوك ! ــ أضاف أبلوموف .

ضحكت قليلاً ثم اكتسب وجهها من جديد ، تعبيره الإعتيادي .

كانت الضحكة تجسد الردّ المقبول عندها ، عندما لاتستطيع الإجابة على هذه المسألة أو تلك من المسائل التي تجهلها .

ــ لا أستطيع أن أنتظر طويلاً ، ربما تستطيعين أنْ تبلغي أخاك ، بأنْ ظروفاً قد استجدّت عندي . لم أعد بسببها بحاجة الى الشقة . لذا

أرجو اعطاءها لمستأجر آخر ، وأنا من جهتي ، سأبحث أيضاً عن راغب بها .

كانت تصغي اليه ببلاهة وهي ترفّ عينيها بانتظام .

ـــ فيما يتعلق بالعقد أرجو أن تتفضلي وتقولي . . .

ـــ لكن أخي ليس موجوداً في البيت ـــ رددت بالحاح ، من الأفضل أن تتكرّم وتأتي غداً : فيوم الغد السبت ، وأخي سيكون في البيت لأنه يوم عطلة . . .

ـــ انني مشغول جداً ، لاتوجد لدي دقيقة فراغ واحدة ، ـــ أجاب أبلوموف ـــ . أرجو أن تتفضلي وتبلغي أخاك فقط ، بأن قيمة الإيجار تبقى لكم ، أما أنا فسأعثر على مستأجر . . .

ـــ لكن أخي ليس موجوداً ، ـــ قالت برتابة ، ـــ ثم نظرت الى الشارع ـــ انني ألمحه من بعيد عندما يأتي ، لكنه ، للأسف ، لم يأت بعد .

ـــ حسناً ، سأنصرف . . .

ـــ متى ستنتقل الى الشقة ؟ ـــ سألت وهي تنهض من على الأريكة . فلا بدّ أنْ يسألني أخي عن ذلك . ماذا سأقول له ؟ . . .

ـــ أبلغيه ماسبق أن قلته ، ـــ قال أبلوموف ، ـــ . أخبريه بأنّ ظروفاً قد استجدّت . . .

ـــ ليتك تتفضل وتُشرّفنا بالمجيء غداً ، كي تتحدث إليه . . . ـــ كررت أغافيا ماتفييفنا .

twitter @baghdad_library

— لاأستطيع المجيء غداً .

— فليكن بعد غد ، يوم الأحد : فميخا أندرييتش سيأتي لعندنا .

— هل سيأتي ميخا أندرييتش حقاً ؟ — سأل أبلوموف .

— اقسم بالله ، إن ما أقوله صحيح ، — أضافت صاحبة البيت .

— وبعد غد لاأستطيع المجيء ، — قال أبلوموف بفارغ الصبر .

— فليكن في الأسبوع المقبل . . . — لاحظت أغافيا ماتفييفنا . — متى ستنتقل الى الشقة اذن ؟ — سألت من جديد ، — أرجو أنْ تحدّد لي موعد انتقالك ، كي أغسل أرض الشقة وأزيل الغبار ، وأرتّب كل شيء .

— لن أنتقل .

— كيف ؟ وحاجياتك هذه ، أين سنضعها ؟

— أرجو أنْ تتفضّلي وتبلغي أخاك ، — بدأ أبلوموف كلامه متوقّفاً بين الكلمات ، وهو يركّز نظره مباشرة على صدرها ، — بأن ظروفاً قد استجدّت . . .

— لقد تأخر أخي اليوم ، — قالت برتابة وهي تنظر الى السياج ، الذي يفصل الشارع عن فناء المنزل . — إنني أعرف وقع خطواته ، كما انني أسمع وقع خطوات كل شخص يأتيه ، منذ أن تطأ قدماه الجسر الخشبي . نادراً ما يأتي الناس الى هنا . . .

— هل ستبلغيه ما قلته لك ؟ — سأل أبلوموف وهو ينحني وينصرف .

ـــ سيأتي أخي بعد نصف ساعة . . . قالت صاحبة البيت بقلق غير مألوف بالنسبة لها ، وهي تحاول أن تستوقف أبلوموف بصوتها .

ـــ لاأستطيع أن أنتظر أكثر ، ـــ قال أبلوموف بإصرار وهو يفتح الباب .

ماان اصبح أبلوموف على عتبة المنزل ، حتى بدأ الكلب نباحاً مسعوراً ، وهو يندفع تارة الى اليمين وأخرى الى اليسار كي يتحرر من سلاسله . أما الحوذي ، الذي كان نائماً وهو يسند رأسه على مرفقيه ، فقد بدأ يُرجع الاحصنة الى الوراء ، بينما عادت الجلبة من جديد لتعمّ الدجاج المزدحم ، الذي كان يندفع ويتطاير في اتجاهات مختلفة ، كما أطلّت بعض الرؤوس من النوافذ .

ـــ سأخبر أخي بأنك كنت هنا ، ـــ أضافت صاحبة البيت بقلق ، عندما جلس أبلوموف في العربة .

ـــ أبلغيه أيضاً ، بأنه نظراً للظروف المستجدة ، لاأستطيع أن أبقي الشقة على حسابي . وانني سأعطيها لمستأجر آخر ، أرجو أنْ يبحث أخوك عنه . . .

ـــ يأتي المستأجرون دائماً في هذه الفترة . . . ـــ قالت صاحبة البيت وهي تسمعه بشرود ـــ سأخبر أخي بأنك كنت تريد المجيء .

ـــ أجل ، سأمر قريباً ، ـــ قال أبلوموف .

خرجت العربة من فناء المنزل والنباح المسعور يصمّ الآذان ، ثم راحت تترجرج على النتؤات الحافة البارزة على الزقاق الضيق .

twitter @baghdad_library

في نهاية الزقاق ، ظهر رجل متوسط العمر ، يرتدي معطفاً بالياً ، ويحمل صرّة كبيرة تحت إبطه . كان يمسك بيده عصا غليظة ، وينتعل جزمة مطاطية رغم حرارة الجو وجفافه .

كان يسير مسرعاً وينظر الى كل الجهات ضارباً بشدة الأرض بقدميه، كما لو انه يريد أن يثقب أرض الرصيف الخشبية . تابعه أبلوموف بنظراته ، ثم رآه وهو يدخل بوابة منزل بشينيتسينا .

« لابد أنه أخوها ! — قال أبلوموف . — فليذهب الى الشيطان ! لن أعود الآن لأتحدّث اليه . فأنا أشعر بالجوع وبحرارة الجو ! كما ان أولغا تنتظرني . . .

سأرجيء التحدث اليه للمرة القادمة ! » .

أسرع ! — قال مخاطباً الحوذي

« ألاينبغي أن أبحث عن شقة أخرى ؟ — تذكر أبلوموف فجأة وهو ينظر الى الأسيجة على جانبي الطريق . — يجب أن أعود من جديد الى مورسكايا . . . سأرجيء الأمر الى المرة القادمة ؟ » .

— أَسْرِعْ ! أَسْرِعْ !

— ٣ —

هطلت الأمطار في أواخر شهر آب ، وأخذ الدخان ينطلق من المداخن ، أينما وجدت ، ثم أخذت المنازل الريفية الصيفية تفرغ من ساكنيها تدريجياً .

لم يزر أبلوموف المدينة . ذات صباح ، شاهد أثاث آل ايلينسكايا يُحمَل ويُنقَل الى جهة ما . ومع أنّ الإنتقال من الشقة ، والغداء خارج المنزل ، والامتناع عن الاستلقاء والنوم طيلة اليوم ، لم يعد يعتبر تضحية بالنسبة لأبلوموف ، الا أنه لم يكن يعرف كيف سيمضي الليل وحيداً .

فقد بدا له أمراً مستحيلاً ، البقاء وحيداً في المنزل الصيفي ؛ الذي يقطنه ، بعد أنْ خلت الحديقة والغابة من الرواد ، وأُغلقت نوافذ أولغا .

جاب حجرات منزلها الخاوية ، وتنزه في الحديقة ، وهبط الرابية ، لكن الحزن كان يثقل صدره .

أمر زاخار وأنيسيا بالذهاب الى ناحية فيبورغ ، حيث قرّر أنْ يستقر هناك ، ريثما يعثر على شقة جديدة ، اما هو فقد ذهب الى المدينة وتناول الغداء في إحدى الحانات ، وأمضى السهرة عند أولغا .

لم تكن الأمسيات الخريفية في المدينة تشبه الأمسيات الطويلة الرائعة في الحديقة والغابة ، فلم يعد يستطيع أنْ يراها هنا ثلاث مرات يومياً ، كما أنّ كاتيا لن تقدر بعد الآن على المجيء اليه ، ولن يستطيع هو بدوره أيضاً أنْ يرسل زاخار ليوصل اليها رسالة على بعد خمسة فراسخ فقط . كأنّ ملحمة الحب الصيفية الرائعة قد توقفت كلها ، فأخذ بريقها يبهت شيئاً فشيئاً ، بينما بدأ مضمونها يفقد جاذبيته .

أحياناً . كانا يصمتان نصف ساعة . فتستغرق أولغا في عملها

twitter @baghdad_library

وتطريزها وهي تحصي ،ربعات زخرفها ، بينما يستغرق أبلوموف في فوضى أفكاره المشوّشة ، ويستبق اللحظة الراهنة مسافات كبيرة الى الامام ، ليعيش في أوهامه وتخيلاته .

في بعض الأحيان فقط ، كان ينظر اليها بإمعان فيختلج شوقاً ووجداً ، أو تلقي أولغا عليه نظرة عجلى فتبتسم ، بعد أن تكون قد رأت شعاع الخضوع والسعادة الصامتة بادياً في عينيه .

ظل ثلاثة أيام متتالية يسافر الى المدينة ويتناول الغداء عند أولغا بحجة أنه لم يرتب أموره بعد هناك .

لكنه لم ير من اللائق أن يزورهم في اليوم الرابع ، فتسكع قليلاً بالقرب من منزل إيلينسكايا ، ثم أقفل عائداً الى البيت والحسرة في قلبه .

في اليوم الخامس لم يتناول آل إيلينسكايا الغداء في البيت .

في اليوم السادس قالت له أولغا بأنْ يوافيها الى أحد المخازن ، حيث يستطيع أن يرافقها من هناك سيراً على الاقدام حتى البيت ، أما العربة فستسير وراءهما .

كان ذلك كلهُ محرجاً بالنسبة له ، لأنهما صادفا بعض المعارف أثناء الطريق ، حتى أن البعض منهم كان يتوقف ويتحدث إليهما .

— آه ، ياالهي ، ياله من عذاب ! — قال أبلوموف ، والعرق يتصبب منه بسبب خوفه وارتباكه .

كانت عمتها تنظر اليه أيضاً بعينيها الواسعتين الفاترتين ، وهي تشم رائحة الكحول المنبعثة منه . فتبدو وكأن دواراً قد أصابها من جرّاء هذه الرائحة

وتأتي أيضاً المسافة البعيدة ، التي سيقطعها لتزيد في ارباكه ! فالعودة الى ناحية فيبورغ تتطلب منه ثلاث ساعات من الجهد .

ـ سأخبر عمتك ، ـ قال أبلوموف بالحاح ، ـ عندئذ أستطيع أنْ أبقى عندكم منذ الصباح ، دون أنْ يتناولنا الناس بألسنتهم . . .

ـ هل ذهبت الى الدائرة الحكومية ؟ ـ سألت أولغا .

كان أبلوموف يتمنى أنْ يقول لها : « لقد ذهبت وأنجزت كل شيء » ، لكنه كان يعلم بأن اولغا تنظر إليه بامعان ، وستقرأ الكذب على وجهه فوراً . تنهّد أبلوموف وأجاب :

ـ (متنهّداً) ليتك تعلمين ، كم يصعب تحقيق ذلك !

ـ هل تحدّثْت الى أخ صاحبة الشقة ؟ هل بحثت عن شقة جديدة ؟ سألت أولغا بعد ذلك ، دون أنْ تنظر اليه .

ـ في الصباح لايتواجد في البيت مطلقاً ، وفي المساء أكون دائماً بصحبتك ، ـ قال ابلوموف وقد سُرّ لأنه وجد عذراً كافياً .

تنهدت أولغا لكنها لم تقل شيئاً .

ـ سأتحدث غداً من كل بد الى أخ صاحبة الشقة ، ـ قال أبلوموف مُطَمْئِناً ، ـ فغداً يصادف يوم الأحد ، وسأجده في البيت ، لأن اليوم هو يوم عطلة .

ـ مادمت لم تنجز ذلك كله ، ـ قالت أولغا متأملة ، ـ فمن المستحيل إبلاغ عمتي ، كما أنّ لقاءاتنا يجب أن تصبح نادرة . . .

twitter @baghdad_library

ـ أجل . أجل . . . هذا صحيح ، ـ أضاف أبلوموف وقد اعتراه الخوف .

ـ فلنتناول طعام الغداء عندنا مرة يوم الأحد ، ومرة أخرى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، ـ قررت أولغا ـ . بعد ذلك يمكن أنْ نلتقي في المسرح : فسأخبرك عن موعد ذهابنا ، كي تذهب أنت أيضاً .

ـ أجل . هذا صحيح ، ـ قال أبلوموف وقد سُرَّ لأنها أخذت على عاتقها مسألة تنظيم اللقاءات .

ـ واذا ما أصبح الطقس جميلاً في أحد أيام الأسبوع ، فسأذهب الى الحديقة الصيفية لأتنزه .

بامكانك أنْ تذهب الى هناك أيضاً ؛ فستذكّرنا بأيام الحديقة . . . الحديقة ! ـ كررت أولغا بمتعة .

قبّل يدها بصمت وودّعها على أمل اللقاء يوم الأحد . شيّعته بنظراتها بأسى . ثم جلست الى البيانو وراحت تعزف ألحاناً شجيّة . كان قلبها يبكي ، فبكت الألحان أيضاً . أرادت أنْ تغنّي ، لكنها لم تستطع !

استيقظ أبلوموف في اليوم التالي ، فارتدى سترته ، التي كان يرتديها في المنزل الصيفي .

لقد طلّق رداءه منذ زمن بعيد وأمر بإخفائه في الخزانة .

كان زاخار يحمل صينية عليها قهوة وحلويات ، وهي ترتجّ كالعادة بين يديه . وكعادتها . فقد كانت أنيسيا تطلّ من خلفه برأسها من الباب وتراقب إنْ كان زاخار سيوصل الفناجين الى الطاولة بسلام . وبدون

أنّ تحدث أية ضجة ، كانت تتوارى فوراً عندما يضع زاخار الصينية على الطاولة بسلام ، أو تندفع كالسهم عندما يُسقط أحد الأغراض الموجودة عليها لتنقذ ماتبقى . زد على ذلك ، بأنّ زاخار قد اعتاد أن ينْهال بالسباب والشتائم على الأغراض المتساقطة اولاً ، ثم على زوجته بعد ذلك مهدّداً إياها بمرفقه .

– يالها من قهوة رائعة ! من أعدّها ؟ – سأل أبلوموف

– صاحبة البيت نفسها – قال زاخار ، – انها تُعِدُّ القهوة لليوم السادس على التوالي . فهي تقول لي :

« إنك تضع كثيراً من السكر ، ولاتغليها جيداً . هات فسأعِدُّها بنفسي ! » .

– قهوة رائعة – كرّر ابلوموف ، وهو يصب فنجاناً آخر . – اشكرها باسمي .

– هاهي . – قال زاخار مشيراً الى باب الغرفة الجانبية نصف المفتوح . – إنها تعمل هنا طوال الوقت . فكل شيء موجود : شاي ، سكر ، قهوة . آنية ، فالمكان عندها هناك كالبوفيه تماماً .

كان أبلوموف يرى ظهر صاحبة البيت . وقفا رأسها ، وجزءاً من عنقها الأبيض ومرفقيها العاريين فقط .

– ماهذا الشيء الذي تحرّكه هناك بحيوية ؟ – سأل أبلوموف

– وما أدراني بذلك ! ربما كانت تكوي مطرزاتها .

أخذ أبلوموف يتابع حركة مرفقيها وظهرها وهي تنحني وتستقيم من جديد .

twitter @baghdad_library

كان يرى من الأسفل عندما تنحني ، جوربها وتنورتها النظيفين وساقيها الممتلئتين المسبوكتين .

« مُسْتَخْدَمَة . لكنّ مرفقيها كمرفقي كونتيسة ! ومما يزيدهما جمالاً وجود غمازتين عليهما » — فكّر أبلوموف .

في وسط النهار ، جاء زاخار ليسأل إنْ كان من المستحسن تذوق فطائرهم :

فقد أمرت صاحبة البيت انْ أعرض ذلك . فاليوم هو الأحد . اليوم الذي يُعِدّون فيه الفطائر .

— أعتقد أنّ فطائرهم جيدة ! — قال أبلوموف بلا اكتراث . — فطائر بالبصل والجزر . . .

— ليست أسوأ من فطائرنا في أبلوموفكا مطلقاً ، — قال زاخار — . حتى من الفطائر . التي كنا نعدّها بالفطر والدجاج .

— لابد أنْ تكون شهية جداً : هات لنتذوقها ! من ذا الذي يُعدّها ؟ هل تلك المرأة القذرة ؟

— لايمكن ! — قال زاخار بازدراء . — فهي لاتعرف أن تحضّر شيئاً كهذا . فصاحبة البيت هي الكل بالكل . هي التي تحضّر الفطائر بمساعدة أنيسيا .

بعد خمس دقائق ، امتدت من الغرفة المجاورة يد عارية تقريباً ، يغطّي جزءاً ضئيلاً منها شال رآه من قبل ، وهي تناول صحناً مليئاً بالفطائر الساخنة ، التي يتصاعد منها البخار .

— شكراً جزيلاً ، — قال أبلوموف بلطف وهو يتناول الفطائر ، ثم نظر الى الباب وركز بصره على صدرها العامر وكتفيها العاريين . انغلق الباب بسرعة .

— ألاترغب بشيء من الفودكا — سأله صوت .

— لاأشرب ، أشكركِ جداً ، — قال أبلوموف بلطافة أكثر ، — مانوع الفودكا التي عندكم ؟

— منزلية ، من صنعنا : فنحن نفضل الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب ، — قال الصوت .

— لم أذق في حياتي فودكا من عنب الثعلب ، اسمحي لي بشيء منها !

امتدت اليد العارية من جديد ، فناولته صحناً وكأساً من الفودكا . جرع أبلوموف الكأس ، فأعجبه كثيراً .

— شكراً جزيلاً ، — قال أبلوموف وهو يحاول النظر الى الباب ، لكن الباب انغلق .

— (معاتباً) لماذا تختفين بسرعة هكذا ؟ فمن واجبي أنْ أقول لك : صباحاً سعيداً .

ضحكت صاحبة البيت وراء الباب .

— لاأزال في ثوب النوم ، فأنا في المطبخ منذ أن استيقظت . سأغيرّ ملابسي الآن ، فأخي سيأتي قريباً ، — أجابت صاحبة البيت .

twitter @baghdad_library

– (ملاحظاً) بالمناسبة ، أريد التحدث الى أخيك ، أرجو ابلاغه بالمجيء لعندي .

– حسناً ، سأبلغه ذلك حالما يأتي .

– من هذا الذي يسعل عندكم ؟ من صاحب هذا السعال الجاف ؟

– إنها جدتي ، فهي تسعل منذ ثماني سنوات .

انغلق الباب .

« كم هي . . . بسيطة ، – تفكّر أبلوموف ، – يوجد فيها شيء يلفت النظر . . . إنها نظيفة دائماً ! »

حتى هذا الوقت ، لم يكن أبلوموف قد تعرّف بعد على « أخيها » . كان يرى من الفراش فقط ، وهذا ماكان يحدث نادراً ، كيف كان يمرّ سريعاً في الصباح الباكر عبر السياج ، رجل يتأبط صرة ورقية كبيرة . فيختفي في الزقاق ، ثم يعود ليظهر بعدها من جديد في الخامسة مساء متأبطاً نفس الصرة وهو عائد ، فيختفي في العتبة . لم يكن صوته يُسْمَع في البيت مطلقاً .

كان من الملاحظ أيضاً ، وخاصة في أوقات الصباح ، بأنّ أناساً يعيشون هناك : فقد كان يسمع صوت السكاكين في المطبخ ، كما كان يسمع عبر النافذة البواب يقطّع الحطب أو ينقل برميلاً من الماء على عربة ذات دولابين ، وعبر الجدار ، كان يسمع بكاء أطفال ، وسعال عجوز قوي حاد .

كان أبلوموف يشغل أربع غرف ، أي الصف الأمامي كله . أما

صاحبة البيت فكانت تشغل مع أسرتها غرفتين خلفيتين ، بينما كان أخوها يشغل غرفة صغيرة في الأعلى .

كانت نوافذ حجرة أبلوموف وغرفة نومه تطل على فناء المنزل ، بينما كانت نوافذ الاستقبال تطل على الحديقة ، أما نوافذ الصالة فكانت تطل على حاكورة كبيرة مزروعة بالملفوف والبطاطا . وفي غرفة الاستقبال ، كانت النوافذ مغطاة بستائر من قماش الشيت الباهت . كانت كراس بسيطة مصنوعة من خشب الجوز ، مصفوفة على الجدران وتحت المرآة توجد طاولة ذات أربع زوايا ، وعلى النوافذ يوجد عدد كبير من الأصص التي تحتوي على نباتات مختلفة وقد علق أيضاً أربعة أقفاص تحتوي على عصافير الكناري والسميلي .

دخل أخ صاحبة البيت على رؤوس أصابعه ، ورد على تحية أبلوموف له بثلاث انحناءات . كانت أزرار بدلته الرسمية قد بكلت جميعها ، لدرجة أنه كان يصعب على المرء أن يتبين ، فيما إذا كان يرتدي تحتها ملابس داخلية . ربطة عنقه معقودة ببساطة ، أما نهايتها فكانت مخفية داخل بدلته .

كان في الأربعين من عمره ، على جبينه ذؤابة من الشعر المستقيم ، وعلى فوديه أيضاً ذؤابتان تشبهان أذني كلب من الحجم الوسط .

لم تكن عيناه الرماديتان تنظران الى الأشياء فجأة ، بل كانتا تنظران في البداية خلسة ، ثم تتوقفان على الشيء في النظرة الثانية .

كان يبدو أنه يخجل من يديه ، لأنه كان حريصاً عندما يتكلم على

twitter @baghdad_library

أنْ يخفي كلتا يديه وراء ظهره ، أو أنْ يخفي إحداهما في جيبه والأخرى وراء ظهره .

واذا ماقدّم مذكرة او وثيقة رسمية لرئيسه وأراد أنْ يستوضح بعض الأمور ، فانه كان يخفي احدى يديه وراء ظهره ، بينما كان يشير بحذر الى السطر والكلمة المقصودة بالإصبع الوسطى من يده الاخرى . والظفر الى الاسفل . ثم مايلبث أنْ يسحبها فوراً ويخفيها ، ربما لأنْ أصابعه غليظة حمراء ترتجف قليلاً ، مما بدا له من غير اللائق أنْ يظهرها غالباً .

— لقد أمرتم ، بان أحضر لعندكم ، — بدأ الرجل وهو يرمق أبلوموف بنظرة مزدوجة .

— أجل، فأنا أريد أن أتحدث اليك بشأن الشقة . أرجو أن تجلس ، أجاب أبلوموف باحترام .

بعد دعوتين متتاليتين ، قرر إيفان ماتفييتش أن يجلس . ثم انحنى قليلاً إلى الأمام مخفياً يديه تحت إبطيه .

— نظراً لبعض الظروف المستجدة ، فانه ينبغي عليّ أنْ أبحث عن شقة أخرى قال أبلوموف ، — لذا فقد وجدت من الضروري أنْ أبلغك ذلك .

— من الصعب أن أجد الآن مستأجراً آخر ، — قال إيفان ماتفييتش متنحنحاً ، وقد أخرج يديه ليحجب فمه . لكنه مالبث أن أخفاهما فوراً في أكمامه . — كان من السهل أن أعثر على مستأجرين كثر ، لو أنكم أخبرتموني في نهاية الصيف .

— (مقاطعاً) لقد أتيت ، لكنني لم أجدك .

— أبلغتني أختي بذلك ، — أضاف الموظف — . لاتقلق من ناحية الشقة : فستجد الهدوء والراحة هنا . ربما تكون الطيور قد أزعجتك ؟

— أي طيور ؟

— الدجاج .

ومع أنّ أبلوموف كان يسمع دائماً منذ الصباح الباكر ، قأقأة الدجاجات المفرّخة وصأصأة الصيصان ، لكنّ ذلك لم يكن يلفت انتباهه. فقد كان طيف أولغا ماثلاً أمامه باستمرار ، لذا فانه لم يكن يلحظ مايحيط به .

— كلا ، فهذا لايزعجني . اعتقدت بأنك كنت تتحدث عن عصافير الكناري ، التي تزقزق منذ الصباح .

— سننقلهم من هنا ، — أجاب إيفان ماتفييتش .

— إنها لاتزعجني أيضاً ، لكنني لاأستطيع البقاء هنا نظراً لبعض الظروف المستجدة .

— كما ترغبون ، — أجاب إيفان ماتفييتش ، لكن ماذا سيكون الحلّ اذا لم نعثر على مستأجر؟ . . . فستتكبدون عندئذ خسارة كبيرة .

— كم ستكون الخسارة ؟ — سأل أبلوموف .

— سأجلب الحساب .

جلب العقد والحسابات

twitter @baghdad_library

— ثمانمائة روبلاً أجرة الشقة ، دفعت منها مقدماً مائة روبل ، يبقى عليك أنْ تدفع سبعمائة روبلاً ، — قال إيفان ماتفييتش .

— هل تريد أنْ تأخذ مني أجراً عن السنة كلها ، وأنا لم أمض عندكم أسبوعين ؟ — قال أبلوموف مقاطعاً .

— كيف إذن ؟ — اعترض إيفان ماتفييتش — . فليس من العدل والإنصاف أنْ تتحمل أختي الخسارة فهي أرملة فقيرة ، تعيش على الدخل الذي تتلقاه من إيجار البيت ؛ فدخلها من البيض والدجاج لايسدّ إلا أجراً يسيراً من حاجات أسرتها .

— عفواً ، فأنا لاأستطيع ، — بدأ أبلوموف كلامه . — احكم بنفسك ، فأنا لم امض اسبوعين هنا . هل يعقل أنْ تحاسبني عن سنة ؟

— العقد يوضح كل شيء ، — قال إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه الوسطى الى سطرين . ثم أخفى إصبعه بسرعة في كمّه ، — تَفضّلْ بقراءة نصّ العقد :

(يقرأ أبلوموف) : « أنا الموقع أدناه أبلوموف ، أقر وأعترف بأنني مطالب في حالة إخلاء الشقة قبل انتهاء مدة الإيجار المقررة ، بأن أسلّمها لشخص آخر بالشروط نفسها ، وإلا فانني أتعهد بتسديد الإيجار عن سنة كاملة الى السيدة بشينتيسينا ، اعتباراً من أول حزيران » .

— كيف يجوز ذلك ؟ . هذا ليس عدلاً .

— هكذا القانون ، — لاحظ إيفان ماتفييتش . — لقد وقّعتم على

ذلك بنفسكم : هذا هو توقيعكم ! ظهرت إصبعه من جديد وهو يشير الى التوقيع ، ثم اختفت فوراً .

— كم يجب أن أدفع ؟

— سبعمائة روبل ، — بدأ إيفان ماتفييتش يحسب باصبعه الوسطى نفسها ، ثم مايلبث أنْ يخفيها في قبضة يده ، — ومائة وخمسين روبلاً اجرة الاسطبل والعنبر .

— (معترضاً بشدة) لكن لاتوجد لدي أحصنة : فلماذا تريدني أنْ أدفع أجرة الاسطبل والعنبر ؟

— هذا موجود في العقد ، — قال إيفان ماتفييتش وهو يشير باصبعه الى احد السطور . — لقد قال لنا ميخا أندرييتش بأنك ستربي خيولاً .

— ميخا أندرييتش كاذب ! — قال أبلوموف بأسى . — أعطني العقد .

— يمكنك أن تحصل على صورة عنه . أما العقد فيخصّ أختي ، — أجاب إيفان ماتفييتش بدماثة وهو يمسك العقد بيده — زيادة على ذلك ، فأنت مدين لنا أيضاً بمئتين وخمسين روبلاً مقابل ماتستفيده من الحاكورة والمواد الغذائية والخضراوات كالملفوف واللفت وغيره . . . ، — قرأ إيفان ماتفييتش .

— أي حاكورة ؟ أي ملفوف ؟ ماهذا الذي تقول ؟ كيف يمكن ذلك أنْ يكون ! —

twitter @baghdad_library

اعترض أبلوموف بأسلوب يكاد ينمّ عن تهديد .

ــ هذا موجود في العقد : فميخا أندرييتش أخبرنا ، بأنك تريد أنْ يتضمن العقد هذه الأمور . . .

ــ مالكم تتصرفون وتقررون بدوني ، فأنا لاأريد ملفوفاً ولالفتاً . قال أبلوموف وهو ينهض . . .

نهض إيفان ماتفييتش عن الكرسي أيضاً .

ــ عفواً ، كيف يمكن أن نتصرف بدونكم : ها هو ذا توقيعكم ! اعترض إيفان ماتفييتش. أخذت اصبعه الغليظة ترتجف من جديد ، وهو يضعها على التوقيع فاهتزت الورقة كلها .

ــ كم بلغ مجموع الحساب ؟ ــ سأل أبلوموف بفارغ الصبر .

ــ يوجد أيضاً مائة واربعة وخمسون روبلاً وثمانية وعشرون كوبيكا أجرة طلاء السقف والأبواب وتصليح نوافذ المطبخ .

ــ هل هذا على حسابي ؟ ــ سأل أبلوموف بدهشة . ــ هذا على حساب صاحب المُلْك دائماً . هل يقبل أحد أنْ يستأجر شقة غير صالحة للسكن ؟ . . .

ــ العقد يقول بأنّ هذا يتم على حسابك ، ــ قال إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه من بعيد الى السطر الذي يتضمن هذا النص ــ . أصبح المبلغ الإجمالي الآن ، ألفاً وثلاثمائة واربعة وخمسين روبلاً وثمانية وعشرين كوبيكاً ! ــ ختم إيفان ماتفييتش كلامه بوداعة ، مخفياً كلتا يديه والعقد أيضاً وراء ظهره .

ـ أين أحصل على مبلغ كهذا ؟ لاتوجد لديّ نقود ! ـ اعترض أبلوموف وهو يتمشى في الغرفة . ـ لاينقصني إلا ملفوفكم ولفتكم !

ـ كما تريدون ! ـ أضاف إيفان ماتفييتش بصوت خافت ـ لكنكم ستجدون الراحة هنا ، ـ قال إيفان ماتفييتش . ـ أما النقود . . . فأختي ستنتظر ريثما يتوفر لديك المبلغ .

ـ لاأستطيع البقاء هنا ، لاأستطيع ، ظروفي لاتسمح ! أسمعت ؟

ـ سمعت . كما تريدون ، ـ أجاب إيفان ماتفييتش بطاعة ، وقد تراجع خطوة الى الوراء .

ـ حسناً ، سأفكر بالأمر ، وسأحاول تسليم الشقة لمستأجر آخر ! ـ قال أبلوموف وهو يومىء الى الموظف برأسه .

ـ سيكون ذلك صعباً ، لكن كما تريدون ! ـ ختم إيفان ماتفييتش كلامه ، ثم خرج بعد أن انحنى ثلاث مرات .

أخرج أبلوموف محفظة نقوده ، وأحصى مالديه : فوجد أنّ كل مافي حوزته هو ثلاثمائة وخمسة روبلات . صُعق تماماً .

« أين بدّدت نقودي ؟ ـ سأل أبلوموف نفسه بدهشة وقد تملكه الرعب تقريباً . ففي بداية الصيف تلقيت من القرية ألفاً ومئتي روبل ، لم يبق منها الآن الا ثلاثمائة ! » .

بدأ يحسب ويتذكر نفقاته ومصاريفه كلها ، لكنه لم يستطع أنْ يتذكر إلامئتين وخمسين روبلاً فقط .

twitter @baghdad_library

ـــ أين ذهبت هذه النقود ؟ ـــ قال أبلوموف

ـــ زاخار ، زاخار !

ـــ ماذا تريد ياسيدي ؟

ـــ كيف بدّدنا نقودنا كلها ؟ لم يبق لدينا نقود !

بدأ زاخار يبحث في جيوبه فأخرج نصف روبل وقطعة معدنية من فئة العشرة كوبيكات ، ووضعهما على الطاولة .

ـــ نسيت أن أعطيهما لك ياسيدي فقد بقيتا معي من اجرة نقل الأغراض ـــ قال زاخار .

ـــ ليس هذا ماأبحث عنه ، قل لي أين ذهبت الثمانمائة روبلاً ؟

ـــ من أين لي أن أعرف ؟ هل أعرف كيف تنفق النقود ياسيدي ؟ هل أعرف المبالغ التي تدفعها لسائقي العربات ؟

ـــ أجل ، لقد أنفقت كثيراً أجور تنقل لسائقي العربات ، ـــ تذكر أبلوموف وهو ينظر الى زاخار . ـــ ربما كنت ماتزال تتذكر يا زاخار ، المبلغ الذي دفعناه لسائق العربة عندما انتقلنا من المنزل الصيفي .

ـــ كيف لي أنْ أتذكر ؟ ـــ أجاب زاخار ـــ أذكر أنك امرتني ذات مرّة ، بأن أعطيه ثلاثين روبلاً .

ـــ لماذا لاتعرف القراءة والكتابة يازاخار ؟ ـــ قال أبلوموف معاتباً ـــ ماأسوأ أن يكون المرء أمّياً !

ـــ عشت هذه السنين كلها وانا أمّي ، لكنني والحمد لله لم أعش أسوأ من الآخرين ! ـــ اعترض زاخار وهو ينظر جانباً .

« كان شتولتس محقاً عندما قال بأنه يجب تأسيس مدرسة في القرية » تفكر أبلوموف .

- لكن الشخص الذي عمل عند آل ايلنيسكايا ، كان متعلماً ، - تابع زاخار ، - ومع ذلك ، فانه كان يسرق الآنية الفضية من عندهم .

« أرجو المعذرة ! - تفكر أبلوموف بخوف . - فهؤلاء الذين يعرفون القراءة والكتابة هم في الحقيقة بلا أخلاق . . . كلا ، مازال الوقت مبكّراً لتأسيس المدارس ! . . »

- على أي شيء أنفقنا النقود أيضاً ؟

- من أين لي أن أعرف ؟ لكنني أذكر بأنك أعطيت ميخا أندرييتش بعض النقود عندما كنا في المنزل الصيفي . . .

- صحيح ، - سُرّ أبلوموف لانه تذكر ذلك . - إذن ، ثلاثين روبلاً لسائق العربة وخمسة وعشرين روبلاً ، كما أذكر ، لتارانتييف. أين أنفقنا نقودنا أيضاً ؟

نظر أبلوموف الى زاخار بتأمل وتساؤل بينما كان زاخار يرمقه خلسة بنظراته ، وهو متجهم .

- هل تذكر أنيسيا شيئاً ؟ - سأل أبلوموف .

- متى كانت الحمقاء تتذكر شيئاً ؟ وهل تعرف المرأة شيئاً ؟ - قال زاخار بازدراء .

- انني لا أذكر شيئاً ! - قال أبلوموف بأسى ، - ألا يمكن أن يكون اللصوص قد سرقونا ؟

twitter @baghdad_library

— لا ، لا يمكن ، لأنهم كانوا سيأخذون كل النقود ، — قال زاخار وهو ينصرف . غاص أبلوموف في كرسيه واستغرق في التفكير . « من أين أحصل على النقود ؟ — راح أبلوموف يفكر والعرق البارد يتصبب منه — متى سيتلقى نقوداً من القرية ، وكم سيكون مقدارها ؟ »

نظر الى الساعة فاذا بها الثانية . موعد ذهابه الى أولغا . إنه اليوم المحدد لتناول الغداء عندها . أخذت أسارير أبلوموف تنفرج شيئاً فشيئاً ، فأمر باحضار عربة وانطلق الى مورسكايا .

— ٤ —

قصّ لأولغا كل مادار بينه وبين إيفان ماتفييتش ، وأضاف من عنده وهو يسرع في الكلام ، بأن الأمل كبير جداً في تسليم الشقة هذا الأسبوع .

ذهبت أولغا وعمتها للقيام بزيارة قبل أن يحين موعد الغداء ، أما أبلوموف فذهب يستطلع شقة في الجوار. عرّج في طريقه على منزلين . عثر في أحدهما على شقة مكونة من أربع غرف ، بايجار قدره أربعة آلاف روبل ، بينما عثر في المنزل الآخر على شقة من خمس غرف بايجار قدره خمسة آلاف روبل .

— يالالفظاعة ! يالالفظاعة ! — قال أبلوموف ، وقد وضع يديه على أذنيه ، وهو يولي هارباً وسط دهشة البوابين. لم يستطع أبلوموف من شدة الخوف أنْ يحصي المبلغ الإجمالي الناتج عن إضافة أكثر من ألف

روبل كان عليه أنْ يدفعها الى بشينيتسينا ، الى أي من هذين المبلغين ، فأسرع الخطى قاصداً أولغا .

كان هنالك حشد من الزوار . كانت أولغا بكامل حيويتها ، تتحدث ، تغني وتثير ضجة . بيد أنّ أبلوموف هو الوحيد الذي كان يسمع وهو شارد الذهن . مع أنّ أولغا كانت تغني خصيصاً له ، كي لايجلس كئيباً مرتبكاً . ومن أجل أن تُدخل الفرح والسعادة الى قلبه .

تعال غداً الى المسرح ، فلدينا مقصورة ، — قالت أولغا .

« في الليل وفي مثل هذه الأوحال والمسافة البعيدة ! » — تفكر أبلوموف . لكنه ما إن نظر الى عينيها ، حتى ردّ على ابتسامتها بابتسامة تدلّ على الموافقة .

-- احجز مقعداً ، — أضافت أولغا ، — فسيزورنا آل ماييفسكي ، لقد دعتهم عمتي الى مقصورتنا .

ثم نظرت الى عينيه كي تعرف مقدار فرحه .

« ياإلهي ! — فكر أبلوموف برعب . — كل ماأملكه الآن من النقود ثلاثمائة روبلاً » .

-- اطلب من البارون مساعدتك في تأمين الحجز ، فهو يعرف الجميع هناك ، إنه يستطيع أنْ يحجز غداً .

ابتسمت من جديد ، كذلك فعل أبلوموف وهو ينظر اليها ، وبابتسامة أيضاً طلب أبلوموف من البارون تأمين مسألة الحجز ، فردّ عليه البارون ايضاً بابتسامة كعلامة على تلبية طلبه .

twitter @baghdad_library

— الآن تحجز مقعداً، وبعد ذلك سنملك الحق، بعد أنْ تكون قد أنجزت الأمور المتفق عليها فيما بيننا، بحجز مكان في مقصورتنا، — أضافت أولغا.

ابتسمت ابتسامة أخيرة من نوع تلك الابتسامات التي ترتسم على محياها عندما تكون سعيدة.

أحسّ أبلوموف فجأة، بنشوة عارمة من السعادة، عندما كشفت أولغا النقاب قليلاً عن أفق المستقبل الفاتن المفروش بالأزهار والبسمات.

حتى أنّ أبلوموف نسي حاجته الى النقود؛ وعندما لمح في صباح اليوم التالي فقط صرة أخ صاحبة الشقة، وهو يمر أمام نافذته، تذكر موضوع الوثيقة، فرجا إيفان ماتفييتش أنْ يصدقّها له. بدأ إيفان بقراءة الوثيقة، ثم أعلن عن وجود نقطة واحدة غير واضحة فيها؛ فاستوضح عنها.

أُعيدت كتابة الوثيقة من جديد، ثم تمّت المصادقة عليها أخيراً، وارسلت الى البريد. وبسرور كبير زفّ أبلوموف الخبر لأولغا، وظل مرتاحاً هادئاً مدة طويلة

كان سرور أبلوموف كبيراً، لأنّ البحث عن شقة جديدة لن يكون ضرورياً قبل أن يستلم رداً من القرية.

« يمكن العيش هنا أيضاً، — فكر أبلوموف، — هنا بعيد عن كل المشاغل والهموم، والنظام دقيق صارم في البيت، والخدمة تسير بشكل رائع ».

في الواقع ، كانت الخدمة تسير بشكل رائع . ومع أن أبلوموف كان له طعامه المستقل الخاص به ، إلا أنّ عناية صاحبة الشقة واهتمامها كانا يطالان مطبخه أيضاً .

ذات مرة ، دخل إيليا إيليتش المطبخ فوجد أغافيا ماتفييفنا وانيسيا وهما في جلسة ودّية جداً .

اذا كانت العاطفة موجودة فعلاً في إطار العلاقات الانسانية ، واذا كانت القلوب تتآلف حقاً . فإن الود والتعاطف لن يتجلّيا يوماً في صورة أكثر بهاء ورونقاً . مما تجلّى في علاقة أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا . فقد فهمت وقدّرت كل منهما الأخرى ، منذ أول نظرة وكلمة وحركة .

فأغافيا ماتفييفنا أدركت جيداً . وقدّرت عالياً مواهب أنيسيا في تدبير الأمور المنزلية ، منذ أن شمّرت الأخيرة عن ساعديها ، ومسكت الممسحة بيديها ، فرتبت المطبخ أحسن ترتيب وأزالت الغبار عن الطاولة والجدران بضربات سريعة من مكنستها ، ونظّفت المدفأة بخفّة لاتبارى ، فغدا كل شيء نظيفاً مرتباً على أحسن وجه . منذ ذلك الوقت أصبحت أنيسيا تحتل منزلة رفيعة في قلب أغافيا ماتفييفنا .

وعندما شاهدت أنيسيا بدورها ذات مرة كيف تتصرف أغافيا ماتفييفنا في مطبخها بحيوية ونشاط وترى بعينيها الحادتين ، كعيني الصقر كل حركة خرقاء تصدر عن أكولينا ، فتصدر الأوامر وتقرر بنجاح

twitter @baghdad_library

مايجب عمله من خلال نظرة عابرة تلقيها على هذا الشيء أو ذاك ، ومن خلال لمسة اصبع تعرف عمر الدجاجة ، وتحدد إن كان السمك طازجاً أم لا ، وتنجز بخفّةٍ وهمة عملاً هنا ، وآخر هناك ، -- نظرت اليها باعجاب ودهشة وتقدير ، وأدركت أنيسيا بأنّ مكانها ومجال عملها ، ليس في مطبخ أبلوموف ، حيث نشاطها وخفقان قلبها المضطرم وحركاتها السريعة المفاجئة كلها مركزة فقط ، لتتلقف في الجو صحناً أسقطه زاخار هنا ، وكأساً هناك ، وحيث خبرتها ودقة تصوراتها مكبوحة من قبل زوجها بحسده وغطرسته الفظة . فهمت المرأتان بعضهما ، فأصبحت كل منهما تلازم الأخرى باستمرار .

عندما كان أبلوموف يتناول الغداء خارج المنزل ، كانت أنيسيا تتواجد في مطبخ صاحبة البيت ، فتنتقل من ركن الى آخر مدفوعة بحبها للعمل ، فتضع أصيصاً هنا ، وآخر هناك ، وفي لحظة واحدة تقريباً تفتح الخزانة وتخرج منها مايلزمها في عملها ثم تغلقها ، قبل أن تدرك أكولينا حقيقة مايجري .

بالمقابل كانت مكافأة أنيسيا مجزية : غداء وستة فناجين من القهوة ونفس الكمية مساء ، وحديث مفتوح لاينتهي ، ووشوشة أحياناً مع صاحبة البيت نفسها .

وعندما كان أبلوموف يتغدى في البيت ، كانت صاحبة الشقة تساعد أنيسيا ، أي أنها كانت تدلها وتقدم لها النصيحة بكلمة منها ، أو باشارة من إصبعها ، فتحدد إن كان الشواء قد نضج أم لا ، أو إن كان

من الضروري إضافة قليل من النبيذ الأحمر أو القشدة الى الصلصة ، وان كان السمك يُحضَّر بهذه الطريقة أم لا . . .

يا إلهي . كم كانتا تتبادلان المعلومات في الشؤون المنزلية ، ليس في فن الطهي فحسب . بل وفي الخياطة والغسيل وتنظيف الثياب والمطرزات وإزالة البقع عن الملبوسات والبياضات ، واستخدام مختلف الأعشاب والأدوية . وفي كل مايتعلق بشؤون الحياة المنزلية ، وما أدخله العقل المبدع والخبرة التاريخية عبر القرون من مبتكرات في هذا المجال .

كان إيليا ايليتش ينهض صباحاً في التاسعة ، فيلمح أحياناً من خلال السياج أخ صاحبة الشقة متأبطاً صرته ، وهو في طريقه الى العمل ، ثم يبدأ بعد ذلك بتناول القهوة . وكما عرفنا من قبل ، فالقهوة هنا تُحضَّر بشكل رائع . والقشطة لذيذة ، والخبز شهي ناضج .

بعد ذلك يدخن سيجارة ويصغي بانتباه الى قرق الدجاجة المفرخة والى صأصأة فراخها ، والى تغريد وزقزقة الكناري . فلم يأمر بنقلهم : « لأنه كان يتذكر قريته أبلوموفكا من خلالهم » ، كما كان يقول .

ثم يجلس بعد ذلك ليكمل قراءة الكتب ، التي كان قد بدأها ، عندما كان يسكن في المنزل الصيفي ، ويستلقي أحياناً على الاريكة وهو يقرأ .

الهدوء مثالي والسكون كما يبتغي ، يعكره أحياناً وقع أقدام جندي ما

twitter @baghdad_library

يمر في الشارع المجاور ، أو جلبة بعض الفلاحين ، الذين وضعت فؤوسهم تحت أحزمتهم . في بعض الأحيان ، لكن هذا قلما يحدث ، كان يصل الى هذه المجاهل بائع جوال ، فيقف عند السياج نصف ساعة من الزمن وهو ينادي :

« تفاح ، بطيخ استراخاني » — فيجبر المرء على الشراء .

أحياناً تأتي اليه الطفلة ماشا ، وقد أرسلتها أمها أغافيا ماتفييفنا لتخبره بأنّ انواعاً من الفطر تباع في الخارج ، فتستعلم منه إنْ كان يريد شراء شيء منها .

وفي أحيان أخرى ، يستدعي أبلوموف الطفل فانيا ، ابن صاحبة البيت لعنده ، ويسأله عما حفظ من دروسه ، ويجلسه ليكتب أو يقرأ شيئاً ما ، ثم يدقّق له ما كتبه وقرأه .

واذا لم يغلق الطفلان الباب وراءهما ، فانه كان يرى منه العنق العاري لصاحبة البيت وظهرها ومرفقيها المتحركين دائماً .

انها لاتفتأ عن العمل ، فاما أنها تكوي أو تغسل أو تحضّر الطعام . واذا ما لاحظت انه ينظر اليها من خلال الباب نصف المفتوح ، فانها تتابع عملها دونما تكلف ، ولاترمي الشال على كتفيها وعنقها ، بل تكتفي بالضحك فقط ، وتتابع من جديد الكوي والغسيل الموضوع على الطاولة الكبيرة .

أحياناً ، يقترب أبلوموف من الباب والكتاب في يده ، فيلقي نظرة عليها ثم يدخل في حديث معها .

– إنك تعملين دائماً ! – قال لها ذات مرة .

ضحكت واستمرت تُدّوِر من جديد ، وباهتمام ملحوظ ، ذراع طاحونة القهوة ، وهي ترسم بمرفقها المتحرك بسرعة ، دوائر زاغت منها عينا أبلوموف .

– ألاتتعبين ؟

– كلا ، لقد اعتدت على ذلك ، – أجابت أغافيا وهي تحرّك الطاحونة .

– ماذا تفعلين عندما لايوجد عمل ؟

– هل يمكن للعمل أنْ ينتهي ؟ العمل موجود دائماً ، – قالت أغافيا ، – في الصباح أحضّر الغداء ، وبعد الغداء تأتي الحياطة ، ثم أحضّر العشاء .

– هل تتعشين ؟

– وهل يمكن أن نظل بدون عشاء ؟ نتعشى بالطبع . في العيد نذهب لنؤدي صلاة الليل .

– هذا جيد ، – قال أبلوموف . – الى أي كنيسة تذهبين ؟

– الى كنيسة الميلاد .

– هل تقرئين شيئاً ما ؟

– نظرت اليه ببلاهة ثم صمتت

– هل تملكين كتباً ؟

twitter @baghdad_library

ـ أخي يملك بعضاً منها ، لكنه لايقرأها . نجلب بعض الصحف من الحانة ، فيقرأ أخي أحياناً بعض المقاطع فيها بصوت مسموع . . . يوجد لدى فانيتشكا كثير من الكتب .

ـ أصحيح أنك لاتستريحين مطلقاً ؟

ـ والله صحيح !

ـ ألا تذهبين الى المسرح ؟

ـ أخي يتواجد هناك في فترة عيد الميلاد .

ـ وأنت ؟

ـ متى يمكنني ذلك ؟ والعشاء من سيحضّره ؟ ـ سألت أغافيا ماتفييفنا ، وهي ترميه بنظرة جانبية .

ـ تستطيع الطباخة أن تحضّره بدونك . . .

ـ أكولينا ! ـ اعترضت بدهشة . ـ كيف يمكن ذلك ؟ وماذا تستطيع أن تفعل بدوني ؟

حتى عشاء يوم غد ، لن تلحق أنْ تُحَضّره .

ـ سادت لحظة صمت . أخذ أبلوموف يتنعم برؤية مرفقيها المكتنزين ، المسبوكين .

ـ كم هي جميلة يداك . ـ قال أبلوموف فجأة . ـ أستطيع أنْ أصفها الآن ، إنْ شئت .

ضحكت وقد بدا عليها الخجل بعض الشيء

ـ الأكمام تعيقني عن العمل . ـ قالت موضحة . ـ فأكمام

الفساتين الدارجة هذه الايام ، تعيق عن العمل ، فما إن تتحرك الأيدي حتى تتسخ .

ثم صمتت ، كما صمت أبلوموف ايضاً .

- ينبغي أن أكمل طحن القهوة . . . أسرّت أغافيا لنفسها ، - كما يجب أن أشتري قرفة .

يجب أن تتزوجي ، . قال أبلوموف ، - إنك ربة بيت رائعة .

ضحكت ثم بدأت تضع القهوة في وعاء زجاجي

. حقاً أقول . . . أضاف أبلوموف .

من يقبل أنْ يأخذني مع أولادي ؟ - أجابت أغافيا ، ثم بدأت تحسب شئياً ما في ذهنها .

- عشرتان . . . - قالت متفكرة ، - هل من المعقول أن نضعهم جميعاً ؟ -

ثم وضعت قطرميز القهوة في الخزانة ، وأسرعت الى المطبخ . أما أبلوموف فقد رجع الى حجرته وأخذ يقرأ كتاباً . . .

- يالها من امرأة نضرة ، صحيحة الجسم ، ويالها من ربة بيت رائعة ! حقاً ، يجب أنْ تتزوج . . . - أسرّ لنفسه ، وراح يفكر . . . بأولغا .

في الايام الصاحية ، كان أبلوموف يضع سدارته على رأسه ويتجول في الأماكن القريبة المجاورة ، فيزعجه الوحل هناك ، وتقلقه الكلاب هنا بمجرد أنْ تراه ، فيعود الى البيت .

twitter @baghdad_library

وفي البيت ، المائدة جاهزة والطعام شهي ونظيف . وأحياناً من خلال الباب نصف المفتوح ، كانت صاحبة البيت تمد يدها العارية وتناوله صحناً ، ثم ترجوه أنْ يتذوق الفطائر التي أعدّتها .

ـــ الحياة هادئة جميلة في هذه الناحية ، لكنها موحشة فقط ! ـــ كان أبلوموف يقول وهو يتوجه الى الاوبرا . ذات مرة ، أثناء عودته من المسرح في وقت متأخر ليلاً ، ظل أبلوموف يقرع باب البوابة زهاء ساعة ونيف ، يساعده الحوذي أيضاً ، حتى أن الكلب فقد صوته من شدة النباح ، وهو يحاول قطع السلسلة المربوطة على عنقه كي يفلت منها. غضب أبلوموف وأعلن أنه سيترك البيت نهائياً في اليوم التالي . لكن يوماً قد انقضى ويومين وأسبوعاً ، وأبلوموف لم يترك البيت .

كان أبلوموف يشعر بالوحشة الشديدة عندما لايرى أولغا في الأيام غير المحددة لزيارتها ، لأنه لم يكن يسمع صوتها أو يقرأ في عينيها ذلك الحب الواضح الثابت والسعادة العارمة .

بالمقابل ، كانت السعادة تغمره أثناء زيارته لها ، فيستمتع منتشياً ويتنعم برؤية عينيها الجميلتين ؛ وفي حضور الآخرين كانت تكفيه نظرتها ، غير المبالية بالآخرين ، لكنْ المعبّرة جداً بالنسبة له .

مع حلول الشتاء كانت لقاءاتهم على انفراد تصبح نادرة جداً . سبب ذلك ؛ هو أن زواراً أصبحوا يترددون الى بيت إيلينسكايا باستمرار ، فكانت تمضي أيام بكاملها دون أن يتمكّن أبلوموف من

التحدث الى أولغا مطلقاً . كانا يتبادلان النظرات . كانت نظراتها تعبّر أحياناً عن التعب ونفاذ الصبر .

كانت تنظر بحاجبين مقطبين الى جميع الضيوف . حتى أن أبلوموف قد أحس بالضجر لعدم تمكنه من الانفراد بها ، وعزم مرتين على الانصراف بعد الغداء مباشرة .

- الى اين ؟ - سألت أولغا بدهشة ، وقد وجدت نفسها بالقرب منه ، وهي تمسك قبعته

- الى البيت . . .

لماذا ؟ - سألت أولغا . كان أحد حاجبيها قد ارتفع قليلاً عن مستوى الآخر . -

ماذا ستفعل ؟

- لاشيء . . . - قال أبلوموف . وهو يفتح عينيه بصعوبة من شدة النعاس .

- من سيسمح لك ؟ ألست تريد النوم ؟ - سألت أولغا بصرامة ، وهي تنظر اليه بالتناوب ، بعينها اليسرى ، ثم اليمنى .

- هذا مستحيل ! - اعترض أبلوموف بحيوية . - أنام في النهار ! كل مافي الأمر ، أنني أشعر بالملل .

ثم أعطاها القبعة

- اليوم الى المسرح ، - قالت أولغا .

twitter @baghdad_library

– لكننا لن نكون في مقصورة واحدة ، – أضاف أبلوموف متنهداً .

– وماذا يضير ذلك ؟ فكل منا يشاهد الآخر ، كما يمكنك أن تأتي الينا أثناء الاستراحة ، وعند الانصراف ترافقني حتى العربة . . . استعد للذهاب ! – أضافت أولغا بلهجة آمرة امتثل أبلوموف لطلبها ، وذهب الى المسرح ، ثم أخذ يتثاءب كما لو أنه كان يريد أن يبتلع المسرح ، وأخذ يحكّ قفا رأسه . وهو يضع ساقاً فوق الأخرى .

« آه ، كم أتمنى أنْ ينتهي المشهد سريعاً ، لأجلس بالقرب منها ، وأتخلص من عذاب هذا البعد عنها ! – فكّر أبلوموف . – كم يصعب عليّ أن تصبح لقاءاتنا بعد هذا الصيف الممتع ، الذي قضيناه سوية ، عابرة ، خاطفة ، ألعب فيها دور الفتى المغرم . . . لو كنت متزوجاً ، لما وافقت على الذهاب الى المسرح اليوم : فها أنا ذا أشاهد هذه الأوبرا للمرة السادسة . . . ») .

أثناء الإستراحة ، توجه أبلوموف الى أولغا وأخذ يشق طريقه بصعوبة إليها ، وهو يمر أمام شابين كانا يجلسان في مقصورتها . رجع أبلوموف بعد خمس دقائق . فوجد نفسه وسط حشد من الناس ، يتزاحمون للعودة الى اماكنهم . ابتدأ الفصل الثاني ، فبدأ الجميع يسرعون الى مقاعدهم . كان الشابان ، اللذان يجلسان في مقصورة أولغا موجودين أيضاً وسط هذا الحشد ، لكنهما لم يشاهدا أبلوموف .

– من هذا السيد ، الذي كان في مقصورة آل إيلينسكايا ؟ – سأل أحدهما الآخر .

إنه شخص يدعى أبلوموف ، – أجاب الآخر باستخفاف .

من يكون أبلوموف هذا ؟

– إنه . . . إقطاعي . صديق شتولتس .

آ ! . قال الآخر بصورة معبّرة . – صديق شتولتس . وماذا يفعل هنا ؟

– الله أعلم ! – أجاب الآخر ، ثم ذهبا الى مكانيهما . انذهل أبلوموف من هذا الحوار المهين بالنسبة له .

« من هذا السيد ... شخص يُدْعى أبلوموف . . . ماذا يفعل هنا . الله أعلم » : – أخذت هذه الكلمات تدوّي في رأس أبلوموف . – « شخص ما ! ماذا أفعل هنا ؟ كيف ؟ انني أحب أولغا ، لكن سؤالاً قد برز الى الوجود : ماذا أفعل هنا ؟ لقد لاحظوا وجودي . . آه ، آه ، يا إلهي ! يجب أن أفعل شيئاً ما . . . »

لم يعد يرى مايجري على خشبة المسرح ، لم يعد يشاهد الفرسان ولا النساء ، ولم يعد يسمع الموسيقى الأوركسترالية ، التي كانت تدوّي . كان ينظر الى كل الجهات ، وهو يحصي كم من في معارفه الموجودين في المسرح : إنهم يجلسون هنا . هناك ، في كل مكان ، وهم يتساءلون « من هذا السيد ، الذي دخل الى مقصورة أولغا ؟ . . . » – « شخص ما يدعى أبلوموف ! » – كان الجميع يجيبون .

twitter @baghdad_library

« أجل ، فأنا « شخص ما ، نكرة » ! — فكر أبلوموف بمرارة . — الناس يعرفونني ، لأنني صديق شتولتس . — ماذا أفعل عند أولغا ؟ — « الله أعلم ! . . . »

ياإلهي ! هؤلاء الشبان ينظرون إليّ ، ثم يركّزون بعد ذلك أبصارهم على مقصورة أولغا ! »

نظر أبلوموف الى المقصورة ـ فوجد منظار أولغا موجها اليه .

« ياإلهي ! — إنها لاترفع بصرها عني ! ماذا وجدَت بي ، حتى تعيرني اهتماماً كهذا ؟ تنظر إليّ كما لو أنني كنز ثمين ! إنها تشير إليّ برأسها الآن كي أنظر الى خشبة المسرح . . . الشابان الجالسان في مقصورتها ينظران إليّ ويضحكان . . . ياإلهي ، ياإلهي ! »

اضطرب أبلوموف من جديد ، وأخذ يحك قذاله ، ثم بدّل وضع ساقيه فوق بعضهما .

« يجب أن أحلّ الأمر بسرعة ، وإلا . . . لماذا لم يرسل لي وكيلي جواباً من القرية ؟ فعدم وصول الجواب هو الذي منعني من السفر الى القرية ، ومن إعلان خطوبتي من أولغا . . . آه . إنها لاتزال تنظر إليّ ! يالها من مصيبة ! » .

عاد أبلوموف الى البيت ، قبل أن ينتظر نهاية الأوبرا . لكن هذا الإنطباع اخذ يمحى من ذاكرته تدريجياً . فقد بدأ ينظر من جديد الى أولغا بسعادة لاتوصف . ويستمع الى غنائها باعجاب كبير وهو يحبس دموعه . وعندما يصل الى البيت ، كان أبلوموف ، على غير معرفة من

أولغا يستلقي على الأريكة لا لرغبة في النوم ، بل من أجل أنْ يفكّر بها ويستغرق مسروراً في تأملاته . وهو يستحضر في ذهنه صورة حياته المنزلية المستقبلية المليئة بالسعادة والهدوء ، وأولغا الى جانبه تشع ضياءً وسروراً ، فتبعث البهجة والطمأنينة من حوله . كان أبلوموف ، وهو يتأمل صورة المستقبل ، ينظر أحياناً بلا وعي ، من خلال الباب نصف المفتوح ، الى مرفقي صاحبة الشقة المتحركين .

ذات مرة . كان الهدوء الذي يسود الطبيعة والبيت نموذجياً مثالياً ، لا أثر لقرقعة العربات ولا لصفق الابواب؛ وفي غرفة الإنتظار كان رقاص الساعة الجدارية يدقّ بانتظام ، وتغريد الكناري يداعب الأذن ، لكن ذلك كله لم يكن يعكر هذا الهدوء ، بل كان يضفي عليه فقط مسحة من الحياة .

كان إيليا إيليتش مستلقيا على الأريكة من غير اكتراث ، وهو يلعب بخفه فيسقطه على الأرض ، ويرفعه في الجو فيدّوره ثم يسقط من جديد ، فيلتقطه بساقه . . . في هذه الأثناء دخل زاخار ووقف في الباب .

— ماذا تريد ! — سأل زاخار بتهاون

كان زاخار ينظر إليه جهاراً تقريباً ، لا خلسة وهو صامت .

— مابك ؟ — سأل أبلوموف وهو ينظر إليه بدهشة . — هل الفطيرة جاهزة ؟

— هل عثرت على شقة ؟ — سأل زاخار بدوره .

— لم أعثر على شقة بعد . ماسبب سؤالك هذا ؟

twitter @baghdad_library

– لم أرتّب جميع حاجياتنا بعد : فالآنية والملابس والصناديق لاتزال مكومة كلها فوق بعض . هل أرتّبها ؟

– انتظر . – قال أبلوموف بسرور . – فأنا أنتظر جواباً من القرية .

– موعد العرس سيتأجّل إذن الى مابعد عيد الميلاد ، أليس كذلك ؟

– أي عرس ؟ – سأل أبلوموف وقد نهض فجأة .

– واضح أي عرس أقصد : عرسك ! – أجاب زاخار بصورة قطعية . كما لو أنه يتحدث عن مسألة مقررة منذ زمن بعيد . – فأنت ستتزوج . أليس كذلك ؟

– أتزوج ! من ؟ – سأل أبلوموف بذعر وهو يرمق زاخار بعينين مشدوهتين .

– الآنسة إيلينسكايا . . . وقبل أن يكمل زاخار حديثه ، كان أبلوموف قد أصبح بالقرب منه .

– من ذا الذي أوحى لك بهذه الفكرة أيها التعس ؟ – صرخ أبلوموف بصوت حماسي متحفظ ، زاجراً زاخار بعنف .

– وما مبرر أنْ تنعتني بهذا الوصف ياسيدي ؟ الحمد لله ! – قال زاخار وهو يتراجع تجاه الباب . . . من أوحى لي ؟ أناس من طرف آل إيلينسكايا قالوا لي هذا منذ الصيف الفائت .

– هس ! . . . – بدأ أبلوموف يزجر زاخار متوعداً ، وهو يرفع إصبعه الى الأعلى .

-- وهل أختلق من عندي ؟ -- قال زاخار .

-- ولا كلمة ! -- كرر أبلوموف وهو ينظر الى زاخار متوعداً ثم أشار اليه بأن ينصرف . انصرف زاخار ثم أطلق زفرة عمّت أرجاء الحجرات كلها

لم يستطع أبلوموف أن يصحو من هول ماسمع ، فظل واقفاً في الوضعية ذاتها وهو ينظر مذعوراً إلى المكان الذي كان يقف فيه زاخار . ثم وضع يديه على رأسه وتهاوى على الكرسي بيأس .

« الناس يعرفون ! -- أخذت هذه الكلمات تدور في رأسه . -- الشائعات وصلت الى الخدم والمطابخ ! الى هذا الحد وصلت الأمور اذن ! لقد تجرأ وسأل عن موعد العرس . كل هذا يحدث وعمتها لاتشتبه بشيء بعد ، واذا ما اشتبهت ولابد ، فانها ربما تضمر شيئاً ما عدائياً . . . آه آه ، آه ، آه ، ماذا ستقول ؟ وأنا ؟ وأولغا ؟ » .

-- ماذا فعلت ! كم أنا تعس ! -- قال أبلوموف وهو يتهاوى على الأريكة ، دافناً وجهه في الوسادة . -- العرس ! هذه اللحظة الشاعرية في حياة العاشقين ، هذه السعادة القصوى -- تصبح مدار حديث الخدم ، وسائقي العربات ، في الوقت الذي لم يتقرر فيه شيء بعد ، في الوقت الذي لم أتلق فيه أي رد من وكيلي في القرية ، ولم أعثر فيه على شقة بعد ، في الوقت الذي لاتزال فيه محفظة نقودي خاوية . . .

راح يتأمل ويحلل اللحظة الشاعرية ، التي فقدت بريقها فجأة . بمجرد أن تحدث زاخار عنها. أصبح أبلوموف يرى الجانب الآخر

twitter @baghdad_library

للميدالية . فبدأ يتقلب بعذاب من جنب الى جنب . ثم ينقلب على ظهره وينهض فجأة فيخطو خطوات ثلاث في الغرفة ثم يستلقي من جديد .

« ماذا فعلت ! — تفكر زاخار برعب وهو قابع في غرفة المدخل — لقد غرّني الشيطان ! » .

— كيف عرفوا ؟ — قال أبلوموف مستغرباً — فأولغا صامتة لم تقل شيئاً . وأنا لا أتجرأ حتى على التفكير بذلك بصوت مسموع . في الوقت الذي يجري الحديث فيه عن الزواج في غرفة المدخل ! تلك هي نتيجة اللقاءات على انفراد . تلك هي خاتمة النظرات الشغوفة المضطرمة والغناء الساحر ! آه ، هل يعقل ألا تنتهي قصائد الحب الرائعة تلك على خير أبداً ! يجب أن يتكلل حبي بالزواج ، كي أسبح بعدها في بحر السعادة الوردي ! يا إلهي ! يا إلهي ! أأركض الى اولغا ، وأمسكها من يدها ، ثم أصحبها الى عمتها وأقول : « هذه هي عروسي ! » .. لكنني لم أنجز شيئاً بعد . فلا الرد على رسالتي قد أتى ، ولا النقود موجودة ، ولا الشقة جاهزة ! كلا يجب أولاً أن أخرج هذه الفكرة من ذهن زاخار ، وأطفىء الشائعات . كما تطفأ النيران . فأحول دون انتشار ألسنة النار والدخان . العرس ! ماذا يعني العرس ؟ . . . » .

ابتسم أبلوموف وهو يتذكر صورة العرس الشاعرية المثالية المرتسمة في ذهنه . تذكر الفستان الطويل الأبيض الرائع ، وغصن النارنج ، وهمس الجمهور . . .

لكن الألوان تغيرت : فالحشد هنا أصبح مكوّناً من زاخار الفظ

الوسخ . ومن مجموع خدم إيلينسكايا . وبعض العربات ومن وجوه غريبة فضولية . فبدا له المشهد كئيباً مرعباً .

« يجب أن أزيل هذه الفكرة من ذهن زاخار نهائياً . وأقنعه بأنها مجرد سخافة لا أكثر » . . . قرر أبلوموف وهو يرتجف مضطرباً ، ويتعذب بأسى .

استدعى زاخار بعد ساعة

تظاهر زاخار بأنه لم يسمع نداء أبلوموف . ثم انسلّ الى المطبخ دون أن يحدث ضجة . فتح زاخار أحد مصراعي باب المطبخ دون أن يصدر صريراً . وهمّ بالدخول فارتطم جنبه به . بينما ارتطم كتفه بالمصراع الآخر . فانفتح المصراعان وأحدثا ضجة قوية .

— زاخار ! — صرخ أبلوموف بصورة آمرة .

— ماذا تريد ؟ أجاب زاخار من غرفة المدخل .

— تعال الى هنا ! — قال إيليا إيليتش

— أأجلب لك شيئاً ياسيدي ؟ — أجاب زاخار .

— تعال الى هنا ! — قال أبلوموف باصرار وهو يتوقف بين الكلمات .

— آه ، ماأطيب الموت ! — قال زاخار بصوت أجش وهو يدخل الحجرة .

— ماذا تريد ياسيدي ! — سأل زاخار وهو يدخل في الباب .

— اقترب ! — قال أبلوموف بصوت خافت مهيب . وهو يدلّ

twitter @baghdad_library

زاخار على المكان الذي يجب أن يقف فيه . كان المكان قريباً لدرجة أنّ زاخار كان مضطراً لأن يجلس على ركبتي سيده .

— كيف يمكنني أنْ أقترب الى النقطة التي حددتها ياسيدي ؟ فالمكان ضيق هناك ، فأنا أستطيع أنْ أسمعك من هنا . — قال زاخار وقد توقف عند الباب باصرار .

(بلهجة آمرة) قلت لك ، اقترب !

اقترب زاخار خطوة واحدة ، ثم توقف كالتمثال ، وهو ينظر عبر النافذة الى الدجاجات المتحركة في الحديقة ، معرّضاً فوديه كمكنسة ، تجاه سيده . تغيّر إيليا إيليتش من شدة الإضطراب ، فبدا وجهه مدبباً وأصبحت عيناه تتحركان بقلق وانزعاج .

« ستنشب المعركة الآن ! » — فكّر زاخار ، وقد أصبح وجهه متجهما أكثر فأكثر ،

— كيف تجرّأت على توجيه مثل هذا السؤال السخيف الى سيدك ؟ سأل أبلوموف .

« ها هو ذا قد بدأ ! » — تفكر زاخار ، وقد أخذت عيناه ترفّان بشدّة ، وهو ينتظر بأسى « الكلمات المؤسفة » .

— أسألك ، كيف استطعت أن تُدخل في ذهنك فكرة سخيفة كهذه ؟ — كرر أبلوموف .

نظر زاخار صامتاً .

ـ أتسمعني يازاخار ؟ ـ لماذا تسمح لنفسك بعدم الإكتفاء فقط بفكرة كهذه ، بل بالتفوه بها أيضاً ؟ .

ـ عذراً ياإيليا إيلييتش ، من الأفضل أن أنادي أنيسيا . . . أجاب زاخار ، ثم مضى . باتجاه الباب .

ـ أريد أن أتحدث إليك أنت ، ـ قال أبلوموف معترضاً . لماذا ابتكرت فكرة سخيفة كهذه ؟

ـ لم أبتكر شيئاً ، ـ قال زاخار . ـ أناس من طرف آل إيليينسكايا قالوا ذلك .

ـ ومن قال لهم ؟

ـ كيف لي أن أعرف ! كاتيا أخبرت سيميون ، وسيميون أخبر نيكيتا ، ونيكيتا أخبر فاسيليسا ، وفاسيليسا أخبرت أنيسيا ، وأنيسيا أخبرتني . . . قال زاخار .

ـ (مذعوراً) ياإلهي ، ياإلهي ! كل هؤلاء يعرفون ! هذا كله هراء ، سخافة ، كذب ، افتراء ـ هل تسمعني ؟ ـ قال أبلوموف وهو يضرب الطاولة بقبضة يده . ـ هذا مستحيل ، غير ممكن !

ـ لماذا مستحيل ؟ قاطع زاخار بعدم مبالاة . ـ المسألة عادية ـ عرس ! فلست أنت الوحيد ، الذي يتزوج ، الجميع يتزوجون .

ـ الجميع ! ـ قال أبلوموف . ـ إنك بارع في وضعي على مستوى واحد من حيث الاهمية ، مع الآخرين ، لابل مع الجميع !

twitter @baghdad_library

مستحيل ، غير ممكن ! هل أصبح العرس مسألة عادية ؟ ماذا يعني العرس ؟

نظر زاخار الى أبلوموف ، فرأى عينيه المضطرمتين غيظاً تحملقان فيه ، فحوّل بصره فوراً الى ركن في الجهة اليمنى .

ـ اسمع يازاخار ، سأشرح لك ماذا يعني « العرس ، العرس » ـ سيبدأ الناس الفضوليون بالكلام ، وستردد النساء هذه الكلمة وكذلك الأطفال والخدم ، وستنتقل الى المخازن والأسواق . فلن يُعرف الانسان بعد ذلك باسم إيليا إيليتش ، او بيتر بيترو فيتش بل سيسمى «عريساً ». العريس هو الانسان الذي يصبح في الغد عرضة لنظرات الآخرين ، كما لو أنهم ينظرون إلى مخادع محتال ، بعد أن كانوا يرفضون أن ينظروا اليه البارحة. العريس هو الإنسان ، الذي يسدّون عليه الطريق في المسرح والشارع

« انظروا هذا هو العريس ! » ـ سيهمس الجميع ـ . كم من الناس سيقتربون منه يومياً . ويحملقون فيه بحماقة وغباء ، كما تفعل أنت الآن تماماً ! (حوّل زاخار نظره بسرعة الى الحديقة).ويقولون بعد ذلك كلاماً سخيفاً ، ـ تابع أبلوموف ـ . تلك هي البداية ! العريس هو من يذهب الى خطيبته يومياً منذ الصباح ، كالمحكوم عليه باللعنة في قفاز بلون القش ، وفي بدلة قشيبة . دون ان يبدو عليه الضجر . العريس هو الإنسان الذي لايأكل ولا يشرب كما ينبغي ، بل يعيش على الهواء وتقديم باقات الورد ! أرأيت ؟ كيف يمكنني أن أتحمل ذلك كله؟

توقف أبلوموف ونظر ليرى ان كان تصويره لمتاعب الزواج قد أثر على زاخار

— أيمكنني الإنصراف الآن ؟ — سأل زاخار وهو يلتفت الى الباب.

كلا . انتظر ! إنك بارع في إطلاق الشائعات المزيفة . لذا فمن واجبك أن تتعلم لماذا هي مزيفة .

— ماحاجتي لأن أعرف ذلك ؟ — قال زاخار وهو يتفحص بعينيه جدران الغرفة .

— ربما تكون قد نسيت مايتطلبه الزواج من مشاغل وركض وهموم من العريس والعروس . فهل يوجد عندي من أعتمد عليه للذهاب الى الخياط وصانع الاحذية والأثاث ؟ فأنت لست من يعتمد عليه في تأدية هذه المهام . أنا الوحيد الذي سيتقطع ويتمزق بالذهاب الى هنا وهناك في سبيل ذلك . فالمدينة كلها ستعرف ، بأن « أبلوموف سيتزوج » . هل تسمعني ؟ — سيقول الناس : « هل هذا معقول ؟ من سيتزوج ؟ من تكون العروس ؟ » — قال أبلوموف بنبرات صوت مختلفة . — سيكون الحديث عن زواجي شغل الناس الشاغل ! كم سأتعذب . فالتفكير وحده بهذه الامور يجعلني مريضاً ، ثم تأتي بعد ذلك كله لتختلق فكرة الزواج !

نظر الى زاخار من جديد

— أتسمح بأن أنادي أنيسيا ؟ — سأل زاخار .

twitter @baghdad_library

— لماذا ؟ ليست أنيسيا هي التي اختلقت هذا الإفتراض الطائش ، بل أنت .

— رحماك يا إلهي ، ماذا اقترفت اليوم من ذنب حتى تعاقبني ؟ — همس زاخار ، ثم تنهّد بقوة ، لدرجة أنّ كتفيه قد ارتفعا قليلاً .

— والمصاريف ؟ تابع أبلوموف — والنقود من أين أحصل عليها ؟ ألا تعرف ، كم من النقود معي ؟ — سأل أبلوموف بطريقة تنمّ عن التهديد . — والشقة ؟ يجب أنْ أدفع هنا ألف روبل ، وأن أستأجر شقة أخرى أيضاً أدفع ايجارها ثلاثة آلاف روبل ، ناهيك عن الإكمالات ! زد على ذلك تكاليف العربة والطباخ ونفقات المعيشة ! كيف لي أن أتدبر ذلك كله ؟

— كيف يتزوج الآخرون إذن ؟ — قال زاخار معترضاً . لكنه ندم على ما بدر منه، لأن سيده قفز من كرسيه لدى سماعه ذلك ، حتى أنه كاد أن يثب نحوه .

— تعود ثانية وتقارنني : « الآخرين » ؟ حذار ! قال أبلوموف مهدداً باصبعه . — الآخرون يعيشون في غرفتين فقط مع أولادهم وضيوفهم ؛ في بيوت الآخرين تخدم امرأة واحدة فقط . هل ترضى بأن تذهب سيدة نبيلة الى السوق ! هل تذهب أولغا سيرغييفنا الى السوق ؟

— المسألة محلولة ، الى السوق أذهب أنا ، — لاحظ زاخار .

— ألا تعرف مقدار دخلنا من أبلوموفكا ؟ ألم تسمع ماكتبه وكيل القرية ؟ الدخل هذا العام أقل من السنة الفائتة بألفي روبل ! ورغم ذلك

فهناك أمور كثيرة يجب إنجازها : شق الطريق ، بناء المدرسة والسفر الى أبلوموفكا ، وهناك في القرية لايوجد لديّ بيت أعيش فيه . . . عن أي عرس تتحدث ؟ ماذا تبتكر وتختلق ؟

توقّف أبلوموف . استولى عليه الرعب بسبب هذه الصورة المستقبلية المخيفة . فأزهار النارنج ، والورود ، وبريق العيد ، وصيحات الدهشة وسط الجمهور — تلاشت كلها فجأة .

تغير وجهه واستغرق في التفكير . أخذ يعود الى رشده تدريجياً ، ثم التفت وشاهد زاخار .

ماذا تريد ؟ — سأل أبلوموف وعلامات الإنزعاج بادية على وجهه .

— لقد أمرتني ياسيدي بأن أنتظر ! — قال زاخار .

— انصرف ! — أشار له أبلوموف بفارغ الصبر . اتجه زاخار بسرعة نحو الباب .

— لا ، انتظِرْ ! — استوقفه أبلوموف فجأة .

— حيّرتني ياسيدي . مرة تقول انصرف ، وأخرى انتظر ! غمغم زاخار وهو يمسك الباب بيده .

— (بصوت قلق) كيف تتجرأ على اطلاق مثل هذه الشائعات الطائشة ؟

— متى أطلقتها ؟ لست أنا الذي أطلقتها . أناس من طرف آل إيلينسكايا ، هم الذين قالوا بأن السيد النبيل سيخطب

twitter @baghdad_library

ـــ هس . . . ـ همس أبلوموف وهو يلوّح بيده مهدّداً ، ـــ ولا كلمة ! أتسمع ؟

ـــ سمعاً ياسيدي ، ـــ أجاب زاخار بخوف .

ـــ هل ستتوقف عن نشر هذه الترّهات ؟

ـــ أجل ـــ أجاب زاخار بصوت خافت وهو لايفهم نصف الكلمات ، فكل ماعرفه فقط ، هو أنها كلمات « مؤسفة » .

ـــ واذا ماصادف أن دار الحديث أمامك حول هذا الموضوع ، أو وجّه أحدهم إليك سؤالاً بشأنه . فقل لكل من يسأل : هراء ، فهذا أمر مختَلَق ، عار عن الحقيقة ، ولا يمكن أن يكون ! ـــ أضاف أبلوموف هامساً .

ـــ سمعاً وطاعة ياسيدي ، ـــ همس زاخار بصوت خافت لايكاد يُسْمَع .

التفت أبلوموف إليه متوعداً باصبعه . أخذ زاخار يرفّ عينيه المذعورتين ، ثم توجّه على رؤوس أصابعه تجاه الباب على أمل الإنصراف

ـــ من هو الشخص الأول ، الذي أطلق هذه الإشاعة ؟ ـــ سأل أبلوموف ، بعد أن كان قد أدركه .

ـــ كاتيا أخبرت سيمون وسيميون أخبر نيكيتا ، ونيكيتا أخبر فاسيليسا . قال زاخار هامساً .

ـــ وأنت نشرت الإشاعة للجميع ! سأريك ! ـــ همس أبلوموف متوعداً . تلصق تهمة باطلة بسيدك ! آ !

طيب !

— لماذا تقرّعني بهذه الكلمات ياسيدي ؟ — قال زاخار ، — سأنادي أنيسيا : فهي تعرف كل شيء

- . ماذا تعرف ؟ قل . قل فوراً ! . . . خرج زاخار من الباب بسرعة البرق ، ثم دخل المطبخ بعجلة غير معهودة .

- . ضعي المقلاة ، وهلمّي الى سيدي ! — قال زاخار مخاطباً أنيسيا وهو يشير باصبعه الكبيرة الى الباب .

أعطت أنيسيا المقلاة لأكولينا ، ثم سحبت طرف ثوبها من تحت زنّارها . وضربت وركيها براحتي يديها ، ومسحت أنفها بسبابتها ثم مضت الى سيدها . وخلال خمس دقائق تمكّنت أنيسيا من تهدئة روع أبلوموف . بعد أن قالت له بأن أحداً لم يتحدث قط عن العرس ، وأقسمت بأنها تسمع هذا الموضوع للمرة الأولى ؛ أخبرته بأنها سمعت كلاماً آخر تماماً ، مفاده أن البارون سيخطب الآنسة أولغا . . .

— البارون ! — سأل إيليا إيليتش وهو يقفز فجأة . وقد تجمّد ليس قلبه فحسب ، بل يداه وساقاه أيضاً .

— هذا ايضاً هراء ! — قالت أنيسيا بسرعة ، بعد أن رأت أنها هربت من مشكلة فوقعت في مشكلة أكبر .

حقيقة الامر ياسيدي ، أن كاتيا أخبرت سيميون بما قلته لكم ، وسيميون أخبر مارفا ، ومارفا حرّفت الكلام لنيكيتا . ونيكيتا قال ، بأنه « سيكون رائعاً جداً ، لو تزوج سيدك الآنسة . . . »

twitter @baghdad_library

— كم هو أحمق نيكيتا هذا ! — لاحظ أبلوموف

— حقاً ، إنه لأحمق ، — أكدت أنيسيا ، . . فهو يبدو كالنائم تماماً عندما يسير خلف العربة . فاسيليسا لم تصدق . — تابعت أنيسيا ، وهي تسرع في الكلام ، — فقد أخبرتني بأن الآنسة أولغا لاتفكر بالزواج ، وأنه من غير المعقول ألا يكون إيليا إيلييتش قد عثر على عروس لو أنه أراد الزواج حقاً ، كما أخبرتني بانها شاهدت صموئيل منذ مدة قريبة ، حتى أنه ضحك لدى سماعه الخبر وقال لها : عن أي عرس تتحدثين ؟ فالحالة في منزل آل إيلينسكايا تبعث على الأسى ، أكثر مما تبعث على الفرح ، فعمة الآنسة أولغا تشعر بصداع في رأسها ، والآنسة نفسها تبكي وهي صامتة ، وفي البيت لايجري أي تحضير لجهاز العروس ، حتى أنهم رهنوا في الأسبوع الفائت فضياتهم . .

« رهنوا فضياتهم ؟ لايوجد لديهم نقود ! » — تفكر أبلوموف وهو يطوف بعينيه على الجدران بهلع ، ثم توقفت عيناه على أنف أنيسيا . لأنه لم يجد شيئاً آخر يوقفهما عليه . كانت أنيسيا تبدو وكأنها لاتتحدث بفمها ، بل بأنفها .

— حذار من الثرثرة ياأنيسيا ! — قال أبلوموف زاجراً بحركة من إصبعه .

— وهل يمكن أن أفعل ذلك ياسيدي ! فهذا أمر لايمكن أن يخطر على بالي مطلقاً ، — قالت أنيسيا بصوت يشبه نجر الخشب ، — كيف

أتحدث عن أمر لا وجود له بتاتاً . أقسم بالله إنني أسمع هذا للمرة الأولى اليوم ! كيف يمكن أن أثرثر ؟ لا ياسيدي . هذا مستحيل . فأنا لا أتحدث الى أحد ، أقضي الوقت كله في المطبخ . لم أشاهد أحداً من طرف آل إيلينسكايا منذ أكثر من شهر ، حتى أني نسيت أسماءهم . وهنا . مع من أثرثر . فأنا لاأتحدث إلا مع صاحبة البيت فقط ، والحديث كله يدور حول الطهي والغسيل والشؤون المنزلية ؛ الى العجوز يستحيل التحدث : فهي تسعل دائماً ، كما أنها لاتسمع إلا بشق النفس. أكولينا امرأة غبية بلهاء . اما البواب فسكّير ؛ يبقى الأطفال فقط : ماذا يمكن أن يدور بيننا من حديث ؟ حتى صورة الآنسة أولغا نسيتها ...

— كفى . كفى ، كفى ! — قال أبلوموف ، مشيراً بيده بفارغ الصبر كي تنصرف

— كيف يمكن أن أتحدث عن أمر لا وجود له ؟ — أكملت أنيسيا كلامها وهي تنصرف. — ماقاله نيكيتا هراء بهراء . فكلامالحمقى لايؤخذ به .

لايمكن أن يخطر في بالي مطلقاً ، أمر كهذا : فمن طلوع الشمس حتى غروبها وأنا أكدّ وأعمل — فكيف يمكن أن أفكر بأمر كهذا ؟ الله يشهد على ماأقول ! إثر ذلك ، اختفى ذلك الأنف المتكلم وراء الباب ، ثم ظلّ صوتها مسموعاً خلفه بعض الوقت .

— هكذا إذن ! فأنيسيا تؤكد : كيف يعقل ذلك ! — قال أبلوموف هامساً ، وهو يشبك راحتي يديه ببعضهما .

twitter @baghdad_library

ــ السعادة ، السعادة ! ــ كرّر أبلوموف بعد ذلك بمرارة . ــ كم هي هشّة ، لايوثق بها !

والاكليل ، والحب ! كيف أحصل على النقود ؟ كيف سأتدبّر نفقات معيشتي ؟ فالمرء يجب أنْ يشتري الحب والسعادة الصافية .

منذ هذه اللحظة لم يعد أبلوموف يشعر بحلاوة الطمأنينة والأحلام الواعدة . أصبح قلقاً لاينام ولا يأكل إلا القليل القليل ، وينظر الى كل شيء ساهماً .

كان يريد أن يخيف زاخار ، لكن خوفه أصبح أكبر ، وهو يتأمل ويفكر ملياً بالجانب العملي للزواج . أدرك أبلوموف جانبه الشاعري بالطبع ، لكنه أدرك أيضاً جانبه العملي الذي يعتبر خطوة رسمية لدخول مدرسة الواقع الجدية الصارمة ، التي ترتّب على عاتقه العديد من المسؤوليات والالتزامات القاسية

كان أبلوموف قد تخيّل حديثه مع زاخار على نحو مغاير تماماً .

تذكر كيفية إعلان نبأ زواجه بمهابة أمام زاخار ، الذي سيطير فرحاً وسيرتمي على قدميه ، وكيف سيعطيه خمسة وعشرين روبلاً ، بينما يعطي أنيسيا عشرة روبلات . . .

تذكر كل شيء ، تذكر نبضات السعادة الرائعة ، وارتعاش أنامل أولغا ، والقبلة الحارة الشغوفة ، ثم أخذت هذه العبارة تتردّد في أعماقه :

« لقد ضاع كل شيء وانقضى ! » .

ــ ماذا الآن ؟ . . .

ـ ٥ ـ

لم يكن أبلوموف يعرف كيف سيواجه أولغا ، لم يكن يعرف ماستقوله له ، أو ماسيقوله لها ، فقرر ألا يذهب إليها يوم الاربعاء ، وأن يؤجّل لقاءه بها ليوم الأحد ، وهو الوقت الذي يكون فيه هناك عادة حشد كبير من الزوار ، الأمر الذي لايسمح لهما باللقاء على انفراد .

لم يكن يريد أن يروي على مسامعها أقاويل الناس الحمقاء عنهما ، كي لايزعجها ويعكر صفوها . فقد رأى أنه من الحكمة عدم البوح إليها بذلك ، لكنه بالمقابل ، لايعرف التصنّع والتكلف : فتستطيع أولغا أن تنتزع حتماً من أعماق نفسه كل شيء .

هدأ قليلاً بعد أن استقر على هذا القرار ، وكتب الى جاره في القرية والى وكيله هناك رسالة يرجو فيها بالحاح الإسراع في الرد ، على أن يكون الجواب مُرضياً ما أمكن .

بعد ذلك ، بدأ يفكر كيف سيمضي ذلك اليوم بعيداً عن أولغا ، دون أن يستمع الى غنائها العذب ، ويستمتع بالنظر إليها .

قرر أبلوموف أن يذهب الى إيفان غير اسيموفيتش ، ويتناول الغداء عنده ، كي يخفف عن نفسه قدر المستطاع من عناء ذلك اليوم . وفي الأحد ، يكون وضعه قد تحسّن ، ولربما يكون الجواب من القرية قد وصل أيضاً .

أقبل يوم الأربعاء .

استيقظ أبلوموف على نباح الكلب المربوط بالسلاسل. دخل أحد ما فناء المنزل ، وبدأ يسأل عن شخص ما . صاح البواب لزاخار . حمل زاخار الى أبلوموف رسالة آتية من بريد المدينة .

— من الآنسة إيلينسكايا ، — قال زاخار .

— كيف عرفت ؟ — سأل أبلوموف بغضب — إنك تكذب !

— مثل هذه الرسائل ، كانت تأتيك منها ياسيدي ، عندما كنا في المنزل الصيفي ، — أصرّ زاخار .

« هل صحتها بخير ؟ ماذا يعني ذلك ؟ » تفكر أبلوموف وهو يفتح الرسالة .

« لاأريد أن أنتظر حتى يوم الاربعاء (كتبت اولغا) : فأنا لا أستطيع أن أصبر طويلاً على فراقك . سأنتظرك غداً بفارغ الصبر في الحديقة الصيفية ، الساعة الثالثة » .

انتهى نص الرسالة .

عاد القلق من جديد الى أبلوموف ، وبدأ يروح ويجيء من شدة الإضطراب ، وهو يفكر بما سيقوله لها ، وكيف سيواجهها .

— لاأقدر ، لاأستطيع ، — قال أبلوموف .

لكنه وجد أخيراً مايُدخل الهدوء الى نفسه . تخيّل أن أولغا ستأتي الى الموعد ، إما بصحبة عمتها ، أو بصحبة سيدة أخرى ، كما ريا سيميونوفنا مثلاً ، التي تحبها كثيراً ، ولاتشبع من النظر اليها . انبعث في نفسه الأمل ، بأنه سيستطيع أن يخفي قلقه واضطرابه بوجود مثل هذه

السيدة ، الّتي تصحب أولغا ، وأخذ يهيّىء نفسه كي يكون كثير الكلام، أنيساً .

« في موعد الغداء بالذات : ماأغرب تحديد الموعدفي وقتكهذا!»—

تفكر أبلوموف . وهو يتوجه ، ليس بدون كسل ، الى الحديقة الصيفية

.ماإن دخل الممشى الطويل ، حتّى شاهد امرأة تضع خماراً على وجهها ، وهي تنهض وتتجه لملاقاته .

لم يستطيع أن يتصور بأنها أولغا : فهي وحيدة ! لايمكن ! إنها لن تفعل ذلك ، إذ لاتوجد لديها حجة أو ذريعة لمغادرة البيت .

لكن المشية تبدو مشيتها : فساقاها تنزلقان بخفة ورشاقة ، وعنقها ورأسها مائلان الى الأمام قليلاً ، كأنها تبحث بعينيها دائماً عن شيء ماتحت قدميها .

شخص آخر كان يمكن أن يميّزها من قبعتها ومعطفها ، لكن أبلوموف الذي كان يمضي بصحبتها الصباح كله ، لم يستطع أن يحدّد أبداً نوع المعطف الذي ترتديه ولا القلنسوة الّتي على رأسها .

كانت الحديقة خالية من الناس تقريباً ، إذ لم يكن يُشاهَد فيها إلا رجل كهل يسير برشاقة وسرعة : يبدو أنه كان يقوم بنزهة من أجل إنعاش صحته ، وامرأتان،ومربية بصحبة طفلين ازرقّ وجههما بسبب البرد .

كانت أوراق الاشجار قد تساقطت تماماً ، الغربان تنعق بصورة

twitter @baghdad_library

كريهة . بالمناسبة ، كان يبدو بجلاء ، أن الطقس جميل ، حتى ان المرء سيشعر بالدفء اذا مالبس جيداً .

كانت المرأة ذات الخمار تقترب أكثر فأكثر . . .

- إنها هي ! - قال أبلوموف ، ثم توقف من شدة الرعب وهو لايصدق عينيه .

- هذا أنت ؟ مابك ؟ - سأل أبلوموف وهو يأخذ يدها .

- كم أنا سعيدة لأنك أتيت ، - قالت أولغا دون أن تجيب على سؤاله ، - اعتقدت بأنك لن تأتي ، وبدأت أضطرب !

- كيف أتيت الى هنا ، وبأي طريقة ؟ - سأل أبلوموف بانذهال.

- دعك من هذا ، ماهذه الاسئلة ؟ - إنها تبعث على الملل ! أردت أن أراك فأتيت ... هذا كل مافي الامر !

شدت على يده بقوة وأخذت تنظر اليه بسرور وبعدم مبالاة . مستمتعة بروعة هذا اللحظة ورونقها ، لدرجة أنه شعر بالحسد لعدم مشاركته لها مزاجها هذا . كان وجهها خالياً من تلك الفكرة المركزة ، التي تلتمع عادة على حاجبيها ، وتنسكب على جبينها ، فقد كان صافياً رائعاً لاأثر للكدر فيه .

كان وجهها يشع ببريق البراءة الطفولية ، وبالثقة بالمستقبل المشرق الباسم . وبالسعادة . . . كانت غاية في اللطف .

- آه ، كم أنا سعيدة ! - قالت بإصرار وهي تبتسم وتنظر إليه .

اعتقدت بأنني لن أراك اليوم . البارحة شعرت بالضجر فجأة ، دون أن أعرف السبب ، فكتبت إليك . ألست مسروراً ؟

نظرت الى وجهه .

– لماذا أنت جهم اليوم ؟ لماذا أنت صامت ؟ هل أنت غير مسرور ؟ اعتقدت بأنك ستكون في غاية السعادة والفرح ، لكنك تبدو كالنائم تماماً .

استيقظ من غفوتك أيها السيد ، فأولغا معك !

ثم دفعته برفق معاتبة

– هل أنت مريض ؟ مابك ؟ – ألحّت أولغا .

– كلا ، فأنا سعيد وصحتي جيدة – قال أبلوموف بسرعة ، كي يصرف نظر أولغا عن قراءة مافي أعماقه من أسرار وخبايا . – كل مافي الأمر ، هو أنني قلق ، لأنك أتيت الى هنا بمفردك . . .

– هذه هي رغبتي ، – قالت أولغا بنفاذ الصبر . – هل كان من الأفضل ، أن تأتي عمتي معي ؟

– أجل ياأولغا . . .

– لو كنت أعرف رأيك هذا ، لرجوتها أن ترافقني ، – قالت أولغا بصوت ممزوج بالأسى وهي تفلت يده . – كنت أعتقد ، بأن وجودي معك على انفراد ، هي أكبر سعادة بالنسبة لك .

– (معترضاً) كلا ، هذا لايجوز أن يحدث ! . كيف تأتين بمفردك . . .

twitter @baghdad_library

ــ لاداعي للتحدث عن هذا طويلاً ، من الأفضل أن نتحدّث عن أمر آخر ؛ ــ قالت أولغا بدون اكتراث .

ــ اسْمَعْ . . . آه ، كنت أريد أن أقول شيئاً ... ما ، لكنني نسيت . . .

. أما كنت تريدين التحدث عن سبب مجيئك الى هنا بمفردك ؟ ــ بدأ أبلوموف الكلام وهو ينظر جانباً .

ــ كلا ! فأنت تعود الى الموضوع ذاته ! كفى ! ماذا كنت أريد أن أقول ؟ . . . لقد نسيت ، سأتذكر فيما بعد .

آه ماأروع المكان هنا ، فأوراق الأشجار تساقطت،إنها أوراق الخريف . هل تذكر هوغو ؟ انظر،الشمس تطل هناك ، آه ، ماأروع نهر النيفا . . . هيا بنا نتنزه في القارب . . . .

ــ ماذا تقولين ؟ سامحك الله ! في مثل هذا البرد . فأنا في قميص القطن فقط . . .

ــ وأنا أيضاً في فستان قطني . ماأهمية ذلك . هيّا ، هيّا .

ثم ركضت وهي تسحبه بيده . أخذ يقاوم . لكنهما جلسا في القارب وانطلقا .

ــ كيف أتيت الى هنا بمفردك ؟ ــ أصرّ أبلوموف وقد بدا عليه الإنزعاج .

ــ أأقول ؟ ــ أخذت تتظاهر بالغيظ بدهاء ، بعد أن أصبحا في

وسط النهر . — الآن يمكنني القول : فأنت لاتستطيع أن تهرب من هنا ، بينما كنت تستطيع أن تهرب من هناك . . .

— ماذا ستقولين ؟ — قال أبلوموف بذعر .

— ألن تذهب الينا في الغد ؟ — سألت أولغا بدلاً من أن تجيب .

« آه ، يا إلهي ! — تفكر أبلوموف . — كأنها قد قرأت أفكاري وعرفت بأنني لم أكن أريد الذهاب » .

— أجل سأذهب ، — أجاب بصوت مسموع .

— منذ الصباح ، ليوم بكامله .

اضطرب أبلوموف

— اسمع . . . — بدأت اولغا بجدية ، — لقد طلبت منك المجيء اليوم ، كي أقول لك . . .

— ماذا ؟ — سأل بذعر

— كي . . . تذهب إلينا غداً .

— آه ، يا إلهي ! — اعترض أبلوموف بنفاذ صبر . — لكن ، كيف أتيت الى هنا ؟

— الى هنا ؟ — رددت أولغا بسرور . — تسأل كيف أتيت الى هنا ؟ هكذا ببساطة . . . اسمع . . . يكفي التحدث عن ذلك !

غرفت حفنة ماء ورشقتها على وجهه. أغمض عينيه ثم ارتعش بينما أخذت أولغا تضحك .

— ما أبرد الماء ، لقد تجمدت يدي تماماً ! يا إلهي ! يا للروعة ، يا

twitter @baghdad_library

للبهجة ! ـ تابعت أولغا وهي تتلفت جانباً . ـ فلنذهب غداً الى هنا من جديد ، على أن نأتي من البيت مباشرة . . .

ـ ألم تأت الآن مباشرة من البيت ؟ من أين قادمة أنت ؟ ـ سأل أبلوموف بسرعة .

ـ من المخزن . ـ أجابت أولغا .

ـ من أي مخزن ؟

ـ كيف ؟ لقد قلت في الحديقة ، من أي مخزن . . .

ـ كلا ، لم تقولي . . . ـ قال أبلوموف بفارغ الصبر .

ـ لم أقل ! غريب ! لقد نسيت ! ذهبت بصحبة رجل الى أحد الصاغة . . .

ـ وماذا أيضا ؟

ـ ماذا تسمى هذه الكنيسة ؟ ـ سألت اولغا فجأة صاحب القارب ، وهي تشير الى مكان بعيد .

ـ أية كنيسة ؟ تلك ؟ ـ أعاد صاحب القارب السؤال من جديد.

ـ سمولني ! ـ أجاب أبلوموف بنفاذ الصبر . ـ ذهبت الى المخزن . ماذا فعلت هناك ؟

ـ توجد هناك . . . أشياء رائعة آه ، لقد عثرت على سوار رائع !

ـ (مقاطعا) الحديث ليس عن السوار ! ماذا فعلت ايضاً ؟

ـ هذا كل شيء ، ـ أضافت أولغا بسرور وهي تتفحص المكان بانتباه من كل الجهات .

ـ أين الرجل ؟ ـ سأل أبلوموف بالحاح .

ذهب الى البيت ، ـ أجابت أولغا بلا اكتراث ، وهي تنظر الى الأبنية الموجودة على الضفة المقابلة .

ـ وأنت ؟ ـ قال أبلوموف .

ـ ماأروع المكان هناك ! ألا يمكننا الذهاب الى هناك ؟ ـ سألت أولغا مشيرة بمظلتها الى الجهة المقابلة . ـ فأنت تعيش هناك !

ـ أجل .

ـ دلّني على الشارع ، الذي تعيش فيه .

ـ أين الرجل ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ أرسلته الى البيت من أجل السوار ، وأمرته بأن ينتظر عند المخزن ، أما أنا فأتيت الى هنا ـ أجابت بلا اكتراث .

ـ كيف فعلت ذلك ؟ ـ قال أبلوموف وهو يحملق فيها.

علت أمارات الخوف وجه أبلوموف . أما أولغا فقد اتخذت قصداً الهيئة ذاتها .

ـ تكلمي بجدّية ياأولغا ، كفى مزاحاً .

ـ أنا لاأمزح ، ذلك مافعلت حقاً !ـ قالت بهدوء . ـ لقد تناسيت السوار عمداً في البيت ، في الوقت الذي طلبت فيه عمتي أن أعرّج على

twitter @baghdad_library

المخزن . فأنت لن يخطر ببالك أمر كهذا ! – أضافت أولغا باعتزاز . وكأنها عملت أمراً عظيماً .

– ماذا سنفعل فيما لو عاد الرجل ؟ – سأل أبلوموف .

– لا ، لن يأتي . فقد طلبت منه أن ينتظر ويبلغ عمّي ، بأنني ذهبت الى مخزن آخر ، أما انا فأتيت الى هنا . . .

– واذا سألتك ماريا ميخا يلوفنا الى أي مخزن ذهبت فماذاستقولين ؟

– سأقول بأنني كنت عند الخياطة .

– واذا سألت الخياطة ؟

– واذا غار نهر النيفا في البحر فجأة ، واذا انقلب الزورق في النهر ، واذا انهار حي مورسكايا ومنزلنا واذا ما توقفْت عن حبي فجأة . . . – قالت أولغا ثم رشقت وجهه بالماء من جديد .

– لكن الرجل ينتظر . . . – قال أبلوموف وهو يمسح وجهه . – ياصاحب القارب ، هيّا الى الضفة !

– لا ، لا ! – أمرت اولغا صاحب القارب .

– هيا الى الضفة ؟ فالرجل ينتظر ، – أصرّ أبلوموف .

– فلينتظر ! لا ، لا تعُد الى الضفة .

لكن أبلوموف أصرّ على رأيه . وأخذ يسير في الحديقة مسرعاً ، أما أولغا فقد كانت على العكس من ذلك ، تسير ببطء وهي تستند على يده .

ـ لماذا أنت مسرع هكذا ؟ ـ قالت أولغا . ـ تمهل ، فأنا أريد أن أبقى معك

أخذت تمشي ببطء أكثر ، وهي تلتصق بكتفه وتنظر الى وجهه عن كثب . أما أبلوموف فكان يتحدث اليها عن المسؤوليات والواجب بتكاسل وضجر ومشقة .

كانت تسمعه بشرود . وقد علت ابتسامة فاترة شفتيها ، وهي تخفض رأسها وتنظر الى الأسفل . أو الى وجهه من جديد ، وهي تفكر بشيء آخر .

ـ اسمعي ياأولغا ـ بدأ أبلوموف كلامه أخيراً بمهابة ، ـ ينبغي أن أقول لك بكل صراحة وحسم ، بأننا ذهبنا بعيداً . فواجبي ومسؤولياتي تحتم علي بأن أقول لك ذلك .

ماذا ستقول ؟ ـ سألت أولغا بفارغ الصبر .

بأننا نرتكب حماقة . لأننا نلتقي سراً .

ـ لقد سبق أن قلت هذا ، عندما كنا في المنزل الصيفي ، ـ قالت أولغا بتأمل .

أجل ، لكنني كنت آنذاك مفتوناً : كنت ادفع بيد وأمسك بأخرى . لقد كنت أنت صريحة ، أما أنا فكأنني . . . كنت أخدع نفسي . كان إحساسي بالسعادة آنذاك لايزال عارماً . . .

ـ أما الآن فاصبح فاتراً ، وبدأت تضجر . . .

ـ آه . كلا ياأولغا ! انك لست محقة في ذلك . حقيقة الأمر ، هي

twitter @baghdad_library

أنني لم أكن قادراً فيما مضى على الإمتثال لنداء العقل . فضميري يعذبني لأنك ماتزالين فتية ومعرفتك للعالم والناس ماتزال بسيطة ، زد على ذلك أن حبك طاهر ونقي لدرجة أنه لايخطر في بالك مطلقاً ما نلاقيه معاً من لوم واستنكار قاسيين بسبب ما نفعله ، لاسيّما أن هذا اللوم ينصب علي بالدرجة الأولى .

— وماذا سنفعل ؟ — سألت اولغا وهي تتوقف .

— كيف ؟ إنك تخدعين عمتك ، وتخرجين سراً من البيت وتقابلين رجلاً على انفراد . . . حاولي أن تفصحي عن ذلك كله يوم الاحد ، في حضرة الضيوف . . .

— وما المانع من ذلك ؟ — قالت بهدوء . — لعلي سأقول . . .

— عندها سترين ، — تابع أبلوموف ، — كم سيكون موقف عمتك صعباً ، وكم سيكون رد فعل السيدات مستهجناً وكيف سيتجاسر الرجال على النظر إليك بوقاحة وخبث . . .

أخذت اولغا تفكر .

— لكننا انا وأنت — عروسة وعريس ! — قالت أولغا معترضة

— أجل ، أجل ، ياعزيزتي أولغا ، — قال أبلوموف وهو يضغط على يديها ، — لكن هذا لايعفينا من اليقظة والحذر لدى كل خطوة نخطوها . فأنا أريد أن أمشي متأبطاً ذراعك باعتزاز على مرأى من العالم كله ، لاسراً ، أريد أن يخفض الناس أبصارهم احتراماً لك وأنت تمرّين أمامهم ، لا أن يتجاسروا على النظر إليك بوقاحة وخبث ، أريد

ألا يخطر ببال أحد قط ، بأنك قد تنسين الخجل والتهذيب والواجب . . .

— لم أنسَ الخجل والتهذيب والواجب ، — أجابت أولغا باعتزاز وهي تسحب يدها منه .

— أعرف ، أعرف ياملاكي الطاهر ، فلست أنا الذي يقول ذلك ، بل الناس ، الذين لن يغفروا لك أية زلّة . أستحلفك بالله أن تفهمي قصدي . فأنا أريدك أن تكوني في أعين الناس كما أنت في حقيقة الأمر ، طاهرة نقية لاعيب فيك . . .

أخذت أولغا تسير متأملة .

— افهمي القصد مما أقوله لك : فلن تكوني سعيدة ، وسأكون أنا المسؤول عن ذلك كله . سيقولون ، بأني قد استدرجتك وأغمضت عينيك عن الهاوية . فأنت طاهرة هادئة معي ، لكن من ستقنعين بذلك ؟ من سيصدّق ؟

— هذا صحيح ، — قالت أولغا مرتعشة . اسمع ، — أضافت بحسم ، — سنخبر عمّتي بكل شيء ، ولتباركنا غداً . . .

امتقع أبلوموف .

— مابك ؟ — سألت أولغا .

— انتظري ياأولغا : لماذا أنت مستعجلة هكذا ؟ . . . — أضاف أبلوموف بسرعة وشفتاه ترتجفان .

— ألست أنت الذي كنت تستعجلني منذ أسبوعين ؟ — سألت أولغا ، وهي تنظر اليه بامعان وجفاء .

twitter @baghdad_library

— (متأوهاً) لكنني لم أفكر عندئذ بالاستعدادات ، التي هي كثيرة ! . . .

لننتظر الرسالة ، التي ستأتيني من القرية .

— لماذا ننتظر الرسالة ؟ فهل يمكن لهذا الرد أو ذاك أن يغير من عزمك ؟ — سألت أولغا ، وهي تنظر اليه بامعان أكثر .

— طبعاً لا ! المسألة هي مسألة تحضير واستعدادات . فالحديث مع عمتك سيدور عن العرس وموعده . فنحن لن نتحدث اليها عن حبنا ، بل عن مثل هذه الأمور العملية ، التي لم أستعد لها الآن بعد .

— فلنخبرها إذن بمجرد أن تستلم الرسالة ، وفي هذه الأثناء سندع الجميع يعرفون بأننا خطيب وخطيبة ، واننا سنلتقي يومياً . لقد تعبت من هذه الأيام الطويلة ، — أضافت أولغا ، — فالجميع يلحّون عليّ بأسئلتهم ويلاحظون علاقتنا ويلمحون اليك . لقد تعبت من ذلك كله !

— يلمحون إليّ ؟ — نطق أبلوموف بصعوبة فائقة .

— أجل ، بفضل سونيتشكا .

— أرأيت ، أرأيت ؟ فأنت لم تصغ إلي ، بل غضبت مني آنذاك !

— ماذا أرى ؟ لاشيء ، كل مأراه هو أنك جبان . . . فأنا لاأحب هذه التلميحات .

— لست جباناً ، بل حذراً . . . أستحلفك بالله أن نذهب من هنا يا أولغا :

انظري ، هناك عربة تقترب — أليسوا من معارفنا ؟ آه ! فأنا لاأحتمل ذلك . . . هيا ، هيا—قال أبلوموف بهلع حتى أنه نقل عدوى الخوف إليها .

— أجل ، فلنذهب بسرعة ، — قالت أولغا بهمس ، وهي تسرع في الكلام

أخذا يركضان تقريباً في الممشى حتى نهاية الحديقة ، دون أن ينبسا بكلمة واحدة ، حيث كان أبلوموف يتلفت بهلع وقلق الى جميع الجهات ، بينما كانت أولغا مطرقة رأسها تماماً الى الأسفل وقد أرخت خمارها .

— نلتقي غداً ! — قالت أولغا ، بعد أن وصلا الى المخزن ، حيث كان الرجل ينتظر .

— كلا ، من الأفضل بعد غد . . . لا ، لا ، من الأفضل يوم الجمعة أو السبت .

— لماذا ؟

— لانني اعتقد ياأولغا ، بأن الرسالة قد تصلني حتى ذلك الوقت .

— على أية حال ، تعال غداً لنتناول الغداء معاً ، سمعت ؟

— أجل ، أجل ، حسنا ، حسناً ! — أضاف أبلوموف بسرعة ، ثم دخلت أولغا الى المخزن

« آه ، يالهي ، الى أي حد وصلت الأمور ! أي حجر سقط عليّ فجأة ! ماذا سأفعل الآن ؟ سونتيشكا ! زاخار ! أيها الشبان النيقون ... »

twitter @baghdad_library

— ٦ —

لم يلاحظ أبلوموف ، بأن الغداء ، الذي قدّمه له زاخار كان بارداً تماماً ، لم يلاحظ كيف وجد نفسه بعد ذلك في الفراش ، واستغرق في نوم عميق ثقيل .

ارتعد في اليوم التالي من فكرة الذهاب الى أولغا : فقد هاله الأمر ! تصور نفسه والناس ينظرون اليه بصورة معبرة .

فبدون هذا السبب أو ذاك ، يستقبله البواب بلطف زائد في منزل آل إيلينيسكايا ، وسيميون ينطلق مندفعاً ليلبي طلبه ، عندما يريد كأساً من الماء . وكاتيا والمربية تودعانه بابتسامة صادقة ودية .

« العريس ، العريس ! » — سيقولها الجميع ، في الوقت الذي لم يطلب فيه يد أولغا بعد من عمتها ، وفي الوقت الذي لايملك فيه نقوداً ولايعرف من أين سيحصل عليها ، حتى أنه لايعرف مقدار دخله هذا العام من القرية ، فلا بيت لديه هناك — ياله من عريس ناجح !

قرّر أن يلتقي أولغا في أيام الآحاد فقط ، وبحضور الناس أيضاً ، على أنْ يستمر ذلك حتى يستلم رداً إيجابياً من القرية . لذا ، فانه لم يستعد للذهاب اليها ، عندما أقبل يوم الغد ، موعد لقائه المفترض بها .

لم يحلق ذقنه ، ولم يرتد ملابسه ، بل أخذ يقلّب بكسل صحفاً فرنسية ، كان قد أخذها من منزل آل إيلينسكايا في الأسبوع الفائت ، لم ينظر الى الساعة باستمرار ، ولم يعبس ، لأن عقارب الساعة لاتمضي الى الامام بسرعة .

أعتقد زاخار وأنيسيا ، بأنه كالعادة ، لن يتغدى في البيت ، حتى انهما لم يسألاه ماذا سيحضّران من طعام .

أنّبهما بسبب ذلك ، ثم أعلن بأنه ليس صحيحاً إطلاقاً مايعتقدانه ، بأنه يتناول طعام الغداء عند آل إيلينسكايا في كل يوم أربعاء ، مؤكداً بأن هذا « افتراء » ، وانه كان يتناول الغداء في مثل هذا اليوم عند إيفان غير اسيموفيتش . ثم أعلن بعد ذلك ، انه سيتناول الغداء مستقبلاً في البيت باستمرار ، باستثناء بعض أيام الآحاد فقط .

اندفعت أنيسيا راكضة الى السوق من أجل شراء مايفضله سيدها من مواد لتحضّرها له .

جاء أطفال صاحبة البيت لعنده : صحّح لفانيا عمليات الجمع والطرح ، فعثر على غلطتين . ثم سطّر دفتر ماشا وكتب لها خطاً ، وطلب منها أن تكتب مثله .

استمع بعد ذلك الى تغريد الكناري ثم راح ينظر عبر الباب نصف المفتوح ويراقب ساعدي صاحبة الشقة المشمّرين .

في الساعة الثانية ، سألت صاحبة البيت من وراء الباب ، إن كان يرغب بتناول بعض الفطائر . ناولته بعضاً منها ، بالإضافة الى كأس من الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب .

هدأ اضطراب إيليا إيليتش قليلاً ، لكن سحابة من السرور والتأمل الكسول سيطرت عليه حتى الغداء .

بعد الغداء مباشرة ، استلقى على الأريكة ، فاستولى عليه النعاس .

twitter @baghdad_library

لكن باب الغرفة انفتح فجأة ، ودخلت أغافيا ماتفييفنا ، وهي تحمل هرمين من الجوارب بيديها .

وضعتهما على كرسيين ، فانتفض أبلوموف وقدّم لها الكرسي الثالث ، لكنها لم تجلس . فالجلوس لم يكن من عادتها : فهي دائماً واقفة ، دائماً في حركة وعمل .

— لقد جمعت اليوم جواربكم ، — قالت صاحبة البيت ، — خمسة وخمسون زوجاً ، كلها رديئة تقريباً . . .

— كم أنت طيبة ! — قال أبلوموف — وهو يقترب منها ، ويلمس مرفقها مداعباً .

ضحكت أغافيا ماتفييفنا .

— لماذا تزعجين نفسك ؟ فأنا أشعر بالخجل حقاً بسبب ماتفعلين .

— هوّن عليك . فهذا عمل بسيط : لا يوجد لديك من يقوم به ، — تابعت أغافيا ماتفييفنا ، — يوجد هنا عشرون زوجاً غير صالحة إطلاقاً .

— لاتتعبي نفسك بشيء ، ارميها من فضلك ! لاتشغلي نفسك بها . فسأشتري جوارب جديدة . . .

— كيف أرميها ، ولماذا ؟ فهذه يمكن إصلاحها ، — ثم أخذت تحصي الجوارب بحيوية .

— تفضلي واجلسي ، لماذا أنت واقفة ؟ — اقترح أبلوموف .

— كلا ، أشكرك جداً ، فلا وقت لديّ للجلوس ، — أجابت

وهي تعتذر من جديد عن الجلوس . - اليوم عندي غسيل : فيجب أن أنجز عملي

- إنك معجزة، لاربة بيت ! - قال أبلوموف وهو يثبّت نظره على عنقها وصدرها

ضحكت .

- ماذا قلتم ، هل أرفأ الجوارب ؟ - سألت صاحبة البيت ، - فسأوصي على خيطان وقماش قطني . فمثل هذه الأشياء ، تجلبها لنا عجوز من القرية ، لأن شراءها هنا عبث ، لأنها رديئة .

- اعملي معروفاً ، لكني أشعر بالخجل حقاً من هذا الإزعاج .

- هوّنْ عليك ، هل هذا أمر يتطلب العناء ! هذه سأصلحها بنفسي ، وهذه سأعطيها للجدة ، غداً ستأتي أخت زوجي لزيارتنا : فهي لن تفعل شيئاً في الأمسيات ، وستساعدني . ابنتي ماشا بدأت تتعلم الحياكة أيضاً ، لكن الصنارة كبيرة بالنسبة ليديها .

- هل يعقل ، أن ماشا تعرف الحياكة ؟ - سأل أبلوموف .

- أقسم ، أن هذا حقيقة .

لا أعرف كيف أشكرك ، - قال أبلوموف وهو ينظر اليها بمتعة كتلك التي كان ينظر بها الى الفطائر الساخنة صباحاً . - فأنا شاكر لك جداً ، جداً ، وسأردّ هذا الجميل ، وخاصة لماشا : سأشتري لها فساتين من الحرير ، وسأجعلها تبدو كالدمية في بهائها .

twitter @baghdad_library

— ماذا تقول ؟ وهل هذا يستحق الشكر ؟ماحاجتها بفساتين الحرير . فحتى فساتين البفتة تخرّبها بسرعة . وكذلك الأحذية .

نهضت ثم أخذت الجوارب

— الى أين مستعجلة الى هذا الحد ؟ . اجلسي ، فأنا لست مشغولاً .

— في وقت آخر ، في العيد ؛ نأمل أن تشرّفنا بزيارتك لتناول القهوة . أما الآن ، فالغسيل بانتظاري . سأذهب لأرى ، إن كانت أكولينا قد بدأت ؟ . . .

— أتمنى لك التوفيق ، فأنا لاأجرؤ على تأخيرك ، — قال أبلوموف مقتفياً بنظره ظهرها ومرفقيها .

— لقد أخرجت رداءك أيضاً من الصندوق ، — تابعت آغافيا ماتفييفنا . — يمكن إصلاحه وغسله : فقماشه رائع ! سيمضي زمن طويل قبل أن يهترئ .

— عبثاً ! فقد أقلعت عنه ، ولن ألبسه ، فأنا لم أعد بحاجة إليه .

— ومع ذلك ، سأغسله : ربما ستلبسه في وقت من الأوقات . . . في العرس مثلاً ! أكملت كلامها وهي تضحك ، ثم أغلقت الباب .

طار النعاس من عينيه فجأة ، فانفتحت عيناه ، وأصبح سمعه مرهفاً .

— إنها تعرف كل شيء ! — قال أبلوموف وقد تهاوى على الكرسي — . زاخار ، زاخار آه منك !

انهالت الكلمات « المؤسفة » . أي كلمات التحقير على زاخار من جديد . وبدأت أنيسيا تتكلم من أنفها ، وتقول « بأنها لأول مرة تسمع عن لسان صاحبة البيت حديثاً عن الزواج والعرس . وأن أحاديثهما لم تتضمن أية إشارة أو تلميح الى هذا الموضوع . وأن صاحبة البيت لاتعرف شيئاً عن الآنسة إيلينسكايا . حتى أنها لم تسمع بها ، ولابد أنها كانت تقصد عروساً أخرى . . . »

تكلمت أنيسيا طويلاً حول هذا الموضوع ، لدرجة أن إيليا إيليتش أشار اليها بيده كي تسكت . في اليوم التالي ، حاول زاخار أن يحصل على موافقة سيده للقيام بزيارة المنزل القديم الكائن في شارع غوروخف ، لكن أبلوموف أنّبه ورفض تلبية طلبه .

— الناس لايعرفون هناك شيئاً بعد عن الموضوع . وأنت تريد أن تنشر الإشاعة .

اجلس هنا . وإياك أن تغادر هذا البيت ! — أضاف أبلوموف متوعداً .

مضى يوم الاربعاء . تلقى أبلوموف من جديد . في يوم الخميس رسالة من أولغا . حملها اليه ساعي البريد . تتساءل فيها عما جرى له . وعن السبب الذي حال دون مجيئه اليها . أخبرته أولغا في رسالتها . بأنها بكت الليل كله . ولم تذق طعم النوم تقريباً .

لم يعرف هذا الملاك طعم النوم ! — هتف أبلوموف — . يا إلهي لماذا تحبني ؟ لماذا أحبها ؟ لماذا التقينا وتعارفنا ؟ كل هذا بسبب أندريي :

twitter @baghdad_library

لقد أصابتنا عدوى الحب . أية حياة هذه . فكلها مليئة بالإضطراب والقلق ! متى ستأتي السعادة الهادئة . متى سيحلّ الإطمئنان والهدوء ؟

استلقى وهو يطلق زفرات قوية ، ثم نهض ، حتى أنه خرج الى الشارع متأملاً ، باحثاً عن مقاييس حياتية ، تسمح له أن يعيش بهدوء وسكينة، في ظل حياة تجري فيها الأيام بوتيرة واحدة، في ظل حياة يجري فيها الزمن قطرة قطرة ، في ظل حياة ساكنة يلفها الهدوء ، يتأمل فيها بصمت الطبيعة المحيطة به . دون أن تعكّر صفو عيشه مشاغل الحياة المنزلية وهمومها . فهو لم يكن يريد مطلقاً أن يجري نهر الحياة صاخباً ، زاخراً بالأمواج ، كما يتصوره شتولتس .

-- هذا مرض ، حمى ، تجاوز للحدود ، خرق للسدود، طوفان .— قال أبلوموف — .

كتب الى أولغا ، بأن البرد قد أصابه في الحديقة الصيفية قليلاً ، لذا فقد كان مضطراً لأنْ يغلي بعض الأعشاب ويشرب ماءها . ويلازم البيت يومين ، وانه الآن قد تحسّن . وهو يأمل أن يراها يوم الأحد .

أرسلت اليه جواباً أثنت فيه على حسن تصرفه واهتمامه بصحته ، ونصحته بأن يلازم البيت يوم الاحد أيضاً ، اذا مارأى ذلك ضرورياً ، وأضافت بأنه من الأفضل بالنسبة لها أن تتحمل معاناة بُعده عنها أسبوعاً آخر . من أن تنتكس وتسوء صحته .

حمل الجواب اليه نيكيتا . وهو الشخص الذي قالت عنه أنيسيا

بأنه المسؤول عن الثرثرة ، التي حدثت بشأن موضوع العرس . كان يحمل أيضاً بعض الكتب المرسلة من أولغا ، مع رجاء لأبلوموف بأن يقرأها ويبلغها رأيه أثناء لقائهما المقبل ، إن كانت تستحق عناء القراءة .

طلبت أولغا من أبلوموف أيضاً ، موافاتها بجواب يشرح لها فيه وضعه ويطمئنها عن أحواله الصحية .

كتب أبلوموف الجواب وأعطاه بنفسه الى نيكيتا ، كما صحبه الى فناء المنزل وراح يراقبه بنظره حتى أصبح خارجه . فعل أبلوموف ذلك كله خشية أن يعرّج نيكيتا على المطبخ ، ويكرّر هناك « الوشاية » ، ومن أجل ألا يذهب زاخار لمرافقته حتى الشارع .

سُرّ أبلوموف لاقتراح أولغا المتعلق بصيانة صحته وبعدم المجيء يوم الأحد ، وكتب إليها ، بأنه من الضروري حقاً أن يلازم البيت بضعة أيام أيضاً من أجل أن يتماثل للشفاء تماماً .

قام بزيارة صاحبة البيت يوم الأحد ، وتناول القهوة ، وأكل بعض الفطائر الساخنة ، وعند الغداء أرسل زاخار الى حيّ في الناحية الأخرى من أجل شراء البوظة والسكاكر لطفلي أغافيا ماتفييفنا .

رجع زاخار بعد جهد جهيد الى ضفة النهر ، التي يقع عليها منزل أغافيا ماتفييفنا ، فالجسور كانت قد رفعت ، ونهر النيفا كان على وشك أن يتجمد . أصبح مستحيلاً على أبلوموف أن يفكر بالذهاب الى أولغا يوم الاربعاء .

كان ممكناً بالطبع أن يصل الآن الى ضفة النهر الأخرى ، ويقيم

twitter @baghdad_library

بضعة أيام عند إيفان غيراسيموفيتش ، ويتواجد يومياً عند أولغا .

الحجة مشروعة : كان موجوداً على ضفة النهر الأخرى ، ولم يتمكن من العودة الى شقته .

كانت هذه الفكرة أول ماداعبت ذهن أبلوموف ، فأنزل ساقيه بسرعة الى الأرض ، لكنه تفكر قليلاً ، ثم استلقى من جديد ببطء وقد بدا وجهه مهموماً ، وأطلق زفرة .

« كلا ، فلتسكت الأقاويل والشائعات ، ولينسه زوار منزل أولغا قليلاً ، وليشاهدوه هناك يومياً عندما يعلن على الملأ نبأ خطوبته على أولغا »

— كم هو ممل الإنتظار ، لكن لاحيلة في اليد ، — أضاف أبلوموف متنهداً ، ثم تناول الكتب ، التي أرسلتها أولغا .

قرأ خمس عشرة صفحة . جاءت إليه ماشا تدعوه للذهاب الى نهر النيفا :

الجميع ذاهبون ليروا كيف أصبح النهر . ذهب ثم عاد وقت موعد الشاي .

أخذت الايام تتالى . كان إيليا إيلييتش يشعر بالضجر ، فيقرأ ، ويتمشى في الشارع ، وأثناء وجوده في البيت كان يرمق صاحبة البيت بنظراته عبر الباب ، كي يتبادل معها بضع كلمات ليكسر جدار الملل . حتى أنه طحن لماذات مرة كمية من القهوة ، باذلاً الكثير من الجهد لدرجة أن جبينه قد تبلل بالعرق .

أراد أن يعطيها كتاباً لتقرأه . حركت شفتيها ببطء وقرأت العنوان

ثم أعادت له الكتاب قائلة بأنها ستأخذه ثانية مع حلول عيد الميلاد ، وسترغم فانيا على أنْ يقرأه بصوت مسموع ، كي تسمعه جدته أيضاً . أما الآن فلا وقت لديها لذلك .

في هذه الأثناء ، كانت حركة العبور على نهر النيفا عبر الجسور ، قد أعيدت . ذات مرة كان نباح الكلب ومحاولته الإفلات من الجنزير ، بمثابة إعلان عن قدوم نيكيتا ، الذي كان يحمل كتاباً ورسالة تتضمن استفساراً عن صحة أبلوموف .

كان أبلوموف يخشى اجتياز الجسور الى الجانب الآخر من النهر ؛ لذا فقد توارى كي لايراه نيكيتا . وكتب جواباً يقول فيه ، بأنّ ورماً صغيراً قد برز في رقبته . لذا فانه لايستطيع مغادرة البيت ، وانّ « القدر القاسي قد حرمه من سعادة رؤية محبوبته أولغا ، بضعة أيام أخرى » .

أوصى زاخار كثيراً كي لايثرثر مع نيكيتا إطلاقاً ، كما شيّع الأخير بنظرة حتى السياج ، بينما هدّد أنيسيا بحركة من إصبعه ، عندما أطلّت بأنفها من المطبخ . وهي تريد أنْ تسأل نيكيتا شيئاً ما .

— ٧ —

مضى أسبوع . ماإن استيقظ أبلوموف صباحاً ، حتى سأل بلهفة مستفسراً ، إنْ كانت الجسور قد نصِبَتْ .

كلا ، لم تُنْصَبْ بعد . - كان الردّ على سؤاله ، ثم أمضى اليوم بهدوء . وهو يصغي الى دقات رقاص الساعة ، والى قرقعة طاحونة القهوة ، والى تغريد الكناري .

twitter @baghdad_library

الصيصان لم تعد تصأصيء ، فقد أصبحت منذ زمن بعيد دجاجات هرمة ، تختبيء في الخم . الكتب التي أرسلتها أولغا ، لم يكمل قراءتها : فالصفحة الخامسة بعد المائة التي توقف عندها ، لاتزال مفتوحة كما تركها منذ أيام عدة .

أما الوقت فغالباً مايمضيه باللعب مع طفلي صاحبة الشقة . ففانيا صبي فطن ، استطاع بثلاث مرات أنْ يحفظ أسماء المدن الرئيسية في أوروبا . وعده إيليا إيليتش بأن يهديه نموذجاً صغيراً للكرة الارضية ، بمجرد أنْ يذهب الى الجهة الأخرى للنهر ، أما ماشنكا فقد أعدَّتْ له ثلاثة مناديل — صحيح أنها رديئة . لكن الطفلة بالمقابل . كانت تعمل جادّةً بيديها الصغيرتين . بطريقة تبعث على الضحك ، وهي تركض إليه في كل مرّة تنجز فيها قطعة صغيرة ، لتريه ماأنجزته من عمل .

كان أبلوموف يتحدّث باستمرار الى صاحبة الشقة ، بمجرد أن يلمح مرفقيها عبر الباب نصف المفتوح ، وأصبح يميّز من حركة المرفقين نوعية العمل ، الذي تقوم به .

حتى أنه حاول التحدث إلى الجدة الطاعنة في السن ، لكنها لم تستطع بحال من الأحوال ، أنْ تنهي حديثها : فهي تتوقف في منتصف الكلمة ، وتسند قبضتها على الجدار . وتنحني ، وتبدأ نوبة السعال القوي الحاد . ثم تتأوه بعد ذلك — وهكذا ينتهي الحديث .

الشخص الوحيد . الذي لم يكن يراه مطلقاً هو أخ صاحبة الشقة . وفي بعض الأحيان كان أبلوموف يلمح صرته الكبيرة من خلال النافذة

لكنّ وجوده في البيت لم يكن يلاحظ . حتى عندما دخل أبلوموف مصادفةً الغرفة ، التي يتناول فيها سكان البيت طعامهم ، فانّ أخ صاحبة الشقة مسح شفتيه بأصابعه بسرعة ، ثم توارى في غرفته الكائنة في ركن منعزل في الأعلى .

ذات مرة ، ما إن استيقظ أبلوموف صباحاً ، وبدأ بتناول القهوة ، حتى أبلغه زاخار بأنّ الجسور قد نصبت . بدأ قلب أبلوموف يخفق .

ــ يوم غد هو الأحد . ــ قال أبلوموف ، ــ يجب أن أذهب الى أولغا ، وأتحمّل بشجاعة ، طوال اليوم نظرات الآخرين الفضولية المعبّرة . ثم يخبرها عن عزمه على التحدث الى عمتها . لكنه لايزال غير قادر على أنْ يتحرك خطوة واحدة الى الامام في هذا الإتجاه .

كان سروره عظيماً وهو يتخيل بانتعاش بأنه قد اصبح عريساً ، وفي اليوم التالي والثالث يتوافد الرجال والسيدات من كل حدبٍ وصوب لتهنئته . ويصبح فجأةً موضوعاً للإهتمام والفضول ، وتقام على شرفه الولائم ، وتشرب في صحته الأنخاب . وبعدها بعدها يستخدم حق العريس وواجبه . ويقدم الى عروسه هدية . . .

ــ هدية ! ــ أسرّ أبلوموف لنفسه بهلع . ثم انفجر في ضحك مرير .

ــ هدية ! لكنه لايملك إلا مئتي روبل فقط ! قد يستلم نقوداً مع

twitter @baghdad_library

حاول عيد الميلاد ، وربما بعده ، بيد أن المبلغ الذي سيستلمه لايزال مجهولاً بالنسبة له على أية حال ، فالرسالة ستوضح كل شيء ، لكن الرسالة تأخرت . ماالعمل ؟ ماذا أتصرف ؟ وداعاً أيها الهدوء الرائع ، الذي استمر أسبوعين !

في هذه الأثناء ارتسم امامه طيف أولغا الرائع ، بحاجبيها الأزغبين الناطقين ، وبعينيها الشهلاوين الذكيتين ، ورأسها الجميل ، وضفائر شعرها الطويلة ، التي تضفي على قامتها الهيفاء الممشوقة ، وعلى هيئتها كلها البهاء والروعة .

لكن ، ماإن يخفق قلبه حبّاً وطرباً ، حتى تسقط عليه كالحجر ، فكرة مضنية ثقيلة : ماذا يتصرف ، ماذا يفعل ، كيف يوفّر متطلبات الزواج المادية ، كيف يؤمّن النقود ، وكيف سيعيش بعد ذلك ؟

« سأنتظر أيضاً ، لعل الرسالة تأتي غداً أو بعد غد » . أخذ يحسب كم من الوقت سيمضي قبل أنْ تصل رسالته الى القرية ، كم من الوقت سيؤخّرها جاره هناك ، وكم من الوقت سيمضي حتى يرسل رداً .

« لابدّ أنْ يصل الرَّدُّ خلال ثلاثة أو أربعة أيام ، سأرجىء مسألة الذهاب الى أولغا » ، — قرر أبلوموف ، خاصّةً أنها قد لاتكون عرفت بعد ، بأنّ الجسور نصبت . . .

— كاتيا ، هل نُصِبَت الجسور ؟ — سألت أولغا وصيفتها في الصباح ذاته ، بمجرّد أنْ استيقظت .

كان هذا السؤال يتكرر يومياً . لكنّ أبلوموف لم يكن يفترض ذلك إطلاقاً .

– لاأعرف ياسيدتي ، لم أر بعد أي حوذي أو بوّاب ، كما أنّ نيكيتا لايعرف .

– انك تجهلين دائماً كل ماهو ضروري بالنسبة لي ! – قالت أولغا بامتعاض ، وهي مستلقية في الفراش ، تتفحّص السلسلة الموجودة حول عنقها .

– سأتأكد الآن ياسيدتي . فأنا لم أجرؤ على الإنصراف ، لأنني اعتقدت بأنك ستستيقظين ، وإلا لكنت قد ذهبت منذ بعض الوقت . – ثم خرجت كاتيا من الغرفة .

سحبت أولغا درْج الطاولة الصغيرة وأخرجت منه رسالة أبلوموف الأخيرة .

« مسكين ، إنه مريض ، – فكرت أولغا باهتمام ، – إنه يتألم هناك وحيداً . . . آه ياإلهي ، متى سأراه . . . » .

وقبل أن تكمل فكرتها ، كانت كاتيا تدخل الغرفة مندفعةً ، وقد تورّد وجهها .

– الجسور نصبت اليوم ! – قالت بسرور ثم هرعت بسرعة لملاقاة سيدتها التي وثبت من فراشها ، فوضعت عليها سترةً ، وقدّمت لها خفاً صغيراً جداً . سحبت أولغا الدرج بسرعة وأخرجت منه شيئاً ما وضعته في يد كاتيا ، فما كان من الأخيرة إلا أن قبّلت يد سيدتها .

twitter @baghdad_library

فكلّ ذلك : الوثبة من الفراش ، ووضع قطعة النقود في يد كاتيا ، وتقبيل يد أولغا — تمّ في لحظة واحدة .

« آه ، غداً هو يوم الأحد : كم هذا مناسب ؟ سيأتي ! » — قالت أولغا متفكرة ، ثم ارتدت ملابسها بنشاط ، وتناولت الشاي بسرعة وذهبت مع عمتها الى المخزن .

— فلنذهب ياعمتي غداً الى كنيسة سمولني ، — قالت أولغا .

اتسعت عينا عمتها قليلاً ، ثم فكرت ، وقالت :

— ربما نفعل ذلك ، لكنها بعيدة ياعزيزتي ! كيف خطر لك ذلك . خاصةً في مثل هذا الشتاء !

خطر ذلك ببال أولغا ، لأنّ أبلوموف دلّها على تلك الكنيسة عندما كانا في القارب ، متملكتها الرغبة بأن تصلّي فيها من أجله ، كي يمنحه الله الصحة والسعادة ، ولكي يزداد حبه لها رسوخاً ، ومن أجل أنْ يضع الله حدّاً لتردّده . . . مسكينة أولغا !

أقبل يوم الأحد . استطاعت أولغا أنْ تُعِدّ الغداء حسب مذاق أبلوموف .

ارتدت أولغا فستاناً أبيض ، ووضعت السوار ، الذي أهداها إياه على معصمها ، وسرّحت شعرها بالطريقة التي يحب ، وأعدّت البيانو وجرّبت أنْ تغني منذ الصباح أغنية العذراء الطاهرة . كان صوتها رنّاناً عذباً ، كما كان تماماً عندما غنّت في المنزل الصيفي . ثم أخذت تنتظر .

شاهدها البارون على هذه الحال ، وقال بأنها ازدادت جمالاً ، لكنها نحفت قليلاً

. فعدم توفر هواء القرية النقي ، والتغيرّ الذي طرأ على أسلوب حياتك هنا . قد أثرّ عليك بشكل ملحوظ — قال البارون — . فما يلزمك ياعزيزتي أولغا سيرغييفنا ، نسيم الحقول والقرية .

قبّل يدها بضع مرات ، لدرجة أنّ شاربيه المصبوغين قد تركا بقعة صغيرة على أصابعها .

أجل ، إنني بحاجة للقرية ، — أجابت أولغا متأملة : لكن جوابها لم يكن موجهاً اليه ، بل لأحد ما آخر .

— على ذكر القرية ، — أضاف البارون قائلاً ، — فإنّ قضيتك ستنتهي في الشهر المقبل ، وفي نيسان تستطيعين أنْ تذهبي الى أملاكك . صحيح أنها ليست كبيرة ، لكن موقعها رائع ! ستكونين مسرورة . ماأروع بيتك هناك ! ماأروع الحديقة ! يوجد جناح منه على رابية ستحبّينه .

المشهد يطلّ على النهر . . . إنك لاتتذكرين تلك الإطلالة ، فعمرك لم يكن يتجاوز الخامسة عندما انتقل والدك من هناك وأخذك معه .

— آه ، كم سأكون مسرورة ! — قالت أولغا . ثم استرسلت في التفكير .

« لقد تقرّر كل شيء الآن ، — فكرت أولغا ، — سنذهب الى هناك ، لكنه لن يعلم بذلك قبل أنْ . . . » .

twitter @baghdad_library

– في الشهر المقبل إذن يابارون ؟ – سألت بحيوية . – هل هذا صحيح ؟

– صحيح إنك رائعة بوجه عام ، لكنك تبدين اليوم أكثر روعة ، –قال البارون –، ثم ذهب الىعمتها. ظلت أولغامكانها وراحت تحلم بسعادتها القريبة ، لكنها قررت ألاّ تبوح لأبلوموف بهذا الخبر ، ولا بمخططاتها المستقبلية .

كانت تريد أنْ تتابع حتى النهاية كيف سيُحْدِثُ الحب تحوّلاً في روحه الكسولة ، وكيف سينفض عنه غبار الكسل والتردّد ، ويقف فرحاً مشدوهاً أمام سعادته القريبة . عندما يستلم ردّاً مُرْضياً من القرية فيركض إليها متألقاً مشرقاً ويضعه عند قدميها ، ثم يتسابقان الى عمتها ، وبعدها

بعدها ستقول له ، بأنّ لها قرية أيضاً ، وحديقة ، وجناحاً مطلاً على النهر ، ومنزلاً جاهزاً للسكن يمكنهماأنْ يذهبا إليه فوراً ، ومن ثم الى أبلوموفكا .

« كلا ، لاأريد جواباً مُرْضياً ، – تفكرت أولغا ، – لأنه سيتباهى عندئذ ولن يشعر بالسرور عندما سيعرف أنّلديّ منزلاً وحديقة. كلا ، من الأفضل أنْ يستلم رسالة مزعجة . غير سارة ، يخبره فيها مرسلها بضرورة ذهابه شخصياً الى القرية لتنظيم شؤونه .

فيذهب ألى أبلوموفكا مندفعاً . ويصدر أوامره بسرعة ، كيفما اتفق ، فينسى الكثير من الأمور الهامة ويعود بسرعة ، ثم يعرف فجأة ،

بأنّ ذهابه الى أبلوموفكا لم يكن ضرورياً . فهي تملك حديقة وجناحاً مُطِلاً على النهر ومنزلاً جاهزاً للسكن ، يمكنهما العيش فيه دونما حاجة لأبلوموفكا . . . أجل ، أجل ، فهي لن تخبره بذلك مهما كلف الأمر ، وستتمالك نفسها حتى النهاية ، فليسافر الى هناك ، فليتحرك ، فلينتعش ، فليبذل الجهد من أجل السعادة المقبلة ! لكن ، لماذا أُرسله الى القرية لنبتعد عن بعضنا ؟ كلا ، فعندما يأتي لوداعها شاحباً حزيناً ، وهو يرتدي ثياب السفر ، عندها ستقول له فجأة بأنْ لاداعي للسفر قبل حلول الصيف : فيسافران عندئذ معاً . . . » .

هكذا كانت أولغا تحلم ، ثم هرعت إلى البارون ، وحذّرته بأسلوب لبق كي لايخبر الأمر لأحد قبل الأوان ، فأجابها بأنه لن يقول شيئاً لأيّ كان . كانت أولغا تعني بعبارة أيّ كان ، أبلوموف طبعاً .

— لكنْ ، هل يمنع أنْ أخبر المسيو أبلوموف فقط

تمالكت أولغا نفسها وقالت بلا اكتراث :

— كلا ، الأمر ينطبق عليه أيضاً .

— أنت تعرفين ، انّ رغبتك هي بمثابة قانون بالنسبة لي . . . — أضاف البارون بلطف .

لم تكن أولغا بدون دهاء ، فاذا ماأرادت أنْ ترمق أبلوموف بنظرة في وجود الضيوف ، فانها تنظر أولاً وبالتأكيد الى ثلاثة آخرين ، ثم تنظر إليه بعد ذلك .

كم من التصورات داعبت مخيلتها — من أجل أبلوموف ! كم مرة

twitter @baghdad_library

احمرّت وجنتاها ! كم مرّةً جرّبت فيها مفاتيح البيانو ، لتتأكد من سلامة دوزنته ، كي تخرُجِ الألحان رائعة ! ومع ذلك لم يأت ! ماذا يعني ذلك ؟

مضت ساعتان ، ثلاث ، أربع – لكنه لم يأت – ! في الساعة الرابعة والنصف بدأ جمّال أولغا يبهت : أخذت تذبل بشكل ملحوظ ، ثم جلست الى الطاولة وقد امتقع وجهها .

لكنّ الآخرين لم يلاحظوا شيئاً – كانوا يأكلون الأطعمة ، التي أعدّت خصيصاً من أجل أبلوموف ، ويتحدثون بسرور وعدم مبالاة .

انقضى الغداء ، وأقبل المساء ، لكنه لم يأت . حتّى الساعة العاشرة ، كان اضطرابها ناجماً عن الأمل والقلق : في الساعة العاشرة مضت الى حجرتها .

في البداية ، صبّت على رأسه ، ذهنياً ، كل المرارة وخيبة الأمل ، التي عصرت قلبها : فلم تترك كلمة سخرية مرّة ، يذخر بها قاموس مفرداتها ، إلا واستخدمتها ذهنياً ضده .

أحسّتْ ، كأنّ جسدها كله يحترق ، ثم شعرت بعد ذلك بأنه أصبح بارداً كالثلج .

« إنه مريض ، إنه وحيد هناك ، حتى انه لايستطيع الكتابة ، فقد أعياه المرض . . . » – التمعت في ذهنها هذه الأفكار .

تملكتها هذه القناعة تماماً ولم تستطع النوم طوال الليل . كانت تغفو غفوات قصيرة متقطعة وتستيقظ قلقة مضطربة ، ثم تعود لتنام قليلاً ، ثم

تهذي وتستيقظ من جديد ملهوفة متعبة . ومع أنها كانت ممتقعة شاحبة عندما استيقظت في الصباح . إلا أنها بدت هادئة ثابتة العزم .

في صباح يوم الإثنين دخلت صاحبة البيت حجرة أبلوموف وقالت : هناك فتاة تسأل عنك .

— عني ؟ مستحيل ! — أين هي ؟

— انها موجودة هنا : فقد أخطأت ، ودخلت عتبتنا . أأسمح لها بالدخول ؟

لم يكن أبلوموف يعرف بعد ، ماسيتخذ من قرار ، عندما رأى كاتيا قد أصبحت امامه . فما كان من صاحبة البيت إلا أن انصرفت .

— كاتيا ! — قال أبلوموف بدهشة . — كيف حالك ؟ ماذا جرى ؟

— سيدتي هنا ، — أجابت هامسة . — طلبت مني أن أسأل . . .

تغيّرت ملامح أبلوموف

— أولغا سيرغييفنا ! — همس أبلوموف مذعوراً . — ليس صحيحاً ياكاتيا ، هل تمزحين ؟

لاتعذبيني !

— أقسم ، أنّ ماأقوله صحيح : إنها في العربة.تنتظر عند المخزن ، فهي تريد القدوم الى هنا . أرسلتني لأقول لك ، بأنْ ترسل زاخار الى مكان ما خارج البيت . فهي ستصل بعد نصف ساعة .

— من الأفضل أن أذهب بنفسي . كيف يمكنها المجيء الى هنا ؟ — قال أبلوموف .

twitter @baghdad_library

— لن تلحق : فهي ستصل بين لحظة وأخرى ، إنها تعتقد بأنك مريض . وداعاً . سأذهب إليها حالاً : فهي تنتظرني هناك لوحدها . . .

ثم انصرفت كاتيا .

ارتدى أبلوموف بسرعة غير معهودة السترة وربطة العنق ، وانتعل حذاءه ثم صاح لزاخار .

— زاخار ، لقد رجوتني منذ فترة غير بعيدة بأنْ تذهب الى الجهة الأخرى من النهر ، لزيارة المنزل الذي كنا نسكن فيه ، في شارع غوروخف ، اذهبِ الآن ! قال أبلوموف باضطراب محموم .

— لن أذهب ، — أجاب زاخار بحسم .

— كلا ، اذهب ! — قال أبلوموف باصرار .

— ماذا أفعل هناك في مثل هذا اليوم ؟ لن أذهب ! — قال زاخار بعناد ،

— اذهب وروّح عن نفسك ، ولاتعاند ، فأنا أريدك أنْ تكون مسروراً . . .

هيّا ، اذهب الى أصدقائك !

— دعني من أصدقائي !

— ألاترغب بأنْ تراهم ؟

— إنهم أنذال ، لاأريد أنْ أراهم الآن !

— هيا ، اذهب ، اذهب ! — أصرّ أبلوموف وقد بدا عليه التهيّج

– كلا ، سأمضي اليوم كله في البيت ، ربما سأذهب إليهم يوم الأحد ! – أجاب زاخار بشيء من عدم الإكتراث .

– اذهب الآن فوراً ! – استعجله أبلوموف باضطراب – ينبغي عليك أنْ . . .

– تريد أنْ أقطع الآن سبعة فراسخ ؟ – قال زاخار .

– هيا ، اذهب وتنزّه ساعتين من الزمن : انظر الى نفسك ، فسحنتك يبدو عليها النعاس . اذهب واستنشق الهواء !

– سحنتي عادية لاتختلف عن سحنات الآخرين ! – قال زاخار وهو ينظر الى النافذة بكسل .

« آه يا إلهي ، لم يبقَ على وصولها إلا القليل ! » – أسرّ أبلوموف لنفسه ، وهو يمسح العرق عن جبينه .

– اذهب من فضلك ، وتنزّهْ بعض الوقت ، أرجوك ! خذ هاتين القطعتين النقديتين واشرب بيرة مع صاحبك .

– من الأفضل أنْ أبقى عند العتبة هنا : الى أين سأذهب في صقيع كهذا ؟ سأجلس هنا ، عند البوّابة ، فهذا ما أستطيع أنْ . . .

– كلا ، ستذهب الى مكان أبعد من البوّابة ، – قال أبلوموف بحيوية ، – اذهب الى الشارع الكائن على الجهة اليسرى من الحديقة .

« ماأغرب ذلك ! – تفكّر زاخار ، – يرغمني بأنْ أتنزّه ، هذا أمر جديد ، لم يحدث من قبل » .

– من الأفضل أنْ أتنزّه يوم الأحد ياسيدي

twitter @baghdad_library

- ألن تذهب ؟ — قال أبلوموف بغيظ . وقد نفذ صبره .
انصرف زاخار أما أبلوموف فنادى أنيسيا .

— اذهبي الى السوق ، — قال أبلوموف مخاطباً أنيسيا ، — واشترِ شيئاً ما من أجل الغداء . . .

— لقد اشتريت كل شيء من أجل الغداء . سيكون الغداء جاهزاً قريباً . . . . . — تكلمت من أنفها .

— اسكتي واسمعي ! — صاح أبلوموف ، فخافت أنيسيا .

— اشترِ . . . ولو هليون . . . — تابع أبلوموف . وهو لايعرف ماذا يبتكر من ذريعة ، كي يرسلها الى السوق .

أين أعثر على الهليون في هذا الوقت ياسيدي ؟ فلن أجده مهما بحثت . . . .

- اذهبي ! — صرخ أبلوموف فولّت أنيسيا هاربة — إياك أنْ تعودي قبل الساعة الثانية .

— ماهذه الأعجوبة ؟ ... قال زاخار لأنيسيا ، — وقد التقاها صدفةً عند البوابة — .

طردني لأتنزّه ، وأعطاني قطعتين نقديتين . الى أين أذْهب لأتنزّه ؟

- هذا أمر يخصّ سيدي ، — لاحظت أنيسيا — . اذهب الى أرتيم سائق الكونت وقدّم له الشاي على حسابك ، فهو يدعوك دائماً لتناول الشاي ، أما أنا فسأذهب الى السوق .

— ماهذه الأعجوبة ياأرتيم ؟ — قال زاخار له أيضاً . — لقد طردني كما أعطاني نقوداً لأشرب بيرة . . .

— حسن يازاخار ، هيا بنا !

— أومأ لزاخار برأسه كي يذهبا الى شارع بالقرب .

— هيا ! كرر زاخار وهو يشير برأسه أيضاً الى الشارع ذاته

— يالها من أعجوبة ! غمغم زاخار وهو يبتسم .

ذهب زاخار وأرتيم ، أما أنيسيا فركضت حتى وصلت الى سياج من الأغصان المجدولة ، وراحت تنتظر لترى ماسيحدث .

كان أبلوموف ينصت الى كل صوت وهو ينتظر . أحدٌ ما وصل إلى سياج المنزل ، فابتدأ في اللحظة ذاتها نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

— ياله من كلب ملعون ! صرّ أبلوموف على أسنانه . وخطف سدارته واندفع باتجاه السياج ، ففتح الباب وأخذ أولغا في أحضانه تقريباً حتى العتبة .

كانت لوحدها . أما كاتيا فقد ظلت تنتظرها في العربة بالقرب من البوّابة .

— كيف صحتك ؟ هل أنت مريض ؟ ماذا جرى لك ؟ — سألت أولغا بسرعة ولهفة . دون أنْ تنزع قبعتها أو معطفها وأخذت تتفحصه من قدميه حتى رأسه عندما دخلا الحجرة .

— لقد تحسنت الآن ، فالورم زال من رقبتي تماماً . — قال أبلوموف وهو يتلمّس رقبته ، ثم سعل سعالاً خفيفاً .

twitter @baghdad_library

ـ لماذا لم تأتِ البارحة ؟ ـ سألت أولغا ، وهي تلقي عليه نظرة ثاقبة مستطلعة ، فلم يستطع أنْ ينطق كلمة واحدة .

ـ أولغا ، كيف أقدمت على مثل هذا التصرف ؟ ـ قال أبلوموف بهلع ـ. هل تدركين ماتفعلين . . .

ـ سنتحدث عن هذا فيما بعد ! ـ قاطعت أولغا بفارغ الصبر ـ . أسألك لماذا لم تأت ؟

صمت أبلوموف .

ـ هل ظهر شحاذ العين ؟ ـ سألت أولغا

ظلّ أبلوموف صامتاً .

ـ لم تكن مريضاً ، ولم تؤلمك رقبتك ، ـ قالت أولغا وهي تقطّب حاجبيها .

ـ لم أكن مريضاً ، ـ أجاب أبلوموف بصوت تلميذ .

ـ خدعتني ! ـ نظرت إليه بدهشة . ـ لماذا ؟

ـ سأشرح لك كل شيء ياأولغا ، ـ قال مبرّئاً نفسه ، ـ هنالك سبب هام منعني من الذهاب إليك فترة اسبوعين . . . كنت أخشى . . .

ـ ماذا كنت تخشى ؟ ـ سألت أولغا وهي تجلس وتنزع قبعتها ومعطفها .

أخذ المعطف والقبعة ووضعهما على الاريكة .

ـ الأقاويل والإشاعات . . .

— لم تخش بأنني لم أنم الليل كله فقد كدت أنْ أمرض ، — قالت أولغا وهي تلقي عليه نظرة فاحصة .

— إنك لاتعرفين ياأولغا ، ماذا يجري هنا ، — قال أبلوموف وهو يشير الى قلبه ورأسه ، — فأنا قلق مضطرب ، كأني على نار . ألا تعرفين ماذا جرى ؟

— ماذا جرى أيضاً ؟ — سألت ببرود ؟

— ذهبت الأقاويل مذهباً بعيداً عنّي وعنك ! لم أكن أريد ازعاجك وخشيت أنْ أراك .

روى لها كل ماسمعه من زاخار وأنيسيا ، وتذكر حديث الشابين أثناء حفلة الأوبرا ، ثم ختم كلامه قائلاً بأنه لايعرف طعم النوم منذ ذلك الوقت ، وانه يرى كل نظرة استفساراً ولوماً ، أو تلميحات خبيثة ماكرة الى لقاءاتهما .

— لكننا قررنا أنْ نعلن خطوبتنا أمام عمّي في هذا الأسبوع ، — اعترضت أولغا ، — فلا بد أنْ تنتهي هذه الأقاويل . . .

— أجل ، لكنني لم أكن أرغب بأنْ أتحدث الى عمتك قبل هذا الأسبوع ، وقبل أنْ أستلم ردّاً من القرية على رسالتي . فأنا أدرك بأنها لن تسأل عن حبي ، بل عن أملاكي ، وستدخل في تفصيلات حول هذا الموضوع ، في الوقت الذي لاأستطيع أنْ أوضح شيئاً ، قبل استلام جواب من وكيلي في القرية .

تنهدت أولغا .

twitter @baghdad_library

– لولا معرفتي الدقيقة بك ، – قالت متأملة ، – الله وحده يعلم ماذا كنت سأفكر . فأنت تخشى أقاويل الخدم عنّا ، لكنك لاتخشى أنْ تسبّب لي الإزعاج ! لم أعد أقدر على فهمك .

– اعتقدتْ بأنّ ثرثرتهم ستزعجك . الله وحده يعلم ماذا تقول كاتيا ومارفا ، الله وحده يعلم ماذا يقول سيميون وهذا الأحمق نيكيتا .

– أعرف مايقولون ، منذ زمن بعيد ، – قالت أولغا بعدم اكتراث.

– تعرفين ؟ كيف ؟

– كاتيا ومربيتي أخبراني بذلك منذ زمن بعيد ، فسألاني عنك وقدّما لي التهنئة .

– هل قدّما لك التهنئة حقاً ؟ – سأل أبلوموف برعب – وماذا قلت ؟

– شكرتهم على التهنئة ، أهديت مربيّتي شالاً ، وقد وعدت بأنها ستذهب الى سيرغي سيراً على الأقدام . لقد تعهدتْ أنْ تُزَوِّجَ كاتيا من صانع الحلوى : فهي مغرمة به . . .

نظر أبلوموف إليها بعينين مذعورتين مندهشتين .

– تواجدك يومياً عندنا أمر طبيعي جداً ، – أضافت أولغا – أما أقاويل الناس ، فليست هذه هي المرة الأولى ، التي يحدث فيها مثل هذا الأمر . فقد حدث هذا مع سونيتشكا أيضاً : ماالذي يخيفك ؟

– لماذا ظهرت هذه الأقاويل ؟ – قال أبلوموف وهو يمطّ في الكلام .

— وهل هي بدون أساس ؟ أليست حقيقة ؟

— إنها حقيقة ! — كرّر أبلوموف بطريقة لاتنمّ عن التساؤل أو النفي . —

أجل — أضاف بعد ذلك . — في الواقع . أنت على صواب : لكنني لاأريد فقط أن يعرفوا شيئاً عن لقاءاتنا ، هذا ماأخشاه . . .

— تخاف . ترتجف كالطفل . . . لاأفهمك ! وهل أنت تسرقني ؟

شعر بالحرج . أما أولغا فكانت تنظر إليه باهتمام .

— اسمع ، — قالت أولغا . — يوجد بعض الكذب هنا ، فأنا لاأشعر بصراحتك الآن . . . هيّا ، قل كل ماتشعر وتفكر به . كان بامكانك أنْ تنقطع عن الذهاب — إلينا يوماً ، يومين — أسبوعاً على أكثر تقدير ، من باب الحذر ، لكن ، كان ينبغي أنْ تخبرني ، أو تكتب لي . فأنت تعرف . بأنني لم أعد طفلة ، وليس من السهل أنْ تخدعني بكلامك . ماذا يعني ذلك كله ؟

أخذ يفكر ، ثم قبّل يدها بعد ذلك وتنهد

— إليك ماأفكر به ياأولغا . — قال أبلوموف ، — كنت أشعر طوال هذا الوقت بالخوف عليك ، فقد تعب ذهني من كثرة التفكير بك وبمشاغلنا وهمومنا المشتركة ، وامتلأ قلبي ألماً من الآمال والتوقعات المتحققة تارة ، والضائعة تارة أخرى ، فجسدي كله منهك مزعزع : فقد تخدّر ، وهو يبحث عن هدوء ولو مؤقت . . .

twitter @baghdad_library

ـ لماذا لم يتخدّر جسدي ؟ لماذا أبحث عن الهدوء والراحة بالقرب منك فقط ؟

ـ قواك فتية راسخة ، فأنت تحبين بهدوء ووضوح ، أما أنا . . .

لكنك تعرفين كم أحبك ! ـ قال أبلوموف وهو ينزل الى الأرض ويقبل يديها .

ـ كلا ، فأنا لاأعرف إلا القليل ، ـ فأنت غريب لدرجة أنني أضيع في تصوراتي . فذهني وأملي ينطفئان . . . قريباً سنكون عاجزين عن فهم بعضنا بعضاً : عندها سيصبح الوضع سيئاً ! ثم صمتا .

ـ ماذا كنت تفعل طيلة هذه الأيام ؟ ـ سألت أولغا وهي تتفحص الغرفة بعينيها للمرّة الاولى.ـ سكنك غير مريح : فالسقف منخفض جداً ! النوافذ صغيرة والدهان قديم . . . أين الغرف الأخرى ، التي تسكنها ؟

سرعان مابدأ أبلوموف يريها الغرف الأخرى ، كي يغيّر موضوع الحديث ، عما كان يفعله طيلة هذه الأيام . بعد ذلك جلست أولغا على الأريكة ، بينما جلس أبلوموف على الأرض عند قدميها .

ـ ماذا كنت تفعل طيلة الأسبوعين الماضيين ؟ ـ سألت أولغا مستجوبة .

ـ كنت أقرأ ، وأكتب ، وأفكر بك .

ـ هل قرأت كتبي ؟ كيف وجدتها ؟ سآخذها معي .

أخذت أولغا كتاباً من على الطاولة ونظرت الى الصفحة ، التي كان مفتوحاً عليها : فوجدت أن الغبار يكسوها .

ـ أنت لم تقرأه ! ـ قالت أولغا .

ـ كلا ، أجاب أبلوموف .

نظرت الى الوسائد المدعوكة والى الفوضى ، التي تسود الحجرة ؛ نظرت الى النوافذ المغبرّة والى طاولة الكتابة ، فرتّبت بعض الأوراق ، التي كساها الغبار ، ثم حرّكت الريشة في المحبرة الجافة ونظرت إليه بدهشة .

ـ ماذا كنت تفعل ؟ ـ كررت أولغا ـ فأنت لم تكن تقرأ ولا تكتب . أليس كذلك ؟

ـ لم يكن لديّ متسع من الوقت ، ـ بدأ أبلوموف يتعثر في الكلام ، فما ان أنهض صباحاً ، حتى يبدأ ترتيب الغرف وتنظيفها ، الأمر الذي كان يمنعني من القراءة والكتابة . بعدها تبدأ الاحاديث عن الغداء . ثم يأتي طفلا صاحبة الشقة كي أصحح لهما بعض مسائل الحساب ، بعدها يدعونني الى الغداء . وبعد الغداء . . . كيف يمكن للمرء أن يقرأ ؟

ـ كنت تنام بعد الغداء ، ـ قالت أولغا بطريقة إيجابية ، الأمر الذي دفع أبلوموف ، بعد دقيقة من التردد بأنْ يجيب :

ـ كنت أنام . . .

ـ لماذا ؟

ـ كي لاأشعر بالوقت : كنت أشعر بالملل بسبب غيابك عني ، فالحياة لاتطاق بدونك ياأولغا . . . توقف أبلوموف عن الكلام ، بينما راحت أولغا ترمقه بنظرات صارمة .

twitter @baghdad_library

ــ إيليا ! ــ بدأت أولغا الكلام بمنتهى الجدّية . ــ أتذكر عندما قلت لي في الحديقة العامة ، بأنّ الحياة تضطرم في داخلك ، أتذكر عندما أكدت لي ، بأنني قد أصبحت هدف حياتك ومثالها الاعلى ، أتذكر عندما أمسكتني بيدي وقلت بأنني معبودتك ، أتذكر كيف أعطيتك موافقتي ؟

ــ وهل يمكن نسيان ذلك ؟ ألم يغيرّ ذلك مجرى حياتي ؟ ألا ترين ، كم أنا سعيد !

ــ كلا ، لاأرى ، لقد خدعتني ، ــ قالت أولغا ببرود ، ــ فأنت تسقط من جديد . . .

ــ خدعتك ! كيف تقولين هذا ؟ أقسم بأنني على استعداد لأنْ أرمي نفسي في الهاوية من أجلك !

ــ أجل ، قد تفعل ذلك لو أنّ الهاوية موجودة هنا ، تحت أقدامك في هذه اللحظة ، ــ قالت أولغا مقاطعة ، ــ لكن في حال تأجيل المسألة يومين أو أكثر ، فانك ستغيّر رأيك وتخاف . خاصّةً إذا مابدأ زاخار وأنيسيا يثرثران بصدد ذلك . . . هذا ليس حبّاً .

ــ هل تشكّين في حبيّ ؟ ــ بدأ أبلوموف الكلام بحرارة . ــ أتعتقدين بأنني أرجىء الأمور خوفاً على نفسي . لاخوفاً عليك ؟ إنني أحافظ على سمعتك واسمك أكثر من أي شيء في الوجود ، إنني أسهر عليك ، كما تسهر الأمّ على أبنائها لتحميهم من كلّ مكروه . . .

آه ياأولغا ! اطلبي براهين على ذلك ! أكرر لك ، بأنني على أتمّ

الإستعداد لأنْ أنسحب من حياتك بصمت ، إذا ما شعرت يوماً بأنّ سعادتك مع شخص آخر تفوق سعادتك معي ؛ إنيّ مستعد لأنْ أفديك بنفسي عندما يتطلّب الأمر ذلك ! — قال أبلوموف والدموع في عينيه .

— لاأحد يطلب ذلك ، فأنا لست بحاجة لما تقول ! لماذا أريد أنْ تضحي بحياتك ؟ افعل مايلزم . هذه حيل الناس الماكرين ، الذين يقترحون التضحيات غير الضرورية ، التي لايمكن لأحد أنْ يقبل بها ، كي يتفادوا فعل ماهو ضروري . إنني على ثقة بأنك لست ماكراً ، لكنْ . . .

— قد لاتعرفين مقدار حبي العميق لك ! — تابع أبلوموف . — لقد استحوذت على تفكيري ومشاعري منذ اللحظة التي عرفتك فيها . . . وها أنا ذا أكرر بأنّ هدفي الوحيد في الحياة هو أنت . بدونك لاأستطيع العيش ، بدونك سأصبح كالمجنون تماماً !

إنني أتنفس الآن ، وأنظر وأفكر وأشعر من خلالك . عجباً ، كيف تندهشين لأنني كنت أنام وأتهاوى في تلك الايام ، التي قضيتها بعيداً عنك ؟ كنت أشعر بالملل والكآبة بسبب غيابك عني ؛ كنت أسير كالآلة ، وأتصرّف دون أنْ ألاحظ ماكنت أقوم به . فأنت قوة ومحرك هذه الآلة . — قال أبلوموف وهو ينتصب جاثياً على ركبته .

كانت عيناه تتلألآن ، كما كان عليه الحال أيام لقاءاتهما في الحديقة ، فقد عاد الكبرياء وقوة الإرادة ينبعثان منهما من جديد .

— إني على استعداد لأنْ أذهب حيث تأمرين ، وأنْ أفعل ما تشائين . إنني أشعر بالحياة عندما تنظرين إليّ وتتحدثين وتغنّين . . .

twitter @baghdad_library

كانت أولغا تصغي بتأمل صارم الى تلك العواطف الصريحة التي يبديها .

— اسمعْ ياإيليا . — قالت أولغا ، — إنيّ أثق بحبك وقدرتك بالسيطرة على نفسك .

لماذا تخيفني بتردّدك وقلة حزمك ؟ لماذا توصلني الى درجة الشك ؟ كنت تقول لي بأني هدفك وغايتك . لكنك تسير نحو هذا الهدف بخجل وبطء ؛ مازالت هنالك مسافة طويلة عليك أنْ تجتازها ؛ يجب أنْ تصبح أكثر سمواً مني ومقدرة . فأنا أنتظر ذلك منك ! لقد رأيت كيف يحبّ الناس السعداء ، — أضافت أولغا وهي تطلق تنهيدة ، — فكل شيء يجيش ويغلي عندهم ، وسكينتهم لاتشبه سكينتك ؛ إنهم لايحنون رؤوسهم ، عيونهم مفتوحة دائماً . لاينامون إلا قليلاً . أوقاتهم زاخرة بالنشاط والحركة ! أما أنت . . . فلا تبدو بأنك تريد أنْ تجعل منيّ هدفاً لك .

أخذت تهز برأسها مبدية علامة الشك .

— أنت ، أنت ! . . . — قال أبلوموف وهو يقبّل يديها من جديد ويتململ عند قدميها . — أنت كل شيء بالنسبة لي ! ياإلهي ، أية سعادة تغمرني ! — قال كما لو أنه في حلم . — كيف تعتقدين ، بأنني يمكن أنْ أخدعك وأخيّب ظنك ! سترين ، وسيرى أندريي أيضاً ، — تابع أبلوموف وعيناه تشعّان بريقاً ، — كم سيجعلني حبك أحلّق عالياً ! انظري ، انظري إليّ : ألست منتعشاً في هذه اللحظة ؟ فلنذهب من

هنا ! هيّا ! هيا ! لاأستطيع أن أبقى لحظة واحدة هنا ، فأنا أشعر بالضيق والقرف في هذا المكان ! -- قال أبلوموف وهو يتطلع باشمئزاز حقيقي لما حوله . -- دعيني أستمتع اليوم بهذا الشعور الرائع . . . آه ، ليت نار الوجد تحرقني غداً ودائماً ، كما تحرقني الآن ! بدونك أخبو وأسقط ! لقد انبعثت الآن من جديد ، لقد انتعشت . يبدو لي ، أنني . . .

أولغا ، أولغا ! أنت درّة هذا العالم ، أنت أروع امرأة في هذا الكون أنت . . . أنت

وضع وجهه على يدها ثم همد . أما لسانه فقد توقف عن الكلام .

بعدها ، وضع يدها على قلبه كي يوقف اضطرابه ، ثم ألقى عليها نظرة شغوفة نديّة وأصبح بلا حراك .

« رقيق ، رقيق ، رقيق ! » -- أسرّت أولغا لنفسها وهي تتنهد ، لكنّ تنهيدتها هذه كانت تختلف عن تنهيداتها في الحديقة العامة ، ثم استغرقت في تفكير عميق .

-- حانَ أنْ نذهب ! -- قالت أولغا بلطف بعد أنْ صَحَتْ من تأملها .

صحا أبلوموف فجأة .

-- ياإلهي ، أنت هنا ! عندي ؟ -- قال أبلوموف ، ثم تغيّرت نظرته الفرحة فأصبحت خجولة مرتبكة وهو يتلفّت الى كل الجهات . لم تعد كلمات الوجد تنعقد على لسانه .

twitter @baghdad_library

خطف قبعتها ومعطفها بسرعة ، حتى انه كاد أنْ يضع المعطف ، بدلاً من القبعة على رأسها من شدة ارتباكه .

ضحكت أولغا .

-- لاتقلق بشأني ، — طمأنته أولغا ، — فعمتي غادرت البيت ليوم كامل ؛ أما مربيتي وكاتيا فهما الوحيدتان في البيت فقط ، اللتان تعرفان بمغادرتي المنزل .

مدّت إليه يدها مودعة ، ثم عبرت فناء المنزل بهدوء وبشعور من الإعتزاز بالنفس بالعفّة والبراءة ، دون أن تأبه لنباح الكلب ثم استقلت العربة ومضت .

ومن نوافذ شقة صاحبة المنزل أطلّت رؤوس تراقبها ، كما أطلّت أنيسيا برأسها عبر سياج الأغصان المجدولة .

وعندما انعطفت العربة في الشارع الآخر ، قدمت أنيسيا وقالت ، بأنها فتشت السوق كله فلم تعثر على الهليون ، أما زاخار فقد عاد بعد ساعات ثلاث ونام يوماً بكامله .

تمشى أبلوموف في الغرفة طويلاً دون أن يشعر بتعب في ساقيه،أو يسمع وقع خطواته .

ماان تلاشى صرير دواليب العربة على الثلج ، التي كانت تحمل حياته وسعادته ، — حتى زال اضطرابه ، واستقام ظهره وصفا ذهنه ، فأصبح وجهه متألقاً مشرقاً كما كان قبل لحظات . وبدأت عيناه تشعّان بريقاً وسعادة ورقة . أحسّ بحرارة تسري في جسده ، كما أحسّ

بالحيوية والنشاط . عاودته من جديد . الرغبة ، التي كانت تتملكه سابقاً ، بأنْ يسافر مع أولغا الى مكان ما بعيد ، الى هناك حيث يتواجد شتولتس . الى القرية والحقول والأحراش ؛ عاودته الرغبة بأنْ ينعزل في حجرته وينهمك في العمل ، ويسافر الى مرفأ ريبينسك ، ويقوم بشق الطريق الى هناك ، ويقرأ كل كتاب جديد يكون موضع اهتمام الناس ، ويذهب الى الأوبرا . . .

أجل . تملكته الرغبة بأنْ تأتي اليه . ويذهب إليها ، ومن ثم يذهبان الى دار الأوبرا معاً .

ماأروع أنْ يمضي المرء اليوم على هذا النحو ! ماأجمل أنْ يستنشق المرء عبق الحياه بوجود أولغا ، ويستمتع بأشعة ضيائها الساحر وقواها المتألقة ، وذهنها المرهف الوقاد ، الثاقب السليم ! كان يحس وكأنه يطير كما لو أنّ أحداً يحمله في الغرفة .

— الى الأمام ، الى الأمام ! — تقول أولغا ، — حلّقْ عالياً ، عالياً لتتصل الى تلك القمة ، التي تفقد فيها الرقة والانسجام حق الوجود ؛ لتتصل الى تلك القمة التي تبتدىء عندها مملكة الرجل !

كم ترى الحياة بوضوح ! كم تقرأ بسهولة ويسر في كتاب الحياة ، فتعرف طريقها بالفطرة ، بالغريزة ، وتدلّه على طريقه ! يجب أنْ تتّحد حياته وحياتها كما يتّحد نهران ، في حياة واحدة تكون القيادة فيها من نصيبه !

انها تدرك قواه ، وامكاناته ، وتعرف مايستطيع أن يفعل ، وتنتظر

twitter @baghdad_library

صاغرة سيطرته . كم هي رائعة أولغا ! انها رزينة جريئة بسيطة . لكنها ثابتة العزم ، طبيعية ، كالحياة ذاتها !

— ياله من مكان كريه حقاً ! — قال أبلوموف وهو يلتفت حوله الى أركان الغرفة — لقد جاء هذا الملاك الرائع الى هذا المستنقع . فأنارَهُ بوجوده !

— أخذ ينظر بشغف الى الكرسي الذي كانت تجلس عليه ، وفجأة لمعت عيناه : فقد شاهد على الأرض بالقرب من الكرسي قفازاً صغيراً .

— وديعة ! فأل ! آه ! . . . . — أخذ يئنّ بلهفة وهو يضع القفاز على شفتيه .

أطلّت صاحبة البيت برأسها من الباب ، واقترحت عليه أن يلقي نظرة على القماش الكتاني ، ليرى إن كان يرغب بشراء شيء منه .

لكنه شكرها ببرود ، ولم يفكّر بأنْ ينظر الى مرفقيها ، واعتذر بحجّة أنه مشغول جداً . بعد ذلك غاص في ذكريات الصيف مسترجعاً في ذهنه كل التفاصيل ؛ تذكر كل شجرة وغصن ومقعد ، تذكر كل كلمة قيلت ، فوجد ذلك كله أحبّ على نفسه وأكثر إمتاعاً له من الماضي الذي حدثت فيه هذه التفاصيل المحببة على قلبه .

-- لم يستطع أن يتمالك نفسه من شدة الفرح ، فأخذ يغنّي ويتحدث الى أنيسيا بلطف ، ويمازحها معاتباً بسبب عدم إنجابها حتى الآن . واعداً إياها بأنْ يعمّد طفلها بمجرد أنْ يولد .

أثار بعض الضوضاء أثناء مداعبته لماشا ، مما اضطر صاحبة البيت

لأنّ تطرد ماشا الى غرفتها ، كي لا تمنع الساكن عن « العمل » .

أمّا بقية اليوم فقد أضافت بعض التصرفات الجنونية . فأولغا كانت مسرورة ؛ غنّت بعذوبة ، وقصدت دار الأوبرا بعد ذلك بصحبة أبلوموف ، أما إيليا إيلييتش فتناول الشاي في منزل أولغا ، حيث جرى أثناء الشاي حديث ودي صادق بينه وبين أولغا وعمتها والبارون ، لدرجة أنّ أبلوموف شعر تماماً ، بأنه اصبح عضواً حقيقياً في هذه الأسرة الصغيرة . كفى العيش وحيداً : فقد أصبح لديه الآن ركن يلجأ اليه بسرور ، أصبح يملك الدفء والضياء — ماأروع العيش في ظروف كهذه !

لم ينم في الليل إلا قليلاً : كان يكمل قراءة الكتب ، التي أرسلتها أولغا ، فقد قرأ مجلداً ونصف .

« يجب أن تصل الرسالة من القرية غداً » ، — تفكر أبلوموف ، وأصبح قلبه يخفق . . . ويخفق . . . .

— ٨ —

في اليوم التالي ، عثر زاخار وهو يرتب الغرفة على قفاز صغير وجده على طاولة الكتابة ؛ نظر إليه طويلاً ، ثم ضحك ، وأعطاه بعد ذلك لأبلوموف . — لابد أنْ تكون الآنسة إيلينسكايا قد نسته ، — قال زاخار .

— تباً لك من شيطان ! — انفجر إيليا إيلييتش وهو ينتزع القفاز من يدي زاخار . — أنت تكذب ! ومااللذي يجيء بالآنسة إيلينسكايا الى هنا !

twitter @baghdad_library

لقد جاءت الخيّاطة الى هنا لتقيس قميصاً لي . كيف تجرؤ على ابتكار ماتقول !

– شيطان ؟ أبتكر ؟ الحديث يدور حول ذلك في غرفة صاحبة الشقة . . .

– ماذا يقال ؟ – سأل آبلوموف

– يقال بأنّ الآنسة إيلينسكايا كانت هنا مع فتاة . . .

– (مذعوراً) ياإلهي ! – كيف عرفوا أنّ الآنسة إيلينسكايا كانت هنا ؟

لابد أنّ الثرثرة قد صدرت عنك أو عن أنيسيا . . .

أطلّت أنيسيا برأسها فجأة من غرفة الانتظار .

– زاخار تروفيميتش ، كيف تجرؤ على قول ترّهات كهذه ؟ لاتصغِ إليه ياسيدي ، – قالت أنيسيا ، – فلا أحد قال شيئاً ، ولايعرف شيئاً ، إنني أقسم على ذلك . . .

– كفى ، كفى ، كفى ! صاح زاخار بصوت أجش ، مهدّداً أنيسيا بحركة من مرفقه باتجاه صدرها . – لاتحشري نفسك .

اختفت أنيسيا . هدد أبلوموف بقبضتي يديه زاخار ، ثم فتح بسرعة الباب المفضي الى القسم الذي تسكنه صاحبة الشقة . كانت أغافيا ماتفييفنا جالسة على الارض ترتّب بعض الملابس القديمة وتفرزها في صندوق قديم ؛ بالقرب منها توجد أكوام من الخرق والفساتين القديمة والأزرار وقصاصات من الفراء .

– اسمعي . – بدأ أبلوموف الكلام بلطف ، لكن باضطراب . – خدمي يثرثرون ويتفوّهون بترّهات مختلفة . أستحلفك بالله ألا تصدّقي مايقولونه .

– لم أسمع شيئاً ، – قالت صاحبة الشقة . – ماذا يثرثرون ؟

– إنهم يتحدثون عن زيارة البارحة ، – تابع أبلوموف ، – ويزعمون أنّ إحدى الآنسات قد جاءت الى هنا . . .

– وما علاقتي بمن يأتي لعند المستأجر ؟ – قالت صاحبة الشقة .

– أرجوك ، لاتصدقيهم : إنها لتهمة باطلة تماماً ! لم تحضر الى هنا أية آنسة : فقد قدمت الى هنا خيّاطة تخيط قميصاً لي . جاءت لتقيسه .

– أين تفصّل قمصانك ؟ من يخيطها لك ؟ – سألت صاحبة الشقة بحيوية .

– في المخزن الفرنسي . . .

– أرني كيف تبدو عليك : أعرف فتاتين تجيدا الخياطة : درزة القميص ، التي تقومان بها تعجز عن فعلها أية فرنسية . لقد رأيت كم هي رائعة ومتقنة خياطتهما ، فهما يخيطان للكونت متلينسكي قمصانه : مامن أحد يخيط مثلهما ، أين خياطة قمصانك من خياطتهما .

– حسن . حسن جداً ، سأتذكر ذلك . كل ماأريده منك هو ألاّ تظني بأنّ الآنسة كانت هنا .

– ماعلاقتي بمن يأتي لعند المستأجر ؟ حتى ولو كانت الآنسة . . .

twitter @baghdad_library

— كلا ، كلا ! — نفى أبلوموف . — عفوك ، فالآنسة التي يتحدث زاخار عنها ، فارعة القدّ ، تتكلم بصوت جهوري ، أما الخيّاطة هذه . فتتكلم بصوت رقيق : رنة صوتها رائعة . أرجوك ، لاتظني بأن . . .

— ماعلاقتي بذلك كله ؟ — قالت صاحبة الشقة في اللحظة ، التي كان ينصرف فيها أبلوموف — لاتنسَ بأنْ تقول لي عندما تحتاج لخياطة قميص : أعرف فتاتين تقومان بدرزة لامثيل لها — . . . اسم إحداهما اليزابيت نيكولايفنا . والأخرى ماريا نيكولايفنا .

— حسن ، حسن . لن أنسى ، أرجوك ، لاتظني بأنّ . . .

ثم انصرف ، فارتدى ثيابه وبعد ذلك ذهب الى أولغا .

لدى عودته مساءً وجد على الطاولة رسالة من القرية ، أرسلها له جاره المكلف بالإشراف على أموره هناك . اندفع أبلوموف صوب المصباح ، فقرأ الرسالة واستسلم لليأس .

« أرجوك غاية الرجاء بأنْ تكلف شخصاً آخر غيري بالإشراف على شؤونك (كتب جاره) ، لأنّ الاعمال كثيرة عندي لدرجة أني أصارحك القول بعجزي عن متابعة الإشراف على أملاكك كما ينبغي . من المستحسن أنْ تأتي الى هنا بنفسك ومن الأفضل أيضاً أن تقيم في أملاكك . عقاراتك جيدة . لكنها مهملة جداً . قبل كل شيء يتوجب عليك توزيع السخرة وتنظيمها ؛ بدونك يستحيل فعل ذلك : فالفلاحون مدللون كثيراً . ولايطيعون وكيلك الجديد . أما وكيلك القديم فمحتال غشاش . تجب مراقبته .

لايمكن تحديد مقدار دخلك . من المشكوك فيه أنْ يتجاوز دخلك في ظلّ الفوضى الراهنة أكثر من ثلاثة آلاف روبل ، حتى في حال وجودك. المقصود هنا طبعاً . هو دخلك من الحبوب . أما الأمل المعقود على دخلك من الريع الإقطاعي فهو ضعيف : فالأمر يتطلب التعامل مع الفلاحين بحزم من أجل جباية الضرائب المستحقة عليهم — الأمر الذي يتطلب ثلاثة أشهر . أسعار الحبوب جيدة ويمكنك أنْ تحصل على النقود في آذار أونيسان ، اذا أشرفت بنفسك على عملية البيع . في الوقت الراهن لايوجد قرش واحد . بالنسبة للطريق . فقد قررنا ، أنا ، وأدونتسف وبيلا فودوف ، بعد أنْ انتظرناك وقتاً طويلاً جداً ، دون أن يأتي ردّ منك ، بأنْ تمرّ بنيلكي . الأمر الذي يعني بأنّ أبلوموفكا ستكون بعيدة عنها. واخيراً أكرر رجائي بأنْ تشرّفنا بالمجيء الى هنا بأسرع مايمكن : إذ يمكنك خلال ثلاثة أشهر تحديد ماأنت بحاجة إليه في السنة المقبلة .

بالمناسبة . الآن وقت الإنتخابات : ألا تريد أنْ ترشح نفسك الى منصب قاضٍ على مستوى المقاطعة ؟ أَسْرِعْ وقرِّرْ ، بيتك سيّء جداً (أضيف في آخر الرسالة) . لقد أمرتُ الحوذي العجوز وامرأتين أخريين بأنْ يتركا المنزل ويذهبا الى مكان آخر : لأنّ البقاء فيه ،غاية في الخطورة » .

هنالك ملحق بالرسالة يتضمّن كمية المحصول من الحبوب ،

twitter @baghdad_library

والكميات المخزونة منها والكمية المخصّصة للبيع ، الى آخر ماهنالك من تفصيلات أخرى تتعلق بالمحصول .

« لايوجد قرش واحد . ثلاثة أشهر . أنْ تأتي بنفسك ، أنْ تنظم أمور الفلاحين . أنْ تحدد مقدار الدخل ، أنْ ترشح نفسك للإنتخابات . هذه الأمور كلها ، كانت تتجمّع حول أبلوموف كالأشباح . كان وضع أبلوموف يشبه حال من وجد نفسه ليلاً في غابة ، وهو يتخيّل أنّ في كل غصن وشجرة ، قاطع طريق ووحشاً مفترساً وأحد الأموات .

— إنّ هذا لمعيبٌ حقاً : لن أستسلم ! — أصرّ أبلوموف ، وهو يحاول التعرّف على هذه الأشباح ، تماماً كما يحاول الجبان أنْ يتشجّع بالنظر إلى الأشباح عبر جفنين مسدلين مغمضين ، فيشعر بالبرد في قلبه فقط ، وبالضعف في يديه وساقيه .

ماذا كان يأمل أبلوموف ؟ كان يعتقد بأنّ الرسالة ستتضمن بالتحديد مقدار الدخل ، الذي سيتلقّاه ، أي أكبر كمية ممكنة من النقود ، ولنقل ستة آلاف أو سبعة آلاف . كان يعتقد بأنّ البيت لايزال جيداً صالحاً لسكناه ، حتى يبني آخر جديداً ؛ كان يعتقد بأنّ معتمده في القرية سيرسل له ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف روبل ، — باختصار ، كان أبلوموف يأمل بأنْ تكون الرسالة زاخرة بالمرح والحب واستجابة الحياة له ، أي كما كان يقرأ في رسائل أولغا تماماً .

لم يعد أبلوموف يتمشى في الغرفة مرحاً ، لم يعد يمازح أنيسيا ، لم يعد

يمنّي نفسه بأحلام السعادة الواعدة : فقد أصبح لزاماً عليه أنْ يؤجّل سعادته ثلاثة أشهر أخرى ، لا بل أكثر ! فالأشهر الثلاثة لاتكفي إلا لتنظيم شؤونه وتدبير أملاكه ، أما العرس . . .

— يستحيل أنْ أفكّر بالعرس قبل سنة على أقلّ تقدير ، — قال أبلوموف بهلع ، — أجل ، أجل ، بعد سنة ، لاقبل ! يجب عليه أنْ يكمل مخطّطه ويقرر الأمور نهائياً مع المهندس المعماري ، وبعدها . . . بعدها . . . — ثم تنهّد .

« أستدين ! » — لمعت في ذهنه هذه الفكرة ؛ لكنه مالبث أنْ استبعدها .

« كيف يمكن ذلك ! وإذا لم أسدّد في الوقت المحدد ؟ فقد تسير الأمور بشكل سيء . وعندئذ سيرفعون دعوى بحقي . فتتلطخ سمعة أبلوموف التي مازالت حتى الآن . نظيفة . مصونة . . . » — اللهمّ احفظني من ذلك ! عندئذ ، وداعاً أيها الهدوء . وداعاً أيتها العزة . . . لا ، لا ! الآخرون يستدينون . لكنهم لايتوقّفون عن العمل بعد ذلك ، كأنّ مارداً قد انطلق في داخلهم . فالدَّيْن هو المارد ، هو العفريت الذي لايتخلّص الإنسان منه إلا بالنقود !

يوجد أناس يعيشون حياتهم كلها على حساب الغير . يأخذون من هنا وهناك ، ولاتهتزّ لهم شعرة ! كيف يستطيعون النوم بهدوء . كيف يتناولون طعام الغداء — فذلك أمر لايمكن فهمه ! الدَّين نتائجه مضنية . عمل دائم قاس . أو فضيحة .

twitter @baghdad_library

ماذا يعني تنظيم قريتي ؟ أليس ذلك هو الواجب المرهق . الذي لايرحم ؟ أجل ، إنّ مايعنيه ذلك . هو أنْ أنفق الأموال كل عام ، دون أنْ يتبقّى منها شيء لمواجهة أعباء الحياة .

لقد ابتعدت السعادة سنة أخرى ! بدأ أبلوموف يئنّ بألم ، ثم سقط على السرير ، لكنه مالبث أن ثاب الى رشده فجأة ثم نهض . لكن ماذا قالت أولغا ؟ ألمْ تناده كرجل . ألم تبدِ ثقتها بقواه. انها تنتظر منه أنْ يسير الى الأمام ويحلّق عالياً ليصل الى تلك القمة المرتفعة . فيمدّ لها يده ويقودها ويدلّها على الطريق !

أجل ، أجل ! لكن من أي شيء يبدأ ؟

أخذ يفكر ويفكر ، ثم ضرب جبينه فجأة ودخل الى القسم ، الذي تسكنه صاحبة الشقة .

— هل أخوك في البيت ! — سأل أبلوموف صاحبة البيت .

— نعم ، لكنه نائم .

— أرجوك أنْ تبلغيه ليأتي إليّ غداً ، فأنا بحاجة لأنْ أراه .

— ١٠ —

دخل أخوها الى الحجرة بأسلوبه المعهود ذاته ، وجلس على الكرسي بحذر ، ثم أخفى يديه في كمّه ، وراح ينتظر ماسيقوله إيليا إيليتش .

— استلمتُ رسالة مشؤومة من القرية ، ردّاً على وثيقة التوكيل ، التي أرسلتها— ألا تذكر ؟ — قال أبلوموف . — تفضّلْ واقرأها .

بدأ إيفان ماتفييتش يتصفح بعينيه سطور الرسالة ، التي كانت تهتزّ

بين أصابعه . وبعد أنْ أنهى قراءتها ، وضعها على الطاولة ثم أخفى يديه خلف ظهره .

— ماذا تقترح عليّ أنْ أفعل .

— ينصحونك بالسفر الى هناك ، — قال إيفان ماتفييتش . — المسألة ليست صعبة :

المسافة ألف ومئتا فرسخاً ، فبامكانك أنْ تسافر .

— لقد أقلعت عن السفر كلياً ؛ لم أعد معتاداً عليه ، خاصّة في فصل الشتاء . أعترف ، بأنّ الأمر في غاية الصعوبة فليست لديّ رغبة بالسفر . . . زِد على ذلك ، أنني سأشعر بالضجر كثيراً هناك لوحدي .

— كم عدد الفلاحين ، الذين تتقاضى منهم الريع الإقطاعي ؟ — سأل إيفان ماتفييتش .

— لاأعرف : لأنني لم أتواجد في القرية منذ زمن بعيد .

— يجب أن تعرف ياسيدي : كيف يمكن تدبير الأمور بدون . معرفة ذلك ؟ فهذا ضروري من أجل أنْ تعرف مقدار دخلك .

— أجل ، يجب ذلك ، — ردّد أبلوموف ، — وجاري يتحدّث عن ذلك أيضاً في رسالته .

— ماهو مقدار الريع حسب تقديرك ؟

— الريع على ماأعتقد . . . كنت أحتفظ بجدول ، أعدّه شتولتس ، لكنْ من الصعب العثور عليه : فلا بدّ أنْ يكون زاخار قد دسّه في مكان

twitter @baghdad_library

ما — سأطلعك عليه فيما بعد . . . كنت أتقاضى حسب اعتقادي ، ثلاثين روبلاً عن كل نفس .

— كيف هي أحوال الفلاحين عندك ؟ كيف يعيشون ؟ — سأل إيفان ماتفييتش . — هل هم اغنياء أم معدمون فقراء ؟ كيف هو نظام السخرة عندك ؟

— اسمَعْ ، — قال أبلوموف وهو يقترب منه ، ثم أمسك بجانبي سترته الرسمية كعلامة على الثقة به . نهض إيفان ماتفييتش بسرعة ورشاقة ، لكن أبلوموف أجلسه من جديد .

— اسمَعْ ، كرّر أبلوموف بصوت يكاد يشبه الهمس وهو يتوقّف بين الكلمات ، — أنا لاأعرف ماذا تعني السخرة ولا العمل الزراعي ، لاأعرف من هو الفلاح الفقير ، ولا الغني ، لا أعرف ثمن الشعير ولا الشوفان ، لاأعرف في أي شهر يزرعون ، ولافي أي شهر يحصدون ، ولامتى يبيعون المحصول ؛ لاأعرف هل أنا فقير أم غني ؛ هل سأصبح بعد عام موسراً أم مُعدَماً — باختصار أنا لاأعرف شيئاً ! —

ختم أبلوموف كلامه بكآبة ، ثم أفلت جانبي سترة إيفان ماتفييتش الرسمية وابتعد عنه ، — وبالتالي ، فعليك أنْ تنصحني وتتحدث إليّ كما تتحدث إلى طفل . . .

— يجب أنْ تتعرّف ياسيدي : فبدون ذلك يستحيل تدبير أي شيء قال إيفان ماتفييتش وهو يبتسم ابتسامة إذعان وخضوع ، ثم نهض ووضع إحدى يديه خلف ظهره ، بينما دسّ اليد الاخرى في عبّه . — يجب أنْ

يعرف الإقطاعي أملاكه ، وكيفية إدارتها والتعامل معها . . . — قال واعظاً .

— لكنني لاأعرف ، علمني اذا كنت تستطيع .

— لم أمارس من قبل مثل هذه الأمور فيجب أنْ أتبادل المشورة مع من لهم خبرة في هذا المجال .

— هاهم يكتبون لك في الرسالة ، — تابع إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه الوسطى . والظفر الى الاسفل ، الى صفحة الرسالة ، — كي ترشّح نفسك الى الإنتخابات : إنه لعمل عظيم ! إذ يمكنك عندئذ أنْ تعيش هناك وتخدم في محكمة المقاطعة وتتعرف في تلك الأثناء على أملاكك.

— أنا لاأعرف ماذا تعني محكمة المقاطعة ، ولا طبيعة العمل فيها ولا أسلوبه ! — قال أبلوموف بصورة معبّرة ، لكنْ بصوت خافت أيضاً ، وهو يقترب من إيفان ماتفييتش ، حتى أصبح أمامه .

— ستتعوّد ياسيدي . هاأنت قد خدمت هنا في إحدى الإدارات : العمل متشابه في كل مكان . الاختلاف بسيط في الشكل فقط . فالإرشادات والعلاقات والبروتوكولات موجودة في كل مكان. يمكنك أنْ تصبح موظفاً مرموقاً . كل ماتفعله هو التوقيع فقط . فما دمت تعرف كيف يجري العمل في الإدارات ف . . .

— أنا لاأعرف كيف يجري العمل في الإدارات — قال أبلوموف برتابة .

ألقى إيفان ماتفييتش نظرة مضاعفة على أبلوموف ثم صمت .

twitter @baghdad_library

— لابدّ أنْ تكون قد قرأت كل الكتب ياسيدي ؟ — لاحظ إيفان ماتفييتش وهو يبتسم ابتسامة الإذعان تلك .

— الكتب ! — اعترض أبلوموف بمرارة ثم توقف عن الكلام .

لم يملك الجرأة الكافية لمتابعة كلامه ، إذ أنه وجد من غير الملائم أنْ يعرّي نفسه حتى الأعماق أمام موظف كايفان ماتفييتش . « والكتب لا أعرفها أيضاً » . — تحركت الفكرة في أعماقه ، لكنه لم ينطقها بلسانه بل عبرّ عنها بتنهيدة كئيبة .

— لكن يجب أنْ تمارس عملاً ما ، — أضاف إيفان ماتفييتش باستكانة وكأنه قد قرأ مادار في ذهن أبلوموف من أفكار تتعلق بالكتب — إذ يستحيل أنْ . . .

— ممكن ياإيفان ماتفييتش : فأمامك مثال حي — أنا ! من أنا ؟ من أكون ؟ — هذه أسئلة يجب أنْ توجهها لزاخار ، لكنه سيجيبك : « انه السيد النبيل ! » أجل ، فأنا سيد نبيل ، لاأعرف أنْ أفعل شيئاً ! ساعدْني إنْ كنت تستطيع ، وسأعطيك لقاء عملك ماتريد .

بدأ أبلوموف يتمشىّ في الغرفة ، بينما ظل إيفان ماتفييتش متسمراً مكانه ، لكنه كان يستدير في كل مرة باتجاه الزاوية ، التي كان يقترب منها أبلوموف . ظل الإثنان صامتين بعض الوقت .

— أين تعلمت ؟ — سأل أبلوموف وهو يتوقف أمامه من جديد .

— دخلت المدرسة الثانوية ، لكنّ والدي أخرجني من الصف السادس ، وأرسلني للعمل في إحدى الإدارات . لم أتعلّم إلا القليل !

تعلمت القراءة والكتابة والقواعد والحساب ، ثم توقفت . لقد تكيفت مع العمل وإنْ كنت لاأزال أعاني بعض المشقة . أما عملك ياسيدي فمختلف — فأنت تلقّيت علوماً حقيقية .

— أجل . أكد أبلوموف متأوّهاً : — صحيح أنني تعلمت الجبر العالي والإقتصاد السياسي والقانون ، لكنني لم أتكيّف مع العمل . فكما ترى لم يفدني علم الجبر بشيء ، فأنا لاأعرف مقدار دخلي . ذهبت الى القرية . سمعت وشاهدت مايجري عندنا في البيت وفي أملاكنا ، وما حولنا — لكنني لم أجد أية علاقة بين ذلك ، وبين القانون ، الذي تعلمت. سافرت الى هنا وأنا أفترض ، بأنّ الإقتصاد السياسي سيفيدني بطريقة من الطرق . . . لكنه قيل لي ، بأنّ العلوم التي تلقيتها ستفيدني مع مرور الزمن ، أي عندما أصبح على عتبة الشيخوخة ، فكل ما أنا بحاجة إليه الآن ، هو أنْ أحصل على الرتب والترقيات . ومن أجل ذلك يلزمني علم واحد فقط — هو نسخ الوثائق ومذكرات التبليغ . لكنني لم أتكيف مع هذا العمل واكتفيت بأنْ أكون مجرّد نبيل ، لا أكثر . أما أنت فتكيفت مع العمل : هيّا ، قل لي : ماالعمل ؟

وقف أبلوموف أمامه . وهو ينتظر ماسيقوله إيفان ماتفييتش

— يمكن أنْ نكلف إنساناً خبيراً بهذه الامور ، — قال إيفان ماتفييتش .

— أين سنحصل على مثل هذا الإنسان ؟ .

— يوجد لديّ زميل في العمل ، اسمه إيساي فوميتش زاتيرتي :

twitter @baghdad_library

صحيح أنه يتلعثم في الكلام قليلاً ، لكنه شخص عمليّ خبير بهذه الأمور . ظلّ ثلاث سنوات يدير أملاكاً واسعة ، لكنّ الإقطاعي صرفه من العمل لسبب واحد فقط ، هو تلعثمه في الكلام . إنّه يعمل في إدارتنا منذ زمن طويل .

— هل يمكن الإعتماد عليه ؟

— إنه إنسان طيب ، نظيف القلب ، فلا تقلق من ناحيته ! سينظم الأمور وسيجد الحلول المناسبة . إنني أثق به كثيراً ، فهو يعمل عندنا منذ اثني عشر عاماً .

— كيف يمكنه السفر مادام موظفاً ؟

— يستطيع أنْ يأخذ إجازة لمدة أربعة أشهر . عندما تتخذ قراراً بشأنه ، سأجيء به الى هنا فوراً ، فهو لن يذهب الى القرية مجاناً بالطبع .

— طبعاً لا ، — أكد أبلوموف .

— يمكنك أنْ تحدّد له ياسيدي مبلغاً معيناً يكفيه لمعيشته خلال الفترة ، التي سيمضيها في القرية ؛ وبانتهاء العمل تمنحه مكافأة يجري الإتفاق بشأنها مسبقاً . سأقنعه بالذهاب !

— أنا شاكر لك جداً : فقد أعفيتني من مشاغل وهموم كثيرة ، — قال أبلوموف وهو يمدّ يده الى إيفان ماتفييتش . — ماهو اسمه ؟

— إيساي فوميتش زاتيرتي ، — كرّر إيفان ماتفييتش ، وهو يمسح بسرعة يده بطرف كمه الآخر ، ثم صافح أبلوموف وأخفى يده بعد ذلك في كمه فوراً . — سأتحدّث غداً إليه ، وسأجيء به الى هنا .

— أدعوكما لتناول الغداء ، فسيكون لدينا متسع للحديث . — أشكرك جداً ، جداً !

قال أبلوموف وهو يرافق إيفان ماتفيتيش الى الباب .

— ١٠ —

مساء نفس اليوم ، كان إيفان ماتفييتش وتارانتييف يجلسان معاً في إحدى غرف الطابق العلوي من المنزل ، ذي الطابقين ، الذي كان يسكن فيه أبلوموف ، والذي يطلّ جانب منه على الشارع ، بينما يطلّ الجانب الآخر على النهر .

كان هذا البيت قد تحوّل الى حانة يقف أمام ابوابها دائماً ثلاث أو أربع عربات فارغة ، يجلس سائقوها في الطابق السفلي وأطباق الطعام في أيديهم . أما الطابق العلوي فكان مخصصاً « لسادة » ناحية فيبورغ .

أمام إيفان ماتفييتش وتارانتييف ، كان يوجد شاي وزجاجة من الروم .

— إنه مشروب جامايكي صرف ، — قال إيفان ماتفييتش وهو يصّب لنفسه بيد مرتجفة كأساً من الروم ، — لاتبدّدْ منه قطرة واحدة .

— اعْتَرِفْ ، بأنها مناسبة تستحق أن يحتفل المرء بها ، — قال تارانتييف ، — فلن تعثر على مستأجر يدرُّ عليك نفعاً مثله .

— هذا صحيح حقاً ، — قال إيفان ماتفييتش . — وإذا ماتمّت قضيتنا وسافر زاتيرتي الى القرية — فسأعطيك بقشيشاً !

twitter @baghdad_library

-- لكنك بخيل يا ايفان ماتفييتش : فمعك تبغي المساومة . . . قال تارانتييف . -- فخمسون روبلاً لاتكفي مقابل تأمين مستأجر كهذا ! يجب أنْ تكون معي كريماً . فأنا الذي أتيت به إليك .

-- أخاف أن ينتقل من عندنا . -- لاحظ إيفان ماتفييتش .

-- آه منك : كيف تقول ذلك أيها العارف ! الى أين سينتقل ؟ فهو الآن لن ينتقل حتّى ولو طردته .

-- والعرس ؟ يقولون انه سيتزوج .

بدأ تارانتييف يقهقه .

يتزوج ! لا ، لن يتزوج ، أتراهن على ذلك ؟ -- قال تارانتييف معترضاً . -- زاخار يساعده حتّى في النوم ، فكيف له أنْ يتزوج ! حتّى الآن . كنت أنا الذي يساعده ويحسن عليه : فلولاي ياأخ إيفان . لكان قد مات جوعاً ، أو لدخل السجن .

فأنا الذي يصرّف أعماله ويدبّر شؤونه ! إنه لايفقه شيئاً . . .

-- حقاً إنه لايفقه شيئاً : فهو يقول بأنه لايعرف أي عمل يقومون به في محكمة المقاطعة . وكذلك في أية دائرة رسمية ؛ إنه لايعرف من هم فلاحوه وكيف أوضاعهم . أي إنسان هذا ! لقد استبد بي الضحك بسبب جهله . . .

-- والعقد ، العقد الذي أبرمه ؟ -- قال تارانتييف متباهياً -- . إنك لماهر حقاً ، في كتابة الوثائق والعقود ياأخ إيفان ماتفييتش . أقسم أنك غاية في المهارة ! وأنا كنت حاذقاً أيضاً ، لكنني لم أعد كذلك . فعلاً

لم أعد كذلك ! ماان أجلس ، حتى تطرف عيناي فتذرفان دموعاً . لقد يئست ! كما أنّ هناك مشاغلي الأخرى ، التي منعتني عن متابعة ذلك أيضاً .

— أجل . فنحن سنعيش ياصديقي . مادام البلهاء ، الذين يوقّعون على الوثائق دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء قراءتها ، لم ينقرضوا بعد في روسيا . لكن ما إنْ يزولوا حتى تسوء أحوال أمثالنا ! ماهو المبلغ الذي جمعته خلال خمسة وعشرين عاماً من الخدمة الوظيفية ؟ ماجمعته من مال يُمكّنني أن أعيش في ناحية فيبورغ حياةً في الحدود الدنيا ! أما أنْ أشتري شقة في شارع ليتيني ، وسجاجيد ، وأتزوج بامرأة غنية ، وأرزق بأطفال — فذلك ضرب من المستحيل ! فسحنتي لاتليق لذلك . وأصابعي شديدة الحمرة كما ترى . يأتي أحدهم ويقول : لماذا تشرب الفودكا ؟.. وهل يمكن أن أمتنع عن شربها ؟ يقولون ان حياتي أسوأ من حياة الخدم : فالخادم الآن ينتعل حذاءً أفضل من حذائي ، ويبدّل قميصه يومياً . أما تربية أولئك الذين يسكنون في شارع ليتيني فمختلفة : فهم متصنعون ، يقرأون ويتحدثون بالفرنسية .

— لكنهم لايفقهون شيئاً . — قال تارانتييف مقاطعاً .

— كلا ، ياأخي ، انهم يفقهون : لكنهم يسيئون إلينا . . . أجل ، يسيئون !

لكن توقيع العقد قد تم ! — قال تارانتييف .

— أجل ، انه لعمل رائع بالنسبة لنا . فلنشرب نخب نجاحنا !

twitter @baghdad_library

سيذهب زاتيرتي الى ابلوموفكا ، فيستفيد بعض الشيء كما نستفيد نحن بدورنا أيضاً .

— أجل ، فلنشرب نخب نجاحنا ! — قال تارانتييف .

— لكن ماأخشاه فقط هو العرس ! — قال إيفان ماتفييتش .

— لاتخشَ ذلك . تذكر ماأقوله .

— نسيت أن أقول لك ، بأنه يحملق بأختي . . . — أضاف إيفان ماتفييتش بصوت هامس .

— ماذا تقول ؟ — قال تارانتييف بدهشة .

— أقسم ، انّ ماأقوله صحيح . لكن لاتقل ذلك لأحد !

— لم يكن يخطر ذلك ببالي قط ، حتى ولا في الحلم ! — قال تارانتييف بعد أنْ تمالك نفسه بعض الشيء — . وأختك ، ماذا تقول ؟

— ماذا تقول ؟ إنك تعرفها .

ضرب تارانتييف بقبضته على الطاولة .

— ألاتعرف بأنْ تستغلّ الأمور لمصلحتها ؟ يالها من بقرة ، بقرة حقيقية . امرأة أخرى مكانها كانت ستستغل ذلك لمصلحتها حتماً الى أبعد حد !

— ١١ —

« أربعة أشهر ! أربعة أشهر أخرى من القسر واللقاءات السرية ، والنظرات والابتسامات المريبة ! — كان أبلوموف يفكر وهو يصعد درج منزل آل إيلينسكايا . — ياإلهي ! متى سينتهي ذلك كله ؟ أولغا ستستعجلني

وتقول : اليوم ، غداً . فهي كثيرة الإلحاح ، ثابتة العزم ! يصعب إقناعها . . . » .

كاد أبلوموف أن يصل الى غرفة أولغا ، دون أنْ يصادف أحداً . كانت أولغا جالسة في غرفة استقبالها الصغيرة ، الكائنة أمام غرفة نومها . وهي مستغرقة في قراءة أحد الكتب .

ظهر أمامها فجأة ، لدرجة أنها ارتعشت ؛ مدّت اليه بعد ذلك يدها بابتسامة ولطف ، لكن عينيها كانتا تبدوان وكأنهما تتابعان قراءة الكتاب فقد كانت تنظر بشرود .

ـ هل أنت لوحدك ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ أجل: فعمّي ذهبت الى تسارسكوي‌سيلو .ودعتني لأذهب معها . سنتناول الغداء لوحدنا تقريباً : ستأتي ماريا سيميونوفنا فقط . فلولاها لتعذر عليّ استقبالك . لن تستطيع أن تتحدث اليوم بصراحة . كم سيكون ذلك مضجراً ! لكنك غداً بالمقابل ـ . . . ـ أضافت أولغا وابتسمت . ـ كيف كنت ستنظر للأمر ، لو أنني ذهبت اليوم الى تسارسكوي سيلو ؟ ـ سألت مازحة .

ظل أبلوموف صامتاً .

ـ هل أنت مهموم ؟ ـ تابعت أولغا .

ـ استلمت رسالة من القرية ، ـ قال أبلوموف برتابة .

ـ أين هي الرسالة ؟ معك ؟

ـ ناولها الرسالة .

twitter @baghdad_library

— إنني لاأفهم شيئاً، فالخط غير مقروء بتاتاً . — قالت أولغا وهي تنظر الى الرسالة .

أخذ أبلوموف الرسالة منها وبدأ يقرأ بصوت مسموع . استغرقت أولغا في التفكير .

— ماالعمل الآن ؟ — سألت أولغا .

— استشرت اليوم أخ صاحبة الشقة . فاقترح عليّ وكيلاً اسمه إيساي فوميتش زاتيرتي : سأكلفه بإنجاز ذلك كله . . .

— تُكلّف شخصاً غريباً لاتعرفه ! — اعترضت أولغا بدهشة — . كيف يمكن ذلك ! شخص غريب يجمع لك النقود من الفلاحين ، وينظم شؤونهم ، ويشرف على بيع المحصول . . .

— يقول بأنه إنسان طيب ، نظيف اليد ، يعمل معه منذ إثني عشر عاماً . . . لكنه يتلعثم بالكلام قليلاً .

— وأخ صاحبة الشقة هذا ، مارأيك به ؟ هل تعرفه ؟

— كلا ، يبدو إنه شخص إيجابي ، عمليّ ، زد على ذلك أنني أعيش عنده في البيت : فسيخجل من خداعي !

كانت أولغا تجلس صامتة وهي تخفض بصرها .

— وإلا فانني سأضطر لأنْ أسافر بنفسي ، — قال أبلوموف . — فأنا أعترف بأنني لاأريد ذلك . فقد أقلعت عن السفر منذ زمن بعيد ، خاصة في الشتاء . . .

حتى إنني لم أسافر أبداً في يوم من الأيام .

كانت أولغا تنظر الى الأسفل وهي تحرّك رأس حذائها .

— وحتى لو سافرت ؛ — تابع أبلوموف ، — فلن أحصل على أية نتيجة :

فسيخدعني الفلاحون ، وسيقول وكيلي مايشاء ، — وأنا يجب أنْ أصدّقه ، لأنني لاأعرف شيئاً في هذه الامور ، وسيعطيني من النقود كما يخطر في باله . آه ، لو كان أندريي هنا : لتدبّر كل شيء ! — أضاف أبلوموف بأسى .

ابتسمت أولغا ابتسامة فيها الكثير من المرارة ، أي أنّ شفتيها ابتسمتا دون أنْ يبتسم قلبها : فقد كان مليئاً بالمرارة والأسى . بدأت تنظر عبر النافذة وتراقب بعين نصف مغمضة كل عربة كانت تمر .

— بالمناسبة ، كان الوكيل المقترح يدير أملاكاً كبيرة ، — تابع أبلوموف . لكن الإقطاعي طرده لسبب واحد فقط ، لأنه كان يتلعثم في الكلام .

سأعطيه وثيقة التوكيل ، والمخططات ؛ أما هو فيتولى شراء المواد اللازمة لبناء البيت ، ويقوم بتحصيل الأموال المترتبة على الفلاحين ، وبيع المحصول ، ويجلب النقود ، وعندئذ . . . سأكون في غاية السعادة ياعزيزتي أولغا ، — قال أبلوموف وهو يقبّل يدها — . فأنا لا أستطيع أن أذهب الى القرية وأتركك ! فلن أتحمّل فراقك ؛ أنْ أذهب الى القرية لوحدي ، ضرب من المستحيل ! لكن يجب أنْ نكون الآن في غاية الحذر .

twitter @baghdad_library

نظرت إليه بعينين واسعتين وهي تنتظر ماسيقوله .

– أجل ، – بدأ أبلوموف يتكلم ببطء ، وهو يكاد أن يتعلم ، – يجب أنْ تكون لقاءاتنا نادرة ؛ البارحة كانوا يتحدثون عن لقائنا الأخير . . . وأنا لاأريد ذلك . . .

فعندما سينهي الوكيل المقترح بناء المنزل ، وينظم شؤون القرية ويجلب النقود . . . وهذا كله لابد أنه سينتهي في سنةٍ ما قادمة . . . سيتوحّد شملنا ، ونقول لعمتك كل شيء ، و . . . و ... و

نظر الى أولغا : فرآها فاقدة الوعي . رأسها مائل الى الجانب ، وشفتاها الزرقاوان المنفرجتان قليلاً ، تكشفان عن أسنانها . لم يلاحظ أبلوموف ، في غمرة الفرح وفرط الأحلام ، كيف امتقعت أولغا ولم تعد تسمع تتمة عبارته وهو يقول : « عندما تنتظم الأمور ، ويتدبر وكيل القرية المقترح كل شيء » .

– أولغا ! . . . ياإلهي ، لقد غشي عليها ! – قال أبلوموف ، ثم رنّ الجرس .

– لقد أغمي عليها ، – قال أبلوموف مخاطباً كاتيا ، التي كانت تسرع راكضة – . أسرعي ، واجلبي الماء ! . . . والكحول النقي المنشّط .

– ياإلهي ! كانت الصباح كله فرحة سعيدة .. . ماذا جرى لها ؟ – همست كاتيا وهي تجلب من على طاولة عمتها الكحول النقي المنشّط وكأساً من الماء .

صحت أولغا من غيبوبتها ، ونهضت بمساعدة من كاتيا وأبلوموف من على كرسيها ومضت وهي تترنح الى غرفة نومها .

— سيمرّ ذلك كله بسلام ، — قالت أولغا بصوت خافت ضعيف ، فما حدث ، لم يكن إلا نتيجة تعب الأعصاب ، فلم أنم البارحة جيداً . كاتيا ، أغلقي الباب ، أما أنتَ ، فأرجو أن تنتظرني : سأستريح قليلاً ثم أخرج بعد ذلك .

بقي أبلوموف وحيداً ، ينصت الى الباب ، وينظر عبر شق القفل ، لكنه لم ير ويسمع شيئاً .

بعد نصف ساعة ، سار في الممشى حتى وصل غرفة الخادمات وسأل كاتيا : « كيف حال الآنسة » ؟ .

— لابأس ، — قالت كاتيا ، — استلقتْ وطلبت مني أن أخرج ؛ دخلت بعد ذلك ، فوجدتها جالسة على الكرسي .

ذهب أبلوموف من جديد الى غرفة الاستقبال ، ونظر عبر شق الباب ، لكنه لم ير أو يسمع شيئاً . أخذ يقرع الباب باصبعه برفق ، لكنه لم يسمع جواباً .

جلس واستغرق في التفكير . كم غيرّ أفكاره في هذه الساعة والنصف ، وكم من قرارات جديدة توصل إليها . ثم استقر رأيه أخيراً على قرار ، يقضي بأنْ يذهب الى القرية بنفسه مع وكيله المقترح ، بعد أن يكون قد نال موافقة عمة أولغا على الخطوبة قبيل سفره ، وبعد أن يكلف إيفان

twitter @baghdad_library

غير اسيمو فيتش بالبحث عن شقة ، حتى أنه قرّر أنْ يستدين نقوداً . . . من أجل العرس .

يمكن تسديد الدين هذا من ثمن المحصول . لكن ، لماذا اكتأب فجأة؟ آه ، ياإلهي ، كيف تتغير الأمور بلحظة واحدة ! وهناك في القرية ، سيتمكن بمساعدة وكيله المقترح من جباية الأموال من الفلاحين ؛ وأخيراً سيتلقى رسالة من شتولتس الذي سيرسل له أيضاً مبلغاً من المال ثم يأتي بعد ذلك وينظم له أبلوموفكا ، ويشقّ الطرق في كل مكان ، ويبني الجسور والمدارس . . . ثم يذهب الى هنا بصحبة أولغا ! . . .

ياإلهي ! تلك هي السعادة ! . . . كيف لم يخطر ذلك كله بباله !

أحس فجأة بالسرور والإرتياح ؛ أخذ يتنقّل من زاوية لأخرى . حتى أنه فرقع أصابعه فرحاً ، وكاد أنْ يصرخ من فرط السعادة ، واقترب من باب غرفة أولغا وناداها بصوت خافت ، لكن بهيج :

ـــ أولغا ، أولغا ! لن تتوقعي مطلقاً ، ما سأقوله لك ! ـــ قال أبلوموف وهو يلصق وجهه بالباب . حتى أنه قررّ أنْ يبقى اليوم عندها ، وينتظر عمتها . « سنخبرها اليوم بكل شيء وسأذهب من هنا بعد أن أكون قد أصبحت عريساً » .

انفتح الباب بهدوء ، وظهرت أولغا : نظر إليها فخارت عزيمته فجأة ؛ غار فرحه كما يغور الماء : فقد بدت أولغا وكأنها قد تقدّمت في السن قليلاً . كانت شاحبة ، لكن عينيها تبرقان ؛ وفي شفتيها المُطْبَقَتَيْن ، وفي كل قسمة وملمح من ملامح وجهها كانت تكمن

حياة داخلية متوترة ، لكنها مقيّدة قسراً بهدوء وسكون متصنّعين .

قرأ في عينيها قراراً لم يعرف كنهه بعد ، لكنّ قلبه كان يخفق بطريقة لم يعهدها من قبل أبداً . فهو لم يعش طيلة حياته كلها لحظات كهذه .

— اسمعي ياأولغا ، لاتنظري إليّ بهذه الطريقة : فأنا خائف ! — قال أبلوموف . — لقد غيّرت رأيي : يجب أن أتصرّف بطريقة مغايرة تماماً لما قلت . . . — تابع بعد ذلك ، وهو يخفض تدريجياً نبرة صوته ، ويتوقّف محاولاً أنْ يقف بدقة على حقيقة الفكرة الجديدة ، التي تلتمع في عينيها وشفتيها وحاجبيها الناطقين ، — يجب أن أسافر بنفسي الى القرية مع وكيلي المقترح . . . كي أقوم هناك . . . — أكمل أبلوموف بصوت لايكاد يسمع .

ظلت أولغا صامتة وهي تنظر إليه بامعان ، كما لو أنها تنظر الى شبح .

كان يخمّن بارتباك الحكم الذي ينتظره ، فأخذ قبعته لكنه تباطأ في السؤال : كان يخشى أن يسمع القرار الحاسم ، غير القابل للإستئناف . بيد أنه تغلب على نفسه في نهاية المطاف .

— هل فهمت ؟ . . . سألها أبلوموف بصوت متهدّج .

أحنت رأسها بهدوء ووداعة ، مبدية علامة الموافقة . ومع أنه قد خمّن فكرتها من قبل ، إلا أنه ظلّ واقفاً أمامها وقد أصبح وجهه ممتقعاً .

كانت فاترة الهمة بعض الشيء ، لكنها بدت هادئة ، جامدة

twitter @baghdad_library

كتمثال من حجر . كان ذلك نوعاً من الهدوء غير العادي ، الذي يسيطر على المرء عندما تمنحه فجأة ، فكرة مركزة أو شعور بالهزيمة ، كل القوة ليتمالك نفسه ، لكن للحظة واحدة فقط .

كانت تشبه الجريح ، الذي يضع يده على جرحه ، كي يكمل قول ماهو ضروري ، ثم يموت بعدها .

— إنك تكرهينني ، أليس كذلك ؟ — سأل أبلوموف .

— لماذا ؟

— بسبب كل ما فعلته بك . . .

— وماذا فعلت ؟

— أحببتك : وهذا إهانة لك !

ابتسمت أولغا بشيء من الشفقة .

— لانك أخطأت . . . — قال أبلوموف وهو ينكّس راسه ، — لكنك ربما تغفرين لي ذنبي . عندما تتذكرين بأنني قد حذّرتك وقلت لك ، بأنك ستخجلين من ذلك وتندمين . . .

— لست نادمة . فأنا متألمة ، متألمة جداً . . . — قالت أولغا ، ثم توقفت كي تلتقط أنفاسها .

— حالتي أسوأ ، — أجاب أبلوموف ، — لكنني أستحق ذلك : أما أنت فلماذا تتعذبين ؟

— إنه الكبرياء ، — قالت أولغا ، — فلقد علّقت الآمال كثيراً على قواي — تلك هي خطيئتي ، لا تلك التي ذكرت أنت . لم أكن أحلم

بذلك بسبب حداثة سني أو جمالي : كنت أعتقد بأنني أستطيع أنْ أبعث الحياة فيك ، فتعيش من أجلي ، ـ لكنك متّ منذ زمن بعيد ، لم أكن أتوقع بأنني على خطأ .

بل كنت أعلق الآمال وأنتظر صحوتك . . . وهاهي النتيجة ! . . . أكملت اولغا بصعوبة وهي تتأوه .

صمتت ثم جلست بعد ذلك .

ـ لاأستطيع أن أقف : فساقاي ترتجفان . مافعلته كان يمكن أن يبعث الحياة في الحجر ، ـ تابعت أولغا بصوت متعب فاتر . ـ لن أفعل بعد الآن شيئاً ، ولن أخطو خطوة واحدة في هذا الاتجاه ، حتى أنني لن أذهب الى حديقة ليتيني : فذلك كله بلا جدوى ـ لأنك ميت ! ألست موافقاً ياإيليا ؟ ـ أضافت بعد ذلك وصمتت ـ . هل ستلومني يوماً لأنني قد تركتك بدافع من كبريائي ؟

هزّ برأسه مجيباً بالنفي .

ـ ألست مقتنعاً بأنه لم يبق لدينا أي أمل ، أو أي شيء يمكن أنْ نفعله ؟

ـ أجل ، ـ قال أبلوموف ، ـ تلك هي الحقيقة . . . لكن ، ربما . . . ـ أضاف بعد ذلك بتردّد ، ـ بعد سنة . . . ـ كانت تنقصه العزيمة لأنْ يوجه الضربة القاضية الى سعادته .

ـ هل تعتقد حقاً بأنك ستستطيع خلال عام أنْ تنظّم حياتك وأمورك ؟ ـ سألت أولغا .

twitter @baghdad_library

– فكّرْ ! تأوّه واستغرق في التفكير وهو يصارع نفسه . قرأت أولغا هذا الصراع على وجهه

– اسمعْ ، – قالت أولغا ، – كنت أنظر منذ قليل الى صورة أمي فمنحتني القوة وراحة الضمير .

تذكّرْ ياإيليا ، بأننا لسنا أطفالاً نمزح : المسألة تتعلق بحياتنا كلها ! سل نفسك بصراحة وقل ، وأنا سأصدقك ، لانني أعرفك : هل ستصبح كما أنا راغبة بأن تكون ؟ إنك تعرفني وبالتالي فانك تدرك جيداً ماأريد أنْ أقول . فاذا قلت بجرأة وتبصر نعم – فاني سأتراجع عن قراري : وهاهي يدي أمدّها لك لنذهب حيث تشاء ، الى الخارج ، الى القرية ، وحتّى الى ناحية فيبورغ !

ظلّ أبلوموف صامتاً .

– ليتك تعرفين كم أحبك . . .

– ماأنتظره ليس تأكيدات في الحب ؛ أنتظر جواباً مختصراً ، – قاطعته أولغا بلهجة جافة تقريباً .

– لاتعذبيني ياأولغا ! – توسّل أبلوموف بكآبة .

– ماذا تقول ياإيليا ، هل أنا على حق أم لا ؟

– أجل ، – قال أبلوموف بجلاء وحسم ، – إنك لعلى حق !

– آنَ أنْ نفترق . – قررت أولغا . – قبل أنْ يدركونا ويروا كم أنا مضطربة !

بقي أبلوموف دون أنْ يغادر مكانه .

— لو تزوجت ، ماذا ستفعل بعد ذلك ؟ — سألت أولغا .

ظل أبلوموف صامتاً .

— ستستغرق في النوم أكثر فأكثر مع كل يوم يمرّ — أليس هذا صحيحاً ؟ وأنا ؟

أنت ترى من أنا ؟ لن أكلّ ، ولن أتعب من الحياة أبداً ، لكن حياتي معك ، وأنت على هذا النحو ستقتصر فيما لو تزوجنا على أن نعيش ونحن ننتظر عيد الميلاد . وبعد ذلك عيد الصوم الكبير ، وزيارة أحدٍ ما . دون أنْ نفكر أو نأبه بشيء آخر ، ثم نهجع الى النوم ونشكر الله ، لأنّ اليوم انقضى بسرعة ، ثم نتوسل الى الباري بأنْ نستيقظ صباحاً لتتحقق رغبتنا في آن يكون اليوم مثل البارحة ... ذلك هو مستقبلنا أليس كذلك ؟ هل هذه حياة ؟ سأذبل ، سأموت . . . من أجل أي شيء ياإيليا ؟ هل ستكون سعيداً . . .

أخذ أبلوموف يطوف السقف بعينيه بألم ؛ كان يريد أنْ يغادر المكان ، ويهرب — لكن ساقيه لم تمتثلا له. كان يريد آنْ يقول شيئاً ما ، لكن فمه كان جافاً ، ولسانه لايتحرك ، وصوته حبيساً . مدّ لها يده .

— لم يبق إذن . . . — بدأ أبلوموف بصوتٍ خافتٍ متهدج ، لكنه لم يستطع أن يتابع بالكلام ، فتابع بالنظرة ، إلا أنْ أقول : « اغفري لي ! » .

كانت أولغا تريد أن تقول شيئاً ما ، لكنها لم تقل شيئاً ، فمدّت له يدها ، لكن يدها سقطت قبل أنْ تلامس يده ؛ كانت تريد أن تقول

twitter @baghdad_library

أيضاً : « وداعاً » ، لكنّ صوتها انقطع في منتصف الكلمة واتخذ لهجة متكلفة حزينة ، أما وجهها فقد تغيّرت ملامحه بفعل التشنّجات ، ثم وضعت يدها ورأسها على كتفه وأجهشت في البكاء . كأنّ أسلحتها قد أفلتت من يدها . فالذكية هلكت – إذ ظهرت عوضاً عنها المرأة ، عديمة الحماية أمام المصيبة .

– وداعاً ، وداعاً . . . – أفلتت منها وسط البكاء والدموع .

صمت أبلوموف ، وهو يستمع بخوف الى دموعها ، دون أنْ يجرؤ على أنْ يحول دونها . لم يشعر بالشفقة عليها ولا على نفسه ، لأنّ وضعه بالذات كان يبعث على الشفقة . تهاوت على الكرسي ، فوضعت المنديل على وجهها ، الذي أسندته على الطاولة ، وراحت تبكي بمرارة . لم تكن دموعها تسيل كتيار ساخن انبجس فجأة بسبب ألم وقتي عارض كما كان يحصل معها في الحديقة ، بل كانت تفيض باردة بكآبة وغزارة كمطر الخريف الذي يروي الحقول بلا رحمة .

– أولغا ، – قال أبلوموف أخيراً ، – لماذا تعذّبين نفسك ؟ أنت تحبينني ، ولن تتحملي فراقنا ! اقبليني كما أنا ، أحبيّ كل ماهو جيد إيجابي في نفسي .

هزّت أولغا رأسها ، دون أن ترفعه ، مجيبة بالرفض .

– كلا . . . كلا . . . – حاولت جاهدة أنْ تتكلم بعد ذلك ، لاتخشَ عليّ ، ولا على مصيبتي . فأنا أعرف نفسي : سأفرّج عن نفسي بالبكاء ، وبعدها لن أعود إليه .

أما الآن فدعني أبكي . . . اذهبْ . . . آه ، كلا ، تمهلْ ! . فالله يعاقبني ! ... فأنا أتألم ، آه كم أشعر بالألم . . . هنا ، في قلبي ... تجدّد النحيب والبكاء .

— وإذا مابقي الألم ، — قال أبلوموف . — وساءت صحتك ؟ فهذه الدموع تضرّك . أولغا ، ياملاكي الطاهر ، لاتبكِ . . . انسِ كل شيء . . . .

— كلا ، دعني أبكي ! فأنا لاأبكي على المستقبل ، بل على الماضي قالت بصعوبة ، — « فقد شحب وانقضى » . . . لست أنا الذي يبكي ، بل الذكريات ! الصيف . . . الحديقة . . . هل تذكر ؟ كم ينتابني الحزن عندما أتذكر ممرات الحديقة ، وغصن الليلاك . . . لقد نبت ذلك كله في قلبي : فكم يؤلمني اقتلاعه ! . . .

أخذت تهز رأسها بقنوط وهي تنتحب وتردّد :

— آه ، كم يؤلمني ، كم يؤلمني ذلك !

— واذا مامُتِّ ؟ — قال أبلوموف فجأة بذعر — فكّري ياأولغا . .

— كلا ، قالت مقاطعة ، وهي ترفع رأسها محاولةً أنْ تنظر إليه عبر الدموع :

لقد عرفت منذ أمد غير بعيد فقط ، بأنني أحببت فيك ماكنت أريد أنْ يكون ؛ أحببت فيك مادلّني عليه شتولتس ، وما كنا نحاول أنْ نبعثه فيك .

twitter @baghdad_library

أحببت أبلوموف المستقبل ! إنك وديع . نقيّ ياإيليا ، إنك لطيف رقيق . . . إنك كالحمامة تخفي رأسك تحت جناحك -- ولاتريد شيئاً آخر ؛ إنك على استعداد لأنْ تمضي حياتك كلها وأنت تهدل تحت السطح... أما أنا فلست هكذا : ذلك قليل جداً بالنسبة لي ، أريد شيئاً ماآخر أيضاً ، لكنني لم أعرفه بعد ! أتستطيع أن تقول لي ماهو هذا الشيء ، الذي أنا بحاجة اليه ، وتمنحني كل مايؤهلني لأنْ أصبح . . . أما الرقة .

ارتخت ركبتا أبلوموف ، فجلس على الكرسي ثم مسح بمنديله يديه وجبينه .

كان الكلام قاسياً ؛ جرحت أبلوموف في الأعماق : كأنها قد حرقته في الداخل ، بينما أحس ببرودتها من الخارج .

ابتسم رداً على ذلك ، بطريقة تبعث على الرثاء والشفقة ، ابتسم بحياء وألم ، كما يبتسم المتسوّل الذي يُلام على عُريه . جلس خائر القوى وابتسامة الوهن والعجز ترتسم على وجهه ، تحت وطأة الإضطراب والإهانة ، التي لحقت به . كانت نظرته الهامدة تقول بوضوح : « أجل إنني فقير ، مسكين ، معدم . . . اضربيني ، اضربيني ! . . . »

أدركت أولغا فجأة ، كم من السمّ في كلامها ، فارتمت عليه بلهفة .

— اغفر لي ، ياصديقي ! -- قالت برقة ، كما لو أنّ الدموع هي التي كانت تتكلم — فأنا لاأعي ماأقول : إنني مجنونة ! انسَ كل ماقلت ، فلنعد كما كنا سابقاً ، وليبق كل شيء على ماكان عليه . . .

— كلا ! — قال أبلوموف وقد نهض فجأة . وهو يبعدها عنه بحركة منه — لن يبقى ! لاتنزعجي ، لأنك قلت الحقيقة : فأنا أستحق ... — أضاف بكآبة .

— إنني حالمة ، متوهمة ! — قالت أولغا — فأنا بائسة . ماالسبب الذي يجعل الآخرين سعداء ، ماالسبب الذي يجعل سونيتشكا سعيدة . . .

بدأت تبكي .

— اذهب ، — قالت أولغا باصرار . وهي تحاول أنْ تمزّق منديلها المبلل بيديها . — لن أتحمل ذلك ، فما زال الماضي عزيزاً على قلبي . . .

حجبت وجهها من جديد بالمنديل ، وهي تحاول أنْ تكتم بكاءها .

— لماذا أُتلِف كل شيء ؟ — سألت أولغا فجأة ، وهي ترفع رأسها فجأة . — من دعا عليك ياإيليا ؟ ماذا فعلت ؟ فأنت طيب ، ذكي رقيق ، نبيل . . . ومع ذلك . . . تهلك ! ماالذي أهلكك ؟ أما من تسمية لهذا الشر . . .

— يوجد ، — قال بصوت لايكاد يسمع .

نظرت إليه متسائلة بعينين مليئتين بالدموع .

— الأبلوموفية ! — همس أبلوموف ثم أخذ يدها . وأراد أنْ يقبّلها ، لكنه لم يستطع ، فاكتفى بأنْ ضغطها على شفتيه ، وسالت دموعه السخية الحارة على أصابعها .

ثم استدار وانصرف ، دون أن يرفع رأسه أو يريها وجهه .

twitter @baghdad_library

ـ ١٢

الله وحده يعلم الى أين ساقته قدماه . وماذا فعل طيلة ذلك اليوم . لكنه عاد الى البيت في ساعة متأخرة من الليل . كانت صاحبة الشقة أول من سمع قرع البوّابة ونباح الكلب . فأيقظت أنيسيا وزاخار من نومهما وقالت بأنّ سيدهما قد عاد .

لم يلاحظ إيليا إيليتش تقريباً كيف نزع عنه زاخار ثيابه وحذاءه ووضع عليه ـ الرداء !

ـ ماهذا ؟ ـ سأل أبلوموف بمجرّد أنْ رأى الرداء .

ـ جلبته صاحبة الشقة اليوم : فقد غسلته وأصلحته . ـ قال زاخار .

بقي أبلوموف بنفس الوضعية . التي جلس بها على الكرسي . كان الظلام يلف كل ما حوله . لكن أبلوموف ظل جالساً وهو يستند على يده . دون أن يلحظ الظلام أو يسمع دقات الساعة الجدارية . كان ذهنه غارقاً في لجة أفكار مبهمة مرعبة تتدافع بفوضى ، كما تتدافع الغيوم في السماء . بدون هدف أو ارتباط ، ـ دون أنْ يمسك بتلابيب أي منها .

كان قلبه محطماً : فقد همدت الحياة فيه مدة من الزمن . أما العودة الى الحياة والمجرى الطبيعي للأمور . واستعادة القوى ، وزوال الضغط النفسي المتوتر فكان يتمّ ببطء .

كانت الصدمة قاسية جداً ، فلم يكن أبلوموف يشعر بجسده . ولا بالتعب . أو بأية حاجة . كان يستطيع أن يستلقي أياماً بكاملها بلا حراك

كالحجر ، أو يسير أياماً بكاملها وهو يتحرك ويسافر دونما توقف ، كالآلة تماماً .

يتكوّن في الإنسان تدريجياً ، عبر مسار صعب معقد ، إما نوع من الخضوع والإذعان للقدر والمصير – وعندئذ يدخل الجسم رويداً رويداً وببطء في مرحلة يستعيد فيها نشاطه وانطلاقه ، – وإما نوع من الإنهيار الناجم عن صدمة حطمت كيانه ، لايستطيع بعدها أن ينهض ويقف على قدميه بثبات ، وذلك تبعاً للمصيبة ، وللإنسان أيضاً .

لم يكن أبلوموف يعي أين يجلس ، حتى انه لم يكن يعرف إنْ كان جالساً ، أم لا :

كان ينظر غريزياً ، دون أن يلاحظ انبلاج التسبح ؛ كان يسمع دون أن يميّز سعال العجوز وتقطيع البوّاب للحطب ، والجلبة والأصوات في البيت ؛ كان ينظر دون أن يرى كيف كانت صاحبة البيت وأكولينا تذهبان إلى السوق ، وكيف كانت تلوح الصرة عبر السياج .

لم تستطع الديكة ، ولا نباح الكلب ، أو صرير البوابة أن يخرجه من ذهوله ، كما لم يستطع أن يفعل ذلك أيضاً أزيز السماوار ، ولا قرقعة الفناجين .

أخيراً ، وفي الساعة العاشرة صباحاً فتح زاخار باب حجرة أبلوموف بالصينية ، وركله ، كالعادة ، بساقه الى الخلف كي يغلقه ، فأخطأه كالعادة ، لكن الصينية على الرغم من ذلك لم تسقط من يده : فقد اكتسب مهارة بفعل الممارسة الطويلة . زد على ذلك ، أنه كان يعرف بأنّ أنيسيا

twitter @baghdad_library

تنظر من الخلف إليه ، فما إن يسقط شيئاً ما ، حتى تندفع على الفور ، لتلتقطه ، فتزيد من إرباكه بتصرفها هذا .

وصل بسلام الى السرير ، وهو يدفن لحيته في الصينية ويحضنها بقوة وعندما نوى أنْ يضع الفناجين على الطاولة بالقرب من السرير ليوقظ سيده ، ألقى نظرة على الفراش فوجده غير مدعوك إطلاقاً ، لأنّ سيّده لم يكن موجوداً فيه .

ارتعش زاخار ، فسقط فنجان على الأرض ثم تبعته علبة السكر . أصبح يتلقّف الأشياء في الجوّ ، فمالت الصينية وسقطت بقية الأغراض لكنه تمكّن أن يبقي على الصينية ملعقة صغيرة فقط .

— ماهذه الورطة ؟ — قال زاخار وهو ينظر كيف كانت أنيسيا تلتقط قطع السكر ، وشقف الفنجان والخبز — أين سيدي ؟

أما سيده فكان جالساً على الكرسي ، وقد تغيرت ملامح وجهه تماماً. نظر زاخار إليه وهو فاغر الفم .

— إيليا إيليتش ، لماذا أمضيت الليل كله جالساً على الكرسي ، ولم تتمدّد ؟ — سأل زاخار . أدار أبلوموف رأسه ببطء ، ونظر بشرود الى زاخار ، والى القهوة المسكوبة على الأرض ، والى قطع السكر المتناثرة على السجادة .

— وأنت لماذا كسرت الفنجان ؟ — قال أبلوموف ، ثم اقترب بعد ذلك من النافذة . كان الثلج يندف فيغطّي الأرض بكثافة .

— الثلج ، الثلج ، الثلج ! — كان أبلوموف يردّد بإلحاح وبلا

معنى . وهو ينظر الى الثلج ، الذي يغطي السياج والأشجار والأحواض في الحديقة بطبقة سميكة . . .

إنه يغطي كل شيء ! — همس أبلوموف بعد ذلك ، ثم تمدد في الفراش ونام نوماً حزيناً ثقيلاً . كان النهار قد تجاوز منتصفه ، عندما أيقظه في اليوم التالي صرير الباب المفضي الى القسم ، الذي تشغله صاحبة الشقة ، فقد امتدت من الباب يد عارية تحمل صحناً ؛ وفي الصحن كانت توجد فطيرة يتصاعد منها البخار .

— اليوم هو الأحد ، — قال الصوت بلطف ، — وهو اليوم الذي نعدّ فيه الفطائر عادةً ، هلاّ تذوقتها ؟

لكنه لم يجب بشيء : فقد كان مصاباً بالحمّى .

* * *

twitter @baghdad_library

الجزء الرابع

twitter @baghdad_library

— ١ —

مضى عام من الزمن على مرض إيليا إيليبيتش . فقد أحدث هذا العام كثيراً من التغيرات في مناطق مختلفة من هذا العالم : فهناك منطقة غدت مضطربة ، وهناك أخرى غدت هادئة ؛ هناك نجم قد أفل ، وهناك آخر قد سطع ، هناك اكتشاف جديد لأسرار الحياة والكون ، وهناك منازل وأجيال قد ذهبت هباء منثوراً . هنا يمحي ويزول نمط حياة قديم ، وهنا يضاف نمط جديد ؛ هناك تزول نفس بشرية أدركتها الشيخوخة ، وهنا تنبت كالحشيش الأخضر ، حياة أخرى جديدة فتية . . .

ومع أنّ الأيام والليالي في منزل الأرملة بشينيتسينا ، الكائن في ناحية فيبورغ تجري بسكون وهدوء ، وفق نمط رتيب من الحياة، دون أن تحدث أية تغييرات مفاجئة عاصفة ، ومع أنّ فصول السنة الأربعة تكرر دورتها على نفس الوتيرة ، التي سارت عليها في السنة الفائتة ، فإن الحياة على الرغم من ذلك كله لم تتوقف ، بل ظلت تتبدّى وتتغير في ظواهر وأشكال مختلفة ، لكنها كانت تتغير تدريجياً وببطء شديد ، بطريقة تشبه التغيرات التدريجية الجيولوجية البطيئة ، التي تطرأ على الكرة الأرضية.

فهناك جبال قد تكونت تدريجياً على امتداد قرون وقرون ،بينما يُرسّب البحر هنا منذ قرون عديدة ، الطمي ، أو يتراجع عن الشاطىء محدثاً زيادة في التربة .

استرد إيليا إيلييتش عافيته . أما وكيل أعماله زاتيرتي فقد سافر الى القرية وأرسل الى أبلوموف ثمن محصول القمح . بعد أن اقتصّ لنفسه نصيبه ومكافأته .

وفيما يتعلق بجباية الأموال المترتبة على الفلاحين ، فقد كتب زاتيرتي بأنّ تحصيلها الآن أمر مستحيل ، لأنّ قسماً من الفلاحين قد أفلس تماماً ، بينما غادر القسم الآخر الى مناطق مختلفة لايعرفها . لكنه الآن بصدد جمع معلومات عنهم وعن أماكن تواجدهم .

وعن الطريق والجسور ، فقد كتب زاتيرتي ، بأنّ الفلاحين يعتبرون أنّ صعود الجبل وعبور الوادي على أقدامهم وصولاً الى البلدة ذات المركز التجاري ، لأفضل بألف مرة من أنْ يعملوا في شق الطريق وبناء الجسور .

باختصار ، فان المعلومات والنقود ، التي تلقاها إيليا إيلييتش ، كانت مرضية بالنسبة له تماماً ، لذا فانه لم يعد يشعر بأية حاجة للسفر ، وأصبح من هذه الناحية مرتاح البال ، حتى مثل هذا الوقت من العام المقبل .

اتخذ زاتيرتي قراراً أيضاً بشأن بناء البيت الجديد : فبعد أنْ حدّد مع المهندس المعماري كمية المواد الضرورية ، أصدر أمراً الى وكيل

twitter @baghdad_library

القرية بأنْ ينقل الخشب مع بداية الربيع ، كما أمره ببناء عنبر للآجر ، وهكذا لم يبق على أبلوموف إلا أنْ يسافر الى القرية في الربيع ، فيبارك المشروع ويبدأ العمل تحت إشرافه .

من المفترض ، حتى ذلك الوقت أن تكون الأموال المترتبة على الفلاحين قد جبيت ومخطط إعادة تنظيم القرية قد انتهى ، وبالتالي فان تغطية النفقات يصبح أمراً ممكناً .

بعد المرض ، ظلّ إيليا إيليتش جهماً مدة طويلة من الزمن ؛ كان يبقى ساعات طويلة مستغرقاً في شروده وتأمله ، حتى أنه لم يكن يجيب أحياناً على أسئلة زاخار ؛ لم يكن يلاحظ كيف كان زاخار يُسْقِط الفناجين على الأرض ، ولا كيف كان يترك الغبار على الطاولة ؛ لم يكن أبلوموف يلاحظ كيف كانت الأرملة بشينتسينا ، صاحبة الشقة تحمل إليه الفطائر في أوقات الأعياد ، فتراه غارقاً في الدموع .

لكنّ نوعاً من عدم المبالاة المفرطة والخمول الشديد أخذا يحلاّن تدريجياً مكان المصيبة التي ألّمت به . كان إيليا إيليتش ينظر ساعات عديدة الى الثلج المتساقط ، فيتأمل الكثبان الثلجية المتراكمة في فناء المنزل والشارع ؛ كان يتأمل الأشجار والحديقة وخمّ الدجاج وبيت الكلب والأحواض ، وقد كساها الثلج بطبقة سميكة بيضاء ؛ كان يتأمّل الأهرامات العالية من الثلج التي تكونت فوق السياج ، فقد بدا له أنّ كل شيء قد مات وتكفّن بكفن أبيض ناصع .

كان يصغي طويلاً الى قرقعة طاحونة القهوة ، والى صرير سلسلة

الكلب ونباحه ، والى الدقات المنتظمة للساعة الجدارية ، والى الصوت المنبعث من زاخار وهو ينظف حذاء سيده .

كانت صاحبة الشقة تدخل اليه كالعادة ، لتقترح عليه شراء شيء ما ، أو تذوّق بعض الأطعمة ، كما كان طفلاها يترددان إليه أيضاً : فيتحدّث الى الطفلة بلطف . بينما كان يعطي دروساً للطفل . ويصغي إليهما وهما يقرآن ويبتسم رغماً عنه ، وهو يستمع الى ثرثرتهما الطفولية .
أصبح أبلوموف يعود الى حياته الطبيعية السابقة تدريجياً .

انقضى الخريف والصيف والشتاء بفتور وملل . لكنّ أبلوموف كان ينتظر من جديد الربيع ويحلم بالسفر الى القرية .

أصبح يسمع تغريد القبّرات في آذار ، وفي نيسان فتحت نوافذ حجرته بعد أنْ أُعلن بأنّ الجليد قد ذاب في نهر النيفا ، وأنّ الربيع قد أقبل .

أصبح أبلوموف يتجوّل في الحديقة ، ثم صاروا يزرعون الخضراوات في الحاكورة ، ومرّت أعياد مختلفة كانوا يحتفلون بها باقامة التريينات ، وشرب الشاي في الغابة .

ومنذ مطلع الصيف ، بدأ الحديث في البيت يدور حول عيدين كبيرين مقبلين :

يوم إيفانوف وهو عيد تسمية أخ صاحبة الشقة . ويوم القديس إيليا وهو عيد تسمية أبلوموف . كان الحدثان موضع اهتمام كبير لسكان البيت جميعاً . وعندما كانت صاحبة الشقة تعثر في السوق على قطعة

twitter @baghdad_library

رائعة من لحم العجل أو تنجح في إعداد الفطائر ، فانها كانت تقول : « كم سيكون رائعاً أنْ أعثر على قطعة رائعة كهذه من لحم العجل ، وأنْ أنجح في إعداد فطائر شهية كتلك في يوم إيفانوف أو إيليا ! » .

كان الحديث يدور أيضاً عن النزهة التي يقومون بها سنوياً سيراً على الأقدام الى مصانع بوروخف ، وعن العيد الذي يحتفل به في كولبينا عند مقبرة سمولني .

وتحت النوافذ أصبح يُسْمَع من جديد قرق الدجاجة المفرخة ، وصأصأة فوج جديد من الصيصان ؛ وصارت تُعَدّ الفطائر وأنواع الفطر الطازجة والخيار المملح ؛ وسرعان ماظهر توت الأرض .

-- أحشاء الطيور جيدة الآن . -- قالت صاحبة الشقة لأبلوموف ؛ لكن لحم السالمون الطازج متوفر : إذ يمكن تحضير حساء بارد من الخضراوات والسمك يومياً .

كان قسم تدبير الشؤون المنزلية يتم بنجاح في منزل بشينيتسينا ؛ ولم يكن سبب ذلك عائداً فقط لكون أغافيا ماتفييفنا ربة بيت نموذجية ، أو لأنّ هذا هوميدان مواهبها وإبداعاتها فحسب ، بل لأنّ إيفان ماتفييتش موخوياريف كان خبيراً أيضاً في شؤون الطعام والمأكولات . كان عديم الاكتراث فيما يتعلق بملبسه :

إذ كان يرتدي البزة سنوات طويلة . وعندما كان يذهب ليشتري بزّة أخرى جديدة ، فانه كان يدفع ثمنها بكثير من الأسى والأسف ؛ لم يعلّق بدلته يوماً على مشجب ، بل كان يرميها كيفما اتفق في ركن من

أركان غرفته . لم يكن يغيّر ملابسه الداخلية إلا يوم السبت فقط ، على الرغم من أنه كان عاملاً ؛ لكن فيما يتعلق بشؤون المائدة ، فانه كان مبذّراً لايأبه بالنفقات والمصاريف .

كان ينطلق في هذا المجال من منطق كَوَّنَهُ لنفسه منذ أنْ دخل الخدمة : « مافي البطن ، لايراه الناس ؛ — وبالتالي فلن يثرثر أحد عمّا في أحشائك ؛ لكن ماإنْ يرتدي المرء بزة جميلة جديدة ، وينتعل حذاءً لمّاعاً ، ويحمل سلسلة ثمينة — حتى يثير ذلك كله أحاديث الناس وفضولهم » .

بسبب ذلك كله ، كانت مائدة بشينيتسينا عامرة بأشهى المأكولات . إذ كان يوجد عليها لحم عجل من الصنف الاول ، وأشهى أنواع لحم الطيور . كان إيفان •اتفييتش يطوف السوق كله في بعض الأحيان ، ويشمشم ككلب الصيد بحثاً عن أطيب المأكولات ، فينبش من تحت الارض أفضل فرخة ، دون أنْ يأبه بالثمن مهما كان .

كان ينتقي أجود الخمور ، يخبئها بنفسه ، ويخرجها بنفسه ، لكن أحداً لم ير يوماً على الطاولة إلا دورق الفودكا فقط . المنقوعة بورق عنب الثعلب . أما النبيذ فكان يرشفه في حجرته فقط .

عندما كان يتوجه بصحبة تارانتييف الى مكان بيع السمك ، كان يخبىء في جيب معطفه دائماً ، زجاجة من نبيذ الماديرا . عالي الجودة ، وعندما كانا يشربان الشاي في « الحانة » ، فانه كان يحمل معه مشروب الروم .

كان التبدل التدريجي البسيط يطال الجميع . وبالمناسبة ؛ فانه كان

twitter @baghdad_library

يطال أنيسيا أيضاً : فالميل المتبادل بينها وبين صاحبة الشقة ، تحوّل الى علاقة وثيقة لاتنفصم ، والى كيان واحد .

ماإنْ لاحظ أبلوموف مساهمة صاحبة الشقة في تدبير شؤونه المنزلية واهتمامها الواضح بها ، حتى اقترح عليها ، ذات مرة بأنْ تأخذ على عاتقها مهمة المؤونة والمأكل ، وتريحه من كافة الهموم والمشاغل .

غمر الفرح وجهها ، حتى أنها ضحكت عن وعي . لقد اتسع سلطانها ونفوذها : فأصبحت تسيطر على مطبخين جمعتهما في مطبخ واحد كبير ! زد على ذلك أنّ أنيسيا أصبحت خاضعة لإدارتها .

تحدثت صاحبة الشقة الى أخيها بشأن الموضوع وفي اليوم التالي تم نقل كل موجودات مطبخ أبلوموف الى مطبخ بشينيتسينا ، فقد انتقلت فضيات المائدة والآنية العائدة لمطبخ أبلوموف الى خزانتها ، أما أكولينا فجُرِّدَتْ من رتبة طباخة ونُقِلتْ لتقوم بدور المشرفة على شؤون الطيور والبستنة .

أخذت الأمور تتّخذ أبعاداً كبيرة ؛ فشراء السكر والشاي والمؤونة والخيار المملّح ومنقوع التفاح والمربيات — صار يتّخذ أحجاماً كبيرة .

تطورت أحوال أغافيا ماتفييفنا ، أما أنيسيا فكانت تبسط جناحيها كأنثى العقاب وأصبحت الحياة تجيش وتسير كالنهر .

أصبح أبلوموف يتناول طعام الغداء في الساعة الثالثة مع الأسرة ، أما أخ صاحبة الشقة فكان يتغدّى أكثر الأوقات لوحده في المطبخ ، لانه كان يأتي من عمله الوظيفي في وقت متأخر جداً .

أصبحت صاحبة الشقة نفسها ، هي التي تحمل الشاي والقهوة الى أبلوموف وليس زاخار . أما الاخير فكان يزيل الغبار إنْ أراد ذلك ، وإنْ لم يرد فانَّ أنيسيا كانت تندفع كالإعصار ، وهي تلبس مئزرها في بعض الأحيان ، فتنظّف غرضاً هنا وآخر هناك ، وتمسح كل شيء بسرعة وترتّب وتنظم الأشياء وتختفي ؛ أما صاحبة الشقة فكانت تذهب بنفسها الى حجرة أبلوموف عندما يخرج الى الحديقة ليتمشّى ، لتلقي نظرة فترى الفوضى تعمّ أرجاء الغرفة ، فتهز برأسها وتغمغم شيئاً ما ، ثم ترتّب الوسادة وتنظر الى غطائها وتهمس من جديد قائلة بوجوب تبديله ، بعدها تنظف النوافذ وتتفحّص ظهر الأريكة وتنصرف .

كان الإنزلاق التدريجي لقاع البحر ، وتآكل الجبل ، وتراب الرواسب ، مع إضافة بعض الإنفجارات البركانية الخفيفة — يحدث أكثر مايحدث في حياة ومصير أغافيا ماتفييفنا ، مع أنها كانت أقلّ من لاحظ ذلك . أصبح ذلك ملحوظاً فقط ، بفضل النتائج العديدة ، غير المتوقعة ، التي لاتنتهي .

لماذا تغيّرت منذ بعض الوقت ؟

فاذا ماحرقت أكولينا اللحم بعض الشيء عندما تقليه ، واذا ما سلقت السمك حتى الإهتراء ، واذا مانسيت أن تضع الخضراوات في الحساء ، فانّ أغافيا ماتفييفنا كانت تكتفي سابقاً بأنْ توجّه لها بصرامة ، لكن بهدوء وكبرياء ، ملاحظة ثم تنسى الأمر ، أما إذا حدث الشيء ذاته الآن ، فإنها تنتفض من خلف الطاولة وتهرع الى المطبخ ، وتمطر أكولينا بوابل من الشتائم المُرّة ، حتى أنها تبدي انزعاجها من

twitter @baghdad_library

أنيسيا . وفي اليوم التالي تشرف بنفسها لتتأكّد من وضع الخضار في الحساء ، ومن عدم اهتراء السمك .

ربمّا يقال بأنها تفعل ذلك كله لأنها تستحي أنْ تبدو في عيني شخص غريب مهملة في تدبير المنزل ، الذي يتركّز نشاطها كله عليه ، وتبرز أنفتها وإحساسها بالكرامة من خلاله

حسناً . لماذا كانت عيناها سابقاً تتغامضان منذ الساعة الثامنة مساء . ثم تنام في التاسعة . بعد أن تنوّم طفليها وتتأكد من إطفاء النور في المطبخ ومن سلامة وترتيب كل شيء ... . فلا يستطيع أي مدفع إيقاظها بعد ذلك قبل السادسة صباحاً ؟

أما الآن فعندما يذهب أبلوموف الى المسرح أو لزيارة إيفان غيراسيمو فيتش . ويتأخر في العودة ، فانه لايغمض لها جفن وتتقلّب من جنب الى آخر وترسم علامة الصليب ، وتتنهّد وتغمض عينيها ... لكنّ النوم لايأتيها !

ماإن تسمع صوتاً أو وقع أقدام في الشارع حتى ترفع رأسها ، لابل تنقضّ من فراشها في بعض الأحيان ، فتفتح الكوة الصغيرة وتصغي وهي تقول لنفسها : أليس هو ؟

وإذا ماسمعت طرقاً على البوابة فانها تنخطف بسرعة الى المطبخ وتوقظ زاخار وأنيسيا وترسلهما ليفتحاها .

ربّما يقال ، بأنّ تصرفها هذا يعكس وجدانها النامي كربة بيت . لاتريد أنْ تحلّ الفوضى في منزلها . لاتريد أنْ ينتظر المستأجر في الشارع

ليلاً الى أنْ يسمع البوّاب السكّير الطرق على البوابة ليفتحها ، وأخيراً لاتريد أنْ يستمرّ الطرق خشيةَ أنْ يوقظ طفليها . . .

حسناً . لماذا لم تكن تسمح لأحد ، إبّان مرض أبلوموف ، بالدخول الى حجرته ، التي فرشتها بالسجاد واللبابيد . وأسدلت الستائر على النوافذ ؛ لماذا كانت ، وهي المرأة الوديعة الطيبة تستشيط غضباً إذا ماصرخ فانيا وماشا أو ضحكا بصوتٍ عالٍ ؟

لماذا كانت تجلس الليالي بالقرب من سريره ، دون أن تعتمد على زاخار وأنيسيا ، فلا ترفع بصرها عنه حتى الصباح ، وبعدها ترمي معطفها على كتفيها وتكتب بأحرف كبيرة على ورقة : « إيليا » ، ثم تهرع الى الكنيسة ، فتضع الورقة في المحراب ، كي يتذكره ويحمي صحته ؛ ثم تنزوي في ركن وتجثو على ركبتيها وتخر ساجدةمدّةطويلة ، ثم تركض بعدها الى السوق ومنه الى البيت وهي قلقة ملهوفة ، وما إنْ تصل حتى تفتح باب حجرته وتسأل أنيسيا بصوت خافت :

— كيف حاله ؟

قد يقال ، بأنّ ذلك كله لايعدو كونه مجرّد نوع من الشفقة والعطف وهما صفتان بارزتان ملازمتان للمرأة

حسناً . لماذا غدت نخيلة عندما أصبح أبلوموف إبّان تماثله للشفاء . جهماً لايتحدث إليها إلاّ نادراً ، ولا يتطلّع الى غرفتها ولايهتم بما تفعله ولا يمازحها أو يضحك معها . — لماذا غدت بعد ذلك كله واجمة لاترغب بشيء ولاتعي شيئاً : تطحن القهوة لكنها لاتتذكر ماتفعل ،

twitter @baghdad_library

فتضع فيها كميات كبيرة من الهيل تتجاوز الحدّ المعقول وتمزجها . فيفسد طعم القهوة ، ويصبح شربها مستحيلاً . لماذا غدت ساهمة لاتسمع أحداً ولاتهتم بشيء .

فلم تعد تأبه أو تلاحظ إن كانت أكولينا قد سلقت السمك جيداً ، لم تعد تهتم بوصول أخيها من عمله . فتظل صامتة جالسة بلا حراك كالحجر دون أنْ تتحدث إليه .

لم يصدف أنْ رآها أحدٌ ما سابقاً واجمة ، ساهمة ، فذلك ليس من سماتها : كانت تمضي الوقت كله بالحركة والنشاط والعمل ، تراقب بحيوية كل شيء ، أما الآن فقد أصبحت فجأة هامدة لاتميّز شيئاً فتخلط بين نباح الكلب والطّرْق على البّوابة .

لكنْ . ما إن استعاد أباوموف حيويته وعادت البسمة على وجهه . ما إن بدأ ينظر إليها بلطف ويمازحها ويضحك معها — كما كان يفعل سابقاً . — حتّى استعادت عافيتها وحيويتها ، فأصبحت نشيطة تتابع شؤون المنزل بحيوية ومرح . دون أن تكلّل : فتمضي اليوم كله بنشاط ودقة وانتظام وهي تسير برشاقة وانسجام ، تتكلم بصوت ليس منخفضاً ولا عاليا . تطحن القهوة وتضع السكر الضروري المناسب فيها ، تقوم بأعمال الخياطة والتطريز بسهولة ويسر فتسير الإبرة في يدها بانتظام واتزان كعقرب الساعة تماماً . تنهض برشاقة وهي تعرف وجهتها ، فتذهب الى المطبخ وتفتح الخزانة فتُخْرِج شيئاً ما ثم تعود — ، إنها تفعل

ذلك كله بدقة وانتظام بسهولة . دونما كلل أو ملل ، فهي أشبه ماتكون بالآلة الدقيقة المضبوطة التي تمّ اختبارها بنجاح .

أما الآن وبعد أن صار إيليا إيلييتش فرداً من العائلة ، فقد أصبحت تتصرّف بطريقة أخرى . تراها جالسة بهدوء تخيط شيئاً ما ، فينادي أبلوموف زاخار فجأة ، كي يجلب له القهوة ـ فتصبح أغافيا ماتفييفنا في المطبخ بسرعة البرق لتحضّر القهوة بنفسها على أحسن وجه .

وعندما يتم تحضير وجبة أبلوموف المفضّلة تراها تشرف بنفسها على كل شيء ، فترفع غطاء الطنجرة وتشمّ رائحة الطعام وتتذوقه ، ثم تضعها بنفسها على النار . وعندما تُعدّ شيئاً ما له ، فانها تفعل ذلك بأقصى مايمكن من الإهتمام والنشاط لدرجة أنّ العرق يتصبب منها .

لقد اكتسبت أعمالها المنزلية كلها من كوي وغسيل وخياطة وتحضير طعام معنى جديداً وهدفاً محدداً : تأمين أقصى مايمكن من الراحة لإيليا إيلييتش . كانت تجد في ذلك سابقاً ، نوعاً من الواجب ، أما الآن فقد أصبح الأمر بالنسبة لها متعةً مابعدها متعة .

فقد أصبحت تعيش الآن على طريقتها بسعادة وارتياح .

لكنها لم تكن تعرف معنى ذلك كله ولم تطرح السؤال على نفسها يوماً ، بل اجتازت ذلك كله بلا ريب ، بسرور ومتعة ، دونما مقاومة أو هلع . دونما متاعب أو تنبؤات مخيفة ، دونما لعب على الأعصاب .

كانت أشبه بمن يعتنق فجأة ديناً آخر . فأصبحت تبشّر به دون أنْ

twitter @baghdad_library

تتبيّن ماهيّة هذا الدّين وشرائعه ، دون أنْ تحاكم الأمر . فسلّمت به تسليما .

أحبّت أبلوموف ببساطة وعفوية فاستولى عليها هذا الحب . كما تستولي الحمّ على من يصاب بنزلة صدرية أو زكام قوي .

لم تكن تفترض شيئاً أو ترتاب بشيء : فاذا ما صارحها أحدٌ بذلك فانها ستعتبر ذلك خبراً تردّ عليه بالخجل والإبتسامة .

كانت تؤدي واجباتها تجاه أبلوموف بصمت ، فقد حفظت بدقة حالة كل قميص من قمصانه ، وكل جورب من جواربه ، أصبحت تعرف أيّ قدم يضع على الأرض أولاً عندما ينهض. ومتى سيظهر شحاذ العين ؛ أصبحت تعرف وجبات طعامه المفضلة والكميات التي يتناولها . هل هو مسرور أم كئيب . هل نام جيداً أم لا . كأنّها تعرفه منذ زمن بعيد . لكنها لم تسأل نفسها يوماً ماذا يمثل أبلوموف بالنسبة لها ولماذا تهتم به كل هذا الإهتمام .

وإذا سألها سائل هل تحبينه . فانها ستبتسم من جديد وتردّ بالإيجاب . لكنها كانت سترّدّ بنفس الطريقة على السؤال ذاته فيما لو وُجّه إليها بعد أسبوع واحد فقط من معرفتها به .

لماذا أحبته بوجه خاص ، لماذا تزوجت دون أنْ تحبّ ، لماذا بقيت حتى سن الثلاثين دون أن تحبّ أحداً ، لماذا هبط عليها حب أبلوموف فجأة ؟

ومع أنّ الحب يعتبر شعوراً عارماً غريزياً ، يظهر ويتولّد كالمرض

إلا أنه كسائر الظواهر الأخرى يملك قوانينه وأسبابه . واذا كانت قوانينه لم تدرس حتى الآن بما فيه الكفاية . بسبب أنّ الإنسان الغارق في الحب لايسمح له وضعه بأنْ يتابع ويدرس بعين متفحّصة ثاقبة ، كيف يتغلغل الحب في أعماق النفس البشرية ويستولي على الروح والأحاسيس ، وكيف يأسر المشاعر ويقيدها . كيف تعمى العيون أولاً وكيف يبدأ القلب بالخفقان أكثر فأكثر ومتى ، كيف يظهر الإخلاص فجأة ويتبدّى الإستعداد للتضحية بالنفس ، كيف يختفي رويداً رويداً الإحساس بالأنا ليتحوّل الى الإحساس به أو بها . كيف يخدر الذهن ويصبح مرهفاً الى أبعد الحدود ، كيف تستسلم الإرادة لأخرى غيرها ، كيف يميل الرأس وترتجف الركبتان وتظهر الدموع والحمىّ . . .

لم تر أغافيا ماتفييفنا من قبل ، إلاّ نادراً أناساً مثل أبلوموف واذا ماسبق أن رأتهم ، فان ذلك كان يحدث عن بُعْد ، ولربما تكون قد أعْجِبَتْ بهم . لكنهم لم يعيشوا في وسطها وبيئتها ، بل في وسط آخر ولم تقدها الصدفة أبداً للاقتراب منهم والعيش معهم .

لم يكن إيليا إيليتش يمشي كما كان زوجها المرحوم بشينتسين يمشي بسرعة وبخطوات صغيرة ، لم يكن يكتب المذكرات والمعاملات لرسمية بلا انقطاع ، ولا يرتعد خوفاً من التأخر عن عمله ، ولاينظر الى الجميع بخنوع ، بل ينظر الى الجميع ، والى كل شيء بجرأة وبحرّية كأنه يطالبهم بالخضوع والإمتثال له .

لم يكن وجهه فظاً ولا أحمر ، بل أبيض ناعماً رقيقاً ، يداه ليستا

twitter @baghdad_library

حمراوين كيدي أخيها ، بل كانتا بيضاوين صغيرتين ، يجلس ويضع ساقاً فوق أخرى ويسند رأسه بيده . إنه يفعل ذلك كله بهدوء وكياسة وبلا تكلّف بطريقة لاتشبه الطريقة التي يتكلم بها أخوها وتارانتيف وزوجها ، حتى أنها لاتفهم الكثير مما يقوله ، لكنها تحسّ بأن كلامه ذكي ، رائع غير عادي ، أما الجزء الذي تفهمه من كلامه ، فتحسّ بأنه يختلف عما يقوله الآخرون .

ملابسه الداخلية رقيقة ناعمة ، يبدلها كل يوم . يغتسل بصابون تنبعث منه رائحة عطرة ، يقلّم أظافره — فهو نظيف ، رائع ، ليس بحاجة لأن يفعل شيئاً ، وهو لايفعل ، فالآخرون ينفّذون كل مايريد : فلديه زاخار وثلاثمائة نفساً على شاكلته أيضاً . . .

إنه سيد نبيل ، متألق ساطع ! زد على ذلك ، أنه طيب ، يسير بليونة وبرفق ، يداه تلامسان جبينه برفق وبنعومة عندما يسير ، أما زوجها فكانت يداه ترتطمان بجنبيه عندما يمشي ، محدثة صوتاً قوياً . ينظر ويتكلم برقة وبطيب منقطع النظير . . .

إنها لم تفكر بذلك كله ولم تدرك شيئاً منه ، لكن إذا ماحاول المرء أنْ يغوص بعمق ليكتشف التأثير الذي أحدثه أبلوموف في حياتها ، فانه لابدّ له أن يتّضح بأن الإنطباع المتكوّن في أعماقها هو على النحو الذي سبق ذكره .

كان إيليا إيليتش يدرك أهمية الأثر الذي أحدثه وجوده في هذا المنزل ، بدءاً من أخ صاحبة الشقة وانتهاءً بالكلب المربوط بالسلسلة ،

الذي أصبح يحصل بعد ظهور أبلوموف ، على ثلاثة أمثال ماكان يحصل عليه سابقاً من العظام ، لكنّ أبلوموف لم يكن يدرك كم كان تأثيره عميق الجذور ، ولم يعرف أهمية النصر الذي أحرزه عندما استحوذ على قلب صاحبة الشقة .

كان يعتبر اهتمامها الزائد بطعامه وثيابه وحجرته نوعاً من إبداء الموهبة كربة بيت ، وهي السمة التي لاحظها منذ أول زيارة قام بها الى هذا المنزل . عندما دخلت أكولينا الى الغرفة وهي تحمل ديكاً بيديها ، وعندما قالت لها صاحبة الشقة على الرغم من ارتباكها وحرجها ، بأنّ الديك الذي يجب أن تعطيه للبائع . هو الديك الرمادي ، لاهذا .

لم يكن في مقدور أغافيا ماتفييفنا أن تتدلّل وتغازل أبلوموف ، ولا أن تلمح إليه عما يعتمل في داخلها . لأنها لم تدرك أبداً شيئاً من ذلك ، ولم تفكر به مطلقاً . كل مافي الأمر هو أنّ حبها كان يتجلّى باخلاص دائم أبداً .

لم تكن عينا أبلوموف مفتوحتين يقظتين إزاء علاقتها به ، فقد استمرّ يفهم الأمر على أنه نوع من السمة الفطرية الملازمة لها كربة بيت . وظلّ شعور بشينيتسينا خفياً على أبلوموف والآخرين ، وعليها بالذات .

كان شعورها خالٍ من أي غرض أو طمع . فقد وضعت الشمعة في الكنيسة من أجل أنْ يشفى أبلوموف من مرضه . لكنه لم يعرف بذلك أبداً . كانت تجلس في الليل عند طرف سريره من ناحية الرأس وتنصرف عند الفجر . لكن الحديث لم يتطرق مطلقاً لهذا الأمر فيما بعد .

twitter @baghdad_library

كانت علاقاته بها غاية في البساطة : كان يجد فيها وفي مرفقيها المتحركين أبداً ، وفي عينيها اليقظتين النشيطتين ، وفي حركتها الدائمة من الخزانة الى المطبخ ، ومن المطبخ الى المستودع ، ومنه الى القبو ، وفي خبرتها الواسعة بالشؤون المنزلية ، تجسيداً ومثالاً للحياة الهادئة التي ينشدها ، والتي ظلّت راسخة في ذهنه منذ الطفولة ، عندما كان يعيش في كنف والديه .

تذكر كيف كان أبوه وجدّه ، والأبناء ، والأحفاد والضيوف يجلسون أو يتمدّدون بهدوء كسول ، وهم يعرفون بأنّ عيناً يقظةً ساهرة تحرسهم وأناساً يعملون في البيت من أجل راحتهم يطعمونهم ، يسقونهم ، يلبسونهم ، ينزعون لهم ثيابهم عند النوم ، يخيطون ملابسهم ويغمضون لهم أعينهم بعد الموت.هكذا كان حال أبلوموف هنا ، فهو يجلس على الأريكة ويرى بأنّ هناك من يتحرّك بنشاط في خدمته ؛ لم يكن يهتم إن كانت الشمس ستسطع غداً ، أو إذا كانت الأعاصير ستهبّ في أرجاء المعمورة ؛ كلّ ماكان يهمّه هو أنْ يُقَدَّمَ الحساء واللحم المشوي له ، وأنْ تكون ثيابه نظيفة ، وأن تُزال خيوط العنكبوت من على الجدران . لكنه لم يكن يعرف كيف كان يتمّ تنفيذ ذلك كله ، حتى انه لم يكلف نفسه عناء التفكير بتحديد مايرغب ويريد ، فكل شيء سيأتي إليه على طبق تحمله يدان عاريتان بيضاوان نظيفتان ، ثم يُقَدَّم له بنظرة وديعة تشعّ حيوية ، وبابتسامة تنمّ عن إخلاص عميق ، فقد استراح من رؤية يدي زاخار الوسختين ومن فظاظته وكسله .

كانت علاقته بصاحبة الشقة تزداد وثوقاً : لكنه لم يفكر بالحب أبداً حتى أنه لم يخطر في ذهنه ، أي أنه لم يفكر بذاك النوع من الحب الذي عانى منه منذ مدة غير بعيدة ، كما يعاني المرء من مرض الجدري والحصبة والحمى ، لدرجة أنه كان يرتعش عندما يتذكّره .

كان أبلوموف يقترب من أغافيا ماتفييفنا ، كما لو أنه يقترب من نار تمنحه الدفء أكثر فأكثر ، لكنه كان يتعذّر عليه أن يحبّها .

بعد الغداء ، كان أبلوموف يبقى في غرفتها عن طيب خاطر ويدخّن غليوناً ويراقب كيف كانت ترتب فضيات المائدة والآنية في الدولاب كيف كانت تُخْرِج الفناجين وتصب القهوة ، كيف كانت تفضّله بوجه خاص على الآخرين ، فتغسل وتنشّف بكثير من العناية والإهتمام أحد الفناجين فتملأه أولاً ، وتقدّمه له وتنظر لتتأكد إن كان راضياً .

كان يركّز بصره بسرور على عنقها الممتلىء ومرفقيها المسبوكين ، عندما تفتح باب حجرتها . حتى أنه كان يفتح لها الباب بحركة من ساقه عندما يتعذّر عليها ذلك ، ثم يمازحها ويداعب طفليها .

بيد أنه لم يكن يشعر بالضجر اذا ما انقضى الصباح دون أن يراها ، وبعد الغداء كان غالباً ماينصرف الى غرفته لينام ساعتين ، بدلاً من أنْ يبقى معها ، لكنه كان يدرك بأنّ الشاي سيكون جاهزاً في الغرفة نفسها عندما يستيقظ .

أهم مافي الامر ، أنّ ذلك كله كان يتم بهدوء : فلم يشعر بألم في قلبه ، ولم يضطرب يوماً أو يفكر بما ستقوله صاحبة الشقة ، ولا بما

twitter @baghdad_library

سيقوله لها ولا بجوابه على سؤالها ، ولا كيف ستنظر إليه . . . فهو لم يشعر بشيء من هذا أبداً

لم يعرف الضجر والأرق ، ولا الدموع الحلوة أو المُرّة . فهو يجلس ويدخّن وينظر كيف تخيط وتطرّز ؛ أحياناً يقول شيئاً ما أو لا يقول ، لكنه كان يشعر بالهدوء والسكون فلا يحس بالحاجة لأي شيء . ولايريد الذهاب الى أي مكان . كأنّ كلّ ماهو ضروري موجود ومتوفر هنا .

لم تكن أغافيا ماتفييفنا تطالبه بشيء أو تحثّه على فعل أي شيء . لم تتولّد لديه أية رغبات أو ميول أو مطامح أو تضحيات أو آلام ، لأنّ الزمن يمضي وهو لايفعل شيئاً . لم يشعر بالألم لأنّ قواه قد وهنت ، أو بسبب أنه لم يفعل شيئاً ، لاخيراً ، ولا شراً ، أو لأنّه يعيش بكسل وخمول . . .

كأنّ يداً خفيّة قد غرسته كما يُغْرَس نبات نفيس ، غالي الثمن بعيداً عن القيظ في الظل ، وفي منجى من المطر ، وهي تداعبه وتدلّله .

— ماأرشق أناْ ملك وأنت تدسّين الإبرة ياأغافيا ماتفييفنا ! — قال أبلوموف . إنك تخفضين رأسك الى الأسفل كثيراً ، لدرجة أنني أخشى أن تخيطي أنفك مع التنورة .

ضحكت أغافيا ماتفييفنا .

— سأقطب هذه التقطيبة فقط . ثم نتناول بعدها طعام العشاء . — قالت بصوت خافت وكأنها تسر لنفسها .

– ماذا عندنا على العشاء ؟ – سأل أبلوموف .

– كرنب مخمّر مع لحم سمك السلمون . – فلم نعثر على لحم الزجر : إذ بحثت عنه في كل مكان ، لكنني لم أجده وكذلك أخي . عندنا أيضاً لحم عجل وعصيدة من الارز على النار .

– هذا رائع ! كم أنت لطيفة ياأغافيا ماتفييفنا !

– ماذا فعلت حتى أستحق هذا الثناء ؟ ألا تسمع جيشاناً على النار ؟ – أجابت ، وهي تفتح باب المطبخ .

ثم أكملت خياطتها بعد ذلك وقطعت الخيط بأسنانها وطوت ماكان بيديها وحملته الى غرفة النوم .

إذن ، ها هوذا قد اقترب منها كما يقترب من النار الدافئة ؛ ذات مرة اقترب منها كثيراً جداً لدرجة أنه كاد أنْ يصل إلى الحريق تقريباً ، أو الى اللهب على أقل تقدير .

كان يتمشى في غرفته ثم التفت الى باب غرفة صاحبة الشقة ، فرأى مرفقيها يتحركان بسرعة غير عادية .

– أراك تعملين دائماً ! – قال أبلوموف وهو يدخل حجرتها . – ماهذا ؟

– إني أدق القرفة ، – أجابت صاحبة الشقة وهي تنظر الى الجرن ، كما لو أنها تنظر الى الهاوية ، وهي تدق الهاون بلا رحمة .

– وإذا أعقتك عن العمل ؟ – سأل أبلوموف وهو يمسك مرفقيها ويمنعها عن الدق .

twitter @baghdad_library

– اتركني ! يجب أن أجرش السكر أيضاً .

ظل ممسكاً بمرفقيها ، وقد أصبح وجهه عند قفا رأسها .

– ماذا تقولين ، فيما لو . . . أحببتك ؟

ضحكت .

– هل كنت ستحبينني ! – سأل من جديد .

– ولماذا لاأحبك ؟ فالله أمر بأن نحبّ الجميع .

– واذا ماقبّلتك ؟ همس أبلوموف وهو ينحني فوق عنقها فأصبح نفَسُهُ يلفح رقبتها .

– ليس هو موعد الأسبوع المقدس الآن ، – قالت ضاحكة .

– هيّا ، قبّليني !

– ليمنحنا الله طول العمر ، سيأتي عيد الفصح ونقبّل بعضنا ، – قالت دون أن تندهش أو ترتبك أو تخجل ، وهي تقف أمامه بلا حراك كالفرس التي تُكْدن . لامست شفتاه رقبتها برفق .

– اسمع ، سأكمل دقّ القرفة وإلاّ لن يبقى لديك شيء نضعه في الكعك . – لاحظت أغافيا ماتفييفنا .

– ليست مصيبة ! – أجاب أبلوموف .

– ماهذه البقعة التي ظهرت على ردائك من جديد ؟ – سألت باهتمام وهي تمسك طرف الرداء . – يبدو أنها بقعة زيت . – ثم شمّت البقعة . – من أين هذه البقعة ؟

– لاأعرف من أين جاءتني .

– لعلك تكون قد اصطدمت بالباب ؟ – خمّنت أغافيا ماتفييفنا فجأة . – البارحة قمنا بدهن مفاصل الأبواب بالزيت . كانت تصدر صريراً طوال الوقت .

– انزعه واعطني إياه بسرعة ، سآخذه وأغسله .

– كم أنت طيبة ياأغافيا ماتفييفنا ! – قال أبلوموف وهو يرمي بتكاسل الرداء من على كتفه . – اسمعي ما سأقول : لنذهب إلى القرية ونعيش فيها : فهنالك أعمال منزلية أيضاً ! هناك كل شيء : الفطر ، حب التوت المربيات ، بيت الطيور ، وزريبة مواشي . . .

– كلا ، لماذا ؟ اختتمت كلامها وهي تتنهد . – هنا وُلِدْت ، وعشت ، وهنا يجب أنْ أموت .

نظر إليها وقد انتابه شيء من الإضطراب ، لكن البريق كان غائباً من عينيه ، فلم تكونا مليئتين بالدموع ، ولم تحلق روحه عالياً طلباً للتضحية . كل ما كان يريده هو أنْ يجلس على الأريكة دونْ أنْ يحوّل نظره عن مرفقيها .

– ٢ –

انقضى يوم إيفان باحتفال مهيب . وفي اليوم السابق للعيد لم يذهب إيفان ماتفييتش الى عمله ، بل أمضاه متنقلاً من البيت الى المدينةوبالعكس ، وفي كلّ مرة كان يحمل معه إلى البيت تارةً كيساً وأخرى سلة .

عاشت أغافيا ماتفييفنا ثلاثة أيام على القهوة فقط ، فوجبات الطعام لم تكن تُحَضَّر إلاّ لإيليا فقط أما الآخرون فكانوا يكتفون بتناول أي شيء .

twitter @baghdad_library

عشية العيد ، لم تتم أنيسيا مطلقاً . لكنّ زاخار عوّض الفرق ؛ فنام بالنيابة عنها وعن نفسه ، وكان ينظر الى هذه التحضيرات والإستعدادات باستخفاف وبشيء من الإزدراء .

— هكذا كانوا عندنا في أبلوموفكا يُحضّرون لكل عيد ، — قال زاخار مخاطباً طبّاخيْن كانا قد استُدعيا من مطبخ الكونت . — كانت الأطعمة متوفرة بكثرة ، بحيث لايمكن إحصاء كمياتها !

كان السادة يأكلون طيلة يوم العيد ، واليوم الذي يليه . أما نحن فكنا نمضي خمسة أيام ونحن نأكل ماتبقى من الطعام . ماإنْ ينتهي كل شيء ، حتى يأتينا الضيوف ، — فنبدأ من جديد ، بتحضير المأكولات ، أما هنا فالتحضيرات تجري مرة واحدة في العام فقط !

على المائدة ، قدّم زاخار الطعام لأبلوموف قبل الجميع ، ولم يكن ليقبل بحالٍ من الأحوال ، بأنْ يقدّمه أولاً الى أيّ سيد آخر ، كائناً من كان .

— سيدي عظيم . — كان يقول متباهياً ، — أما هؤلاء فمن يكونون بالنسبة له !

أما تارانتييف الجالس في الطرف ، فلم يكن زاخار يقبل بأنْ يقدّم له الطعام بوجه عام ، لكنْ في بعض الأحيان كان يضع له في الصحن كمية من الطعام يحدّدها هو ، أي زاخار .

كان زملاء إيفان ماتفييتش في العمل البالغ عددهم ثلاثين شخصاً موجودين جميعاً . على الطاولة كانت توجد كميات كبيرة من السمك

النهري المقلي والفراريج المحشوة والبوظة والنبيذ الجيد – كان ذلك كله يرمز بمهابة الى الإحتفال السنوي بالعيد .

قبيل الانتهاء أخذ الضيوف يتعانقون ويثنون على المضيف،ثم بدأوا بعد ذلك يلعبون الورق . أخذ موخاياريف ينحني ويردّ على ثنائهم شاكراً ، وهو يقول بأنه على أتمّ الإستعداد لانْ ينفق ثلث مرتبه من أجل إكرام الضيوف وإسعادهم .

عند الصباح ، أخذ الضيوف ينصرفون الى بيوتهم وعاد الهدوء من جديد يخيمّ في المنزل ، واستمر الأمر على هذه الحال الى أنْ أقبل يوم عيد إيليا .

في هذا اليوم لم يتواجد عند أبلوموف من الضيوف القادمين من خارج المنزل إلاّ إيفان غير اسيموفيتش وألكسييف الوديع الصامت ، الذي وجه الدعوة في بداية هذه الرواية الى إيليا إيلييتش لحضور احتفالات الأول من أيار . لم يكتفِ أبلوموف بأنْ لاتكون وليمته أقلّ شأناً من وليمة إيفان ماتفييتش فحسب ، بل إنه بذل كل جهده أيضاً من أجل أنْ تكون الأكثر أهميةً وذوقاً في هذه المنطقة كلها . فبدلاً من الفطائر السميكة الدهنية ظهرت فطائر بدون حشوة ، خالية من الشحم والدهن، كما قُدّم المحار قبل الحساء ، ظهرت الفراريج الشهية مع الفطر ، وشرائح طرية من اللحم ، وخضراوات شهية وحساء انكليزي .

كان يُزيّن وسط الطاولة أناناس كبير يحيط به المشمش والكرز والدراق . وفي الأواني كانت توجد أزهار رائعة .

twitter @baghdad_library

ماإنْ بدأ الحضور بتناول الحساء ، وما إن لعن تارانتييف الطباخ لابتكاره هذه الفطائر الخالية من الحشوة ، حتى سمع نباح الكلب وقرقعة السلسلة المربوط بها .

دخلت عربة فناء الدار وأخذ أحدٌ ما يسأل عن أبلوموف . فغَرَ الجميع أفواههم — لابد أنْ يكون أحد معارفي السابقين قد تذكر عيد تسميتي — قال أبلوموف ، — .

قل إنني لست موجوداً في البيت ! — قال أبلوموف مخاطباً زاخار بهمس .

أراد زاخار أن يدخل في نقاش مع أبلوموف . لكنه وجد نفسه فجأة أمام شتولتس :

— أندري إيفانيتش . — صاح زاخار بسرور ، لكن بصوت أجش.

أندري ! صرخ أبلوموف بصوتٍ عالٍ ثم ارتمى عليه معانقاً .

— أتيت في الوقت المناسب في وقت الغداء ! — قال شتولتس ، — . أطعمني ، إنني جائع . لم أهتد إليك إلاّ بشقّ النفس !

— هيّا ، هيّا ، اجلس ! — قال أبلوموف بكثير من الحركة وهو يُجلِسه بالقرب منه .

كان تارانتييف أول من ذهب واختفى في الحديقة ، لدى ظهور شتولتس ، ثم تبعه إيفان ماتفييتش . أما صاحبة الشقة فقد تحركت من مكانها أيضاً .

— لقد أزعجتكم ، — قال شتولتس وهو ينهض .

ـــ لماذا ذهبتما ؟ إيفان ماتفييتش ! ميخا أندرييتش ! ـــ صاح أبلوموف

أجلس صاحبة الشقة مكانها ، لكنه لم يقدر على إعادة إيفان ماتفييتش وتارانتييف الى الطاولة .

ـــ من أين أنت آتٍ ؟ كم سيطول بقاؤك ؟ ـــ أخذت الاسئلة تنهال.

عاد شتولتس الى بطرسبورغ لمدة أسبوعين فقط ، لقضاء بعض الأشغال ، ثم يتوجه بعدها إلى القرية . ومن ثم الى كييف ، ومنها لايدري الا الله الى أين .

لم يتحدث شتولتس إلا القليل حول الطاولة، لكنه أكل كثيراً : فقد اتضح أنه كان جائعاً حقاً . أما الآخرون فكانوا يأكلون بصمت منذ وقت طويل .

بعد الغداء ، عندما رُفِع كل شيء عن الطاولة أمر أبلوموف أنْ يبقوا الشمبانيا وزجاجة من المياه المعدنية، ثم بقي مع شتولتس على انفراد.

صمتا بعض الوقت . ظل شتولتس ينظر إليه طويلاً وبإمعان .

ـــ إيليا ، ماذا ستحكي لي ؟ ـــ قال شتولتس أخيراً ، لكن اللهجة كانت تنمّ عن كثير من التساؤل واللوم لدرجة أنّ أبلوموف اضطر أنْ ينظر الى الأسفل ويصمت .

ـــ هكذا إذن ، « أبداً » ؟

ـــ ماذا تعني بـ « أبداً » ؟ ـــ سأل أبلوموف ، وكأنه لايتذكر شيئاً .

ـــ نسيت : « إمّا الآن أو أبداً ! »

ـــ لم أعد الآن . . . كما كنت آنئذ ياأندريي ، ـــ قال أبلوموف

twitter @baghdad_library

أخيراً . . . فقد أصبحت أحوالي والحمد لله بخير : لم أعد أنام بخمول ، وخطتي انتهت تقريباً ، كما اشتركت في مجلتين ؛ قرأت تقريباً كل الكتب التي تركتها لي . . .

لماذا لم تسافر الى الخارج ؟ — سأل شتولتس .

-. السبب الذي منعني عن السفر الى الخارج ، هو

ارتبك أبلوموف .

— أولغا ؟ — قال شتولتس وهو ينظر إليه بوضوح .

احمرّ أبلوموف .

-. هل سمعت . . . أين هي الآن ؟ — سأل أبلوموف بسرعة ، وهو ينظر الى شتولتس. ظلّ شتولتس ينظر إليه وهو يسبر أعماقه دون أن يجيب .

-. سمعت بأنها سافرت الى الخارج مع عمتها ، — قال أبلوموف ، بعد أن . . .

— بعد أن اكتشفت خطأها — أكمل شتولتس .

— هل عرفت . . . — قال أبلوموف ، دون أن يستطيع إخفاء ارتباكه .

— أعرف كل شيء ، — قال شتولتس ، — حتى غصن الليلاك . ألست قاسياً . خجلاً من نفسك ياإيليا ؟ ألا تشعر بالندم والأسف ؟

— لاتذكّرني ! — قاطعه أبلوموف بسرعة ، — كم عانيت عندما رأيت الهوّة ، التي تفصل بيني وبينها . وعندما اقتنعت بأنني لست جديراً

بها . . . آه ياأندريي ! اذا كنت تحبني حقاً ، فأرجوك ألاّ تذكّرني بما مضى وتعذبني : لقد حذّرتها منذ زمن بعيد من الخطأ ، الذي ارتكبته ، لكنها لم تكن تريد أن تصدقني . . . حقاً ، إنني لست مذنباً كثيراً . . .

— إنني لاأتهمك ياإيليا . — تابع شتولتس بودّ وليونة ، ... لقد قرأت رسالتك ، فأنا المذنب أولاً ، وأولغا ثانياً ، وأنت أخيراً ، مع أنك لاتتحمّل إلاّ القليل ، القليل من المسؤولية .

— كيف حالها الآن ؟ — سأل أبلوموف بحياء .

— حزينة ، تبكي دائماً وتلعنك . . .

مع كل كلمة كان الخوف ، والألم ، والرعب والندم يظهر على وجه أبلوموف .

— ماذا تقول ياأندريي ! — قال أبلوموف وهو ينتفض من مكانه — ناشدتك الله ، أنْ نذهب الآن في هذه اللحظة : كي أخرّ على قدميها ساجداً وأطلب الصفح منها . . .

— اجلس بهدوء ! — قاطع شتولتس وهو يضحك ، — إنها مسرورة لابل سعيدة ، فهي تسلّم عليك . حتى أنها كانت تريد أنْ تكتب إليك لكنني أقنعتها ألاّ تفعل ذلك ، لأنّ هذا سيزيد من اضطرابك .

— الحمد لله ! — قال أبلوموف والدموع تكاد أنْ تطفر من عينيه . كم أنا مسرور لذلك ! اسمَحْ لي ياأندريي أن أقبّلك ، ولنشرب نخبها .

شرب كل منهما كأساً من الشمبانيا .

— أين هي الآن ؟

twitter @baghdad_library

في سويسرا . في الخريف ، ستذهب مع عمتها الى القرية . فقد
أتيت الى بطرسبورغ من أجل إنجاز بعض الأوراق الرسمية المتعلقة
بأملاكها . فالبارون لم ينجز كل مايتعلق بأملاكها ؛ كان يريد أنْ
يخطبها .

-- كيف يعقل ذلك ؟ أصحيح ماتقول ؟ ماذا كان رأيها ؟

— رفضت طبعاً ، فحزن وسافر ، وها أنا ذا الآن أكمل مالم
ينجزه !
خلال أسبوع سأنجز كل شيء . قل لي : ماهي أخبارك ؟ لماذا أتيت الى
هذه المنطقة النائية ؟

— أشعر بالهدوء والراحة هنا ياأندريي ، مامن أحد يزعجني عن ...

- عن أي شيء ؟

— عن العمل . . .

. لكنك لست في أبلوموفكا ، مع أن المكان أسوأ هنا ، — قال
شتولتس وهو يلتفت الى ماحوله . — فلنذهب الى القرية ياإيليا .

— الى القرية . . . حسناً ، ربما ستبتدىء أعمال البناء هناك قريباً ،
لكنْ لاتستعجلني كثيراً ، اعطني فرصة لأفكر . . .

-- عدنا إلى التفكير !أعرف أفكارك، أعرف كيف كنت تفكر منذ
سنتين بالسفر الى الخارج . لنذهب في الأسبوع المقبل الى القرية . . .

كيف يمكن أنْ أذهب فجأة في الأسبوع المقبل ؟ — قال
أبلوموف مدافعاً عن نفسه ، . يجب أن أستعد لذلك . . .

— لاحاجة للإستعداد . ماذا ستفعل ؟

صمت أبلوموف .

— صحتي سيئة ياأندريي ، — ضيق النفس يتعبني . شحاذ العين بدأ يظهر من جديد في عيني اليمنى تارة وفي اليسرى تارة أخرى . كما اني احس بالألم في ساقي . أكون نائماً في بعض الأحيان ليلاً ، فأشعر وكأنّ أحداً يضربني على رأسي أو ظهري فأنتفض مستيقظاً .

— اسمعْ ياإيليا ، أقول لك بمنتهى الجدّ بأنه يتوجب عليك أنْ تغيّر نمط حياتك وإلاّ ، فإنك ستتخيل العفاريت في نومك . يبدو أنّ النجاح المتوقّع سابقاً قد تلاشى : فلن أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ، مادامت أولغا ، ذلك الملاك الطاهر قد عجزت عن أنْ تنشلك من المستنقع وتحملك على جناحيها وتحلق بك عالياً . لكنّ اختيار مجال محدد صغير للنشاط ، وإعادة تنظيم أملاكك ، والتعامل مع الفلاحين ، والتعرف على شؤونهم وأحوالهم وترتيبها وحلها ، — فتلك أمور تستطيع إنجازها ، وينبغي أنْ تفعلها . لن أدعك تفلت منّي . فأنا لاأنطلق الآن من رغبتي فحسب ، بل أعمل أيضاً طبقاً لمشيئة أولغا : إنها تريدك أنْ تفعل ذلك كله — هل تسمعني ؟ — تريدك أنْ تنجز ذلك ، كي لاتموت كلياً ، كي لاتُدْفنَ حيّاً ، ولقد وعدتها بأنْ أنبشك من القبر . . .

— لم تنسني بعد ! هل أستحق ذلك ! — قال أبلوموف بشيء من الإنفعال .

— كلا ، لم تنسَك ، ويبدو أنها لن تنساك أبداً : فهي تنتمي الى

twitter @baghdad_library

ذاك الطراز الوفيّ من النساء . يتوجب عليك أنْ تزورها في القرية مستقبلاً .

ــ ليس الآن يا أندري ، ليس الآن ! فأنا أريد أن أنسى . آه مازال يوجد هنا . . . ثم أشار الى قلبه .

ــ ماذا يوجد هنا ؟ أليس هو الحب ؟ ــ سأل شتولتس .

ــ (متنهداً) كلا ، الخجل والحسرة ! .

ــ حسناً لنذهب الى قريتك : إذ يجب أنْ ترتّب أمورك ، فالآن هو فصل الصيف ، والوقت الثمين يمضي .

ــ كلا ، يوجد عندي وكيل يقوم بترتيب أموري . إنه الآن في القرية ، لكنني سأسافر فيما بعد ، بعد أنْ أكون قد حزمت أمري وفكّرت ملياً .

أخذ يتباهى أمام شتولتس ويقول ، بأنه رتّب أموره كما ينبغي ، دون أنْ يبرح مكانه .

فوكيله يقوم بجمع الأوراق والمستندات المتعلقة بالفلاحين الهاربين ويبيع محصول القمح بأسعار ملائمة . فقد أرسل ألفاً وخمسمائة روبلاً ، وعلى الأرجح سيجني هذا العام الأموال المترتبة على الفلاحين .

أخذ شتولتس يضرب كفاً على كف لدى سماعه هذا الكلام .

ــ إنك تُنْهَبُ من كل جانب ! ــ قال شتولتس . ــ ألف وخمسمائة روبلاً من ثلاثمائة نفساً ! من هو معتمدك هذا ؟

ـ أكثر من ألف وخمسمائة . ـ صَحَّحَ أبلوموف . ـ لقد استلم مكافأة لقاء بيعه محصول القمح . . .

ـ كم هو المبلغ الذي تقاضاه كمكافأة ؟

ـ لاأذكر . لكنني سأريك ورقة الحسابات : إنها موجودة في مكان ما .

ـ إيليا ! لقد متّ وهلكت حقاً ! ـ ختم شتولتس الكلام ـ البس ثيابك ولنذهب لعندي !

حاول أبلوموف أنْ يبدي بعض الإعتراض ، لكنّ شتولتس أرغمه على الذهاب ، فكتب وثيقة توكيل باسمه ، وأجبر أبلوموف على توقيعها ، ثم أعلن بأنه سيستأجر أبلوموفكا وتبقى تحت تصرفه الى انْ يذهب إليها أبلوموف بنفسه ويعتاد على تصريف شؤونه الزراعية .

ـ ستتقاضى منّي ثلاثة أضعاف ماتتقاضاه الآن ، ـ قال شتولتس ، لكنني لن أبقى مستأجراً عندك لمدة طويلة ، ـ فلديّ مشاغلي وأعمالي . فلنذهب الى القرية الآن ، أو فلتتبعني قريباً . سأكون في قرية أولغا على مسافة ثلاثمائة فرسخاً عنك ، ثم أسافر الى عندك ، فأطرد وكيلك هذا وأنظمّ لك كل شيء ، ثم تتابع أنت الأمور . لن أدعك تفلت منّي .

تنهّد أبلوموف .

ـ آه من الحياة !

ـ الحياة : مالها ؟

ـ إنها تعطب ولاتمنح الهدوء ! ليتني أنام . . . الى الأبد . . .

twitter @baghdad_library

ـ أي ، ليتك تطفىء النور وتبقى في الظلام ! الحياة جميلة ياصديقي ! آه ياإيليا ! كم أتمنى لو كان تفلسفك مصيباً ! الحياة تمرّ بسرعة ، كلمح البصر ؛ وتأتي رغم ذلك لتطلب النوم وتتمناه ! فلتسطع الحياة أبداً ! آه ليت المرء يستطيع أنْ يعمّر مثّي أو ثلاثمائة سنة ! ـ ختم شتولتس كلامه ، ـ كم من الأمور كنّا نستطيع صنعهامن جديد !

ـ أنت مختلف عني ياأندريي ، ـ اعترض أبلوموف ، فلديك أجنحة للطيران : فأنت لاتعيش بل تطير ؛ لديك مواهب وإرادة ؛ لست بديناً ولا يظهر شحاذ العين عندك ، كما لايحككك قفا رأسك . فتكوينك مختلف عنّي . . .

ـ كفى ! الإنسان خُلِق ليتدبرّ أموره وحتى ليغيّر طبيعته ، أما أنت فقد أطلقت لبطنك العنان فأصبح كبيراً ، ثم تأتي لتقول بأنّ الطبيعة قد أرسلت لك هذا العبء ! كانت لديك أجنحة أيضاً ، لكنك رميتها .

ـ (بكآبة) أين هي أجنحتي ؟ـ فأنا لاأعرف أنْ أفعل شيئاً . . .

ـ تقصد بأنك لاتريد أنْ تفعل شيئاً ـ قاطعه شتولتس . ـ فلا يوجد إنسان لايستطيع أنْ يفعل شيئاً ؛ أقسم أنه لايوجد !

ـ أنا لاأعرف شيئاً ! ـ قال أبلوموف .

ـ كيف لاتعرف أن تكتب عريضة إلى البلدية ، أو رسالة الى صاحب الشقة ، التي كنت تسكنها سابقاً ، في الوقت الذي كتبت فيه رسالة مطولة الى أولغا ؟ زد على ذلك ، أنّ الورقة التي خططّتْ عليها

رسالتك ، كانت ملساء ناعمة والحبر الذي كتبت به ، من المخزن الإنكليزي ، والخطّ كان رشيقاً جميلاً .

كيف استطعت أنْ تفعل ذلك كله ؟

احمرّ أبلوموف خجلاً .

— ماإنْ شعرت بالحاجة ، حتى تجلت الأفكار واللغة الجميلة ؛ فرسالتك تصلح لأنْ تنشرَ في إحدى الروايات . تختفي الحاجة ، فتقول بأنك لاتعرف ثم تتذرّع بعينيك وبالضعف في يديك ! فمعرفتك فقدتها منذ الطفولة ، في أبلوموفكا ، وسط العمّات والمربيّات والجدات .

ابتدأ ذلك بعدم معرفتك لبس الجوارب ، وانتهى بعدم معرفتك العيش .

— قد يكون ذلك كله صحيحاً ياأندريي ، لكن لم تعد هنالك فائدة ؛ فذلك لايمكن إصلاحه ! — قال إيليا وهو يتنهّد بيأس .

— كيف لايمكن إصلاحه ! — اعترض شتولتس بغضب . — ياله من هراء ! اسمع وافعل ماأقول ، وسترى كيف تصلح كل شيء !

لكن شتولتس سافر إلى القرية لوحده بينما بقي أبلوموف ، بعد أنْ قطع وعداً ، بأنّه سيسافر الى أبلوموفكا في الخريف .

— ماذا أقول لأولغا ؟ — سأل شتولتس أبلوموف قبيل سفره .

أطرق أبلوموف برأسه وصمت بكآبة ، ثم تنهّد بعد ذلك .

— لاتذكّرْها بي ! — قال أخيراً بارتباك ، — قل لها بأنك لم ترني ، ولم تسمع عن أخباري شيئاً .

twitter @baghdad_library

ـ لن تصدقني ، ـ قال شتولتس معترضاً .

ـ قل لها ، بأنني قد هلكت ومتّ ، وضِعْتُ نهائياً

ـ ستبكي وستظل طويلاً دون أنْ تجد السلوان .

تفكر أبلوموف بكثير من الحنان ، وأصبحت عيناه نديتين مخضلتين بالدموع .

ـ حسناً ، سأختلق لها شيئاً ، كأنْ أقول بأنك تعيش على ذكراها ، ختم شتولتس كلامه ، ـ وانك تبحث عن هدف جدّي صارم . سأقول لها : تذكّري بأنّ الحياة نفسها والعمل ، هما هدف الحياة ، لا المرأة : تلك هي خطيئتكما معاً . كم ستكون راضية !

ثم تودعا .

في مساء اليوم الذي أعقب عيد إيليا ، اجتمع تارانتييف وإيفان ماتفييتش من جديد في الحانة .

ـ شاي ! ـ طلب إيفان ماتفييتش بكآبة ، ثم أعاد زجاجة الروم بغضب الى النادل ، عندما أحضرها له هذا الأخير بالإضافة الى الشاي . ـ ليس هذا هو مشروب الروم الحقيقي ! ـ قال تارانتييف وهو يخرج من جيب معطفه زجاجة ، كان يحملها ، ففتحها وناوله إياها ليشمّها :

ـ هذا روم حقيقي ! لاحظ إيفان ماتفييتش .

ـ لقد ساءت أمورنا ! . قال ماتفييتش مخاطباً تارانتييف .

ـ أي شيطان جاء به الى هنا ! ـ قال تارانتييف بغضب . ـ كم

هو ماكر هذا الألماني ! أفسد علينا خطتنا واستأجر أبلوموفكا ! هل سمع أحد عندنا بمثل هذا .

— أخشى أن يَعرِفَ حقيقة الأمر . فاذا ماعرف بأنّ الأموال قد جُبِيت من الفلاحين ، واستلمناها نحن ، فانّ أمورنا ستسوء . . .

— أراك قد جبنت ياإشبيني ! فليست هذه هي المرة الأولى ، التي يغرز فيها زاتيرتي مخالبه بأموال الإقطاعيين ، فهو يعرف كيف يخلص نفسه . فالمستندات والوصولات التي يعطيها للفلاحين : يعطيها على انفراد ماإن يعرف الألماني ذلك ، حتى يحزن ويصرخ . فالمسألة قد نُفّذَتْ بإتقان !

— هكذا ؟ — قال موخاياريف وقد انفرجت أساريره . لنشرب إذن .

صبّ الروم لنفسه ولتارانتيف .

— تنظر من حولك ، فيُخيّل بأنّ الحياة مستحيلة في هذا العالم ، لكن ماإنْ تشرب حتى تحلو العيش ! — قال معللاً نفسه .

— أما أنت ، فيجب أنْ تتصرّف على النحو التالي ، — تابع تارانتييف ، — قم باجراء بعض الحسابات ، على هواك ، كأنْ تسجّل ديوناً على أبلوموف مقابل مصروفات وهمية كالحطب والملفوف وأيّ شيء آخر .

وعندما يأتي زاتيرتي نقول . بأنّ النقود التي جمعها من الفلاحين قد ذهبت لتغطية الديون التي يتوجب على أبلوموف أنْ يسدّدها لك .

twitter @baghdad_library

— لكنه قد يأخذ الحسابات ويعطيها للألماني فيكتشف الأخير ، بأن ...

— كن مطمئناً ! سيضع أبلوموف كشف المصاريف في مكان ما ، لن تعثر عليه حتى الشياطين . كما أنه سينسى الموضوع تماماً قبل أن يأتي الألماني . . .

— حسن ، لنشرب إذن . . قال إيفان ماتفييتش وهو يملأ الكأس. كم هو رائع هذا المشروب : فثمن الزجاجة ثلاثة روبلات . ما رأيك بأن نطلب حساءً من اللحم والتوابل ؟

— ممكن .

— أيها النادل ، تعال !

— ياله من ماكر ! « دعني أتحدث عن موضوع الإستئجار » ، - بدأ تارانتييف من جديد حديثه بغيظ ، فنحن الروس لايخطر ببالنا مطلقاً شيء كهذا ! ففكرة الإستئجار هذه تفوح منها رائحة الألمان . فهناك المزارع وعقود الإيجار . وهناك أيضاً موضوع الأسهم . انتظر . فلا بد أن يجره للمشاركة في مسألة الأسهم .

— ماذا تقصد بالأسهم ؟ — سأل إيفان ماتفييتش — . إنني لاأفهم جيداً مدلول هذه الكلمة .

إنها بدعة ألمانية ! — قال تارانتييف بغضب . — يأتي أحد المحتالين على سبيل المثال ، فيطرح مشروعاً لبناء منازل ، غير قابلة للإحتراق ، ويبدأ ببناء مدينة سكنية . لكنه يحتاج من أجل تنفيذ ذلك الى مبالغ كبيرة ، فيطرح

أوراقاً مصرفية للبيع على شكل أسهم ، ولنقل بقيمة خمسمائة روبل للسهم الواحد . فتأتي حشود البلهاء وتشتري . تُروَّجُ الشائعات ، بأنّ المشروع يسير بنجاح ، فترتفع أسعار الأسهم ، وفجأة يفلس المشروع .

فلا يبقى لدى المساهمين إلا المستندات الورقية فقط ، دون النقود . يسألون :

أين المدينة ؟ فيجابون بأنها احترقت ولم يكتمل بناؤها ، وأنّ المهندس المصمّم قد سرق النقود وهرب . تلك هي لعبة الأسهم ! سيورّطه هذا الألماني في تلك اللعبة ! حتى انني أستغرب كيف لم يورّطه حتى الآن ! لكنني كنت أعيق ذلك . وأساعد مواطني !

ــ هذه الفقرة منتهية : فالمسألة تقررت وحُفِظَتْ في الأرشيف ؛ لن نستفيد بعد الآن من أبلوموفكا ،ولن نحصل على المزيد من المال . . . ــ قال موخاياريف وقد سكر قليلا .

ــ الى الشيطان ! ــ اعترض تارانتييف وقد سكر أيضاً . ــ يوجد مصدر دائم للحصول على الأموال ، اغرِفْ ولا تتعب . لنشرب !

ــ عن أي مصدر تتكلم ؟ فأنا أجمع طيلة حياتي بالروبل ، أو بالثلاثة روبلات ، على أبعد تقدير . . .

ــ لكنك تجمع منذ عشرين عاماً ياإشبيني : فلا ترتكب إثماً !

ــ منذ عشرين عاماً ! ــ قال إيفان ماتفييتش بلسان متلعثم ، ــ لكنك نسيت بأنه لم تمض إلا عشر سنوات فقط ، منذ أن عملت سكرتيراً. سابقاً لم يكن يتواجد في جيبي إلا قطعة من فئة العشرة كوبيكات ، أو

twitter @baghdad_library

العشرين كوبيكاً ، كما أنني كنت أحياناً ، وهذا أمر يصعب عليّ قوله أجمع النقود النحاسية . أية حياة هذه ! آه ياصديقي ! كم يوجد في هذا العالم أناس سعداء ، تمتلىء جيوبهم بالأموال بمجرّد أنْ يهمسوا ، أو يضعوا توقيعهم على ورقة صغيرة ، أو يملوا سطراً واحداً على أحد . ليتني أحتلّ منصباً كمنصبهم ، – أخذ يحلم بعد أن استولى عليه السُّكر أكثر فأكثر ، لأستقلّ العربة وأذهب الى « النادي ! » – وهناك أتناول طعاماً فاخراً وأشرب المشروبات . فلا أعود أتذكّر المأكولات التي نلتهمها الآن ، بل أطلب عندها الفراريج وغيرها من الأطعمة ، التي لاتخطر على بال ! وفي البيت ، تستقبلني زوجتي وقد ارتدت أبهى حلة ، أما الأولاد فتراهم في أحسن حال ، لديهم مربيتهم ، التي تعتني بنظافتهم وملبسهم وتسريحة شعرهم . آه ياصديقي . متى يتحقق ذلك كله ! الجنة موجودة ، لكن الذنوب تمنعنا من الدخول إليها ! لنشرب ! هاهم يجلبون لنا الحساء !

– لاتشتمك ولاترتكب إثماً : فرأس المال موجود وجيّد . . . –

قال تارانتييف وقد أصبحت عيناه حمراوين كالدم من شدة السّكر – فخمسة وثلاثون ألفاً من النقود الفضية ليست مزحة !

– اخفِضْ صوتك ، اخفِضْ صوتك ! – قال إيفان ماتفييتش مقاطعاً . –

وماذا تفعل الخمسة والثلاثون ألفاً ! فحتّى الخمسون ألفاً لاتُدْخِل الجنة .

ماإن يتزوّج المرء ، حتى يحسب حساباً للروبل الواحد ، فلا يعود يجرؤ على التفكير بمشروب الروم الجامايكي الفاخر – أية حياة هذه ! .

– اكتناك بالمقابل تجمع هذه النقود بهدوء وراحة بال : فلا مشقات ولا مماحكات ، ولا أعباء ولا دخان . لا ياأخي ليس من حقك أن تشتكي !

لم يكن إيفان ماتفييتش يسمعه أو يصغ إليه ، لأنه كان يفكر بأمرٍ ما منذ بعض الوقت .

- اسمعْ ، – بدأ فجأة وهو يحملق بعينيه ، وقد بدا على وجهه السرور ، لدرجة أنّ السُكْر قد زال تقريباً ، – لكنني خائف ، فلن أقول ، ولن أبوح بفكرتي لأحد .

فلنشرب ، فلنشرب !

- . لن أشرب حتى تقول ، – قال تارانتييف وهو يبعد الكأس .

– المسألة في غاية الأهمية ياإشبيني ، – همس موخاياريف وهو ينظر الى الباب .

– ماهي ؟ . . . – سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

– إنها كنز ثمين . فهي تدرّ من الأموال مثلما يدرّ توقيع موظف كبير على قضية هامة .

– مابلك ؟ ألن تقول ؟

– والبقشيش ؟ والمنفعة التي سنحصل عليها ؟

– لماذا لاتقول ؟ – حثّه تارانتييف .

twitter @baghdad_library

ـ انتظر ، دعني أفكر أيضاً . سأقول لك كل شيء . فأنت ضروري جداً من أجل إنجاح المسألة : فبدونك لايمكن تحقيقها . لكنّ المسألة في غاية الأهمية ، فأرجو ألاّ تبوح بها لأحد .

ـ وهل أنا شخص غريب عنك ؟ فلقد خدمتك كثيراً ، وكنت مؤتمناً على أسرارك . . . ألاّ تذكر ؟ يالك من خنزير !

ـ إشبيني ، اشبيني ! امسِكْ لسانك . إنك تقصف كالمدفع تماماً !

ـ أي شيطان يمكن أنْ يسمع هنا ؟ فأنا من يحافظ على الأسرار ، ويدرك أهمية الأمور . ـ قال تارانتييف بأسى . . . لماذا تعذبني ؟ هيّا ، قل . . .

اسمَعْ : أنت تعرف بأنّ إيليا إيليتش جبان . لايعرف أي شيء عن القوانين : إنه لايفقه شيئاً ، فقد وقّع العقد ، دون أنْ يقرأه ، ووافق على إرسال زاتيرتي ، حتى أنه لايعرف مقدار المبالغ التي يستلمها . فهو يقول : « أنا لاأعرف شيئاً . . . » .

ـ وماذا أيضاً ؟ ـ سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

ـ إنه الآن يتردّد غالباً الى أختي . يجلس عندها ساعات طويلة . ومنذ مدة قريبة ، صادفني في الممشى ، وكأنه لم يرني . لذا فانه من الضروري أنْ نراقب ما سيحصل . . . تحدّثْ إليه على انفراد ، وقل له بأنه من غير اللائق أن يتصرف تصرفاً شائناً مع أرملة . قل له ، بأننا نعرف كل شيء وأنّ تصرّفه هذا يؤثر على مستقبلها وزواجها ؛ قل له أيضاً ، بأنّ تاجراً غنياً جاء ليخطبها ، لكنه سمع الآن بأنك تجلس عندها في الليالي ، فصرف النظر عن الخطوبة .

ـ وما الفائدة من ذلك كله ؟ سيخاف ويتهاوى على الفراش ثم يتقلّب من جنب الى جنب ، وهو يتنهد ويتأوه ،ـهذا كل مافي الأمرـ قال تارانتييف . ـ ماهي المنفعة التي سنجنيها ؟ أين البقشيش والنعمة؟

ـ مهلاً ، فأنا لم أكمل بعد ! قل له بأنني أريد أنْ أشتكي ، وأنّ هناك شهوداً موجودون . .

ـ وماذا ؟

ـ واذا لاحظت بأنّ الخوف قد استولى عليه تماماً ، فقل له بأنّ المصالحة ممكنة إذا ماضحيت بمبلغ من المال .

ـ ومن أين يأتي بالنقود ؟ ـ سأل تارانتييف . ـ فالمسألة ليست مسألة وعود ، فلو كانت كذلك لهانت الأمور ، لأني متأكد بأنه سَيَتَعِدُ بدفع عشرة آلاف روبل ، بسبب الخوف .

لكنْ من أين سيحصل على النقود ؟

ـ اعطني إشارةً عندئذ لأعِدّ على الفور سند دين عليه . . . باسم أختي كأنْ أكتب :

« أنا المدعو أبلوموف أقر وأعترف بأنني اقترضت من الأرملة . . . عشرة آلاف روبل أدفعها خلال فترة . . . الخ ») .

ـ وما النفع الذي سنجنيه من ذلك ؟ لاأفهم : فالنقود ستكون من نصيب أختك وأولادها . أين النعمة والبقشيش ؟

ـ أختي ستكتب على نفسها سند دين بنفس المبلغ ، وستوقّعه .

ـ وإذا لم توقّع ؟ واذا ماعاندت ؟

twitter @baghdad_library

— أختي ؟

بدأ إيفان ماتفييتش يضحك .

— ستوقّع ياإشبيني ، ستوقّع ، حتى بدون أن تسأل أو تعرف على أي شيء وضعت توقيعها . المسألة ستصبح على النحو التالي : بشينيتسينا تدّعي على أبلوموف ، ونحن بدورنا نَدّعي عليها . فليفعل الألماني عندئذ مايريد !

المسألة قانونية ! — قال ماتفييتش وهو يرفع يديه المرتجفتين الى الأعلى . — فلنشرب نخب فكرتنا هذه !

— وبعد أنْ تمرّ المسألة بنجاح ، يمكننا أنْ نعيد الكرّة أيضاً بعد سنتين ، فالمسألة قانونية !

— حسناً !

ثم شربا .

— لكنني أخشى أنْ يعاند مواطنك ويكتب مقدماً الى الألماني حول الموضوع ، — لاحظ موخاياريف بهلع ، — عندها ستسوء الأمور ! ويصبح تدبير الأمر صعباً ، فهي أرملة ، لافتاة صغيرة !

— كلا ، لن يكتب ! — قال تارانتييف — وإذا عاند فسأوبخه . . .

— كلا ، كلا ، فالأمر خطير ! قد يقول ، بأننا ضربناه وأرغمناه على ذلك ، وعندها تصبح المسألة جنائية . كلا فهذا الأسلوب لاينفع . من الأفضل أن تدعوه أولاً الى غداء أو عشاء ، فنأكل ونشرب ، فهو يحب الشراب الروحي المنقوع بعنب الثعلب . وعندما يظهر تأثير المشروب عليه

نقدّم له الورقة ، فيوقّعها دون أنْ يعرف مقدار المبلغ ، كما فعل لدى توقيعه عقد الإيجار . وسيكون من العار بالنسبة له كسيد نبيل أن يعترف فيما بعد ، بأنه وضع توقيعه وهو فاقد الوعي ، فالمسألة قانونية !

أجل ، المسألة قانونية ! — كرر تارانتييف .

— فلتكن أبلوموفكا عندئذ من نصيبنا كورثة .

— فلتكن ! لنشرب نخب ذلك .

— في صحة البلهاء ! — قال إيفان ماتفييتش .

ثم شربا .

— ٣ —

يجب أن نعود الى الوراء قليلاً ، الى ماقبل مجيء شتولتس في يوم عيد تسمية أبلوموف ، الى مكانٍ بعيد جداً عن ناحية فيبورغ . هناك ستلتقي وجوهاً معروفة للقارىء . لم يقل شتولتس عنها كل شيء يعرفه لأبلوموف ، بفعل أسباب وتصورات خاصة ، ولربما كان سبب ذلك لأنّ أبلوموف لم يستفسر عنها بما فيه الكفاية لأسباب وتصورات خاصة أيضاً .

ذات مرة كان شتولتس يسير في أحد شوارع باريس . وهو ينظر بشرود الى المارة ولافتات المخازن ، دون أن يوقف بصره على شيء . فمنذ زمن طويل ، لم يستلم أية رسالة من روسيا ، أو كييف أو أوديسا أو بطرسبورغ . كان الضجر بادياً عليه . وهو عائد من البريد الى البيت بعد أن أرسل ثلاث رسائل أخرى .

twitter @baghdad_library

توقفت عيناه فجأة على أحدٍ ما بكثير من الدهشة . لكنهما استعادتا من جديد وضعهما الطبيعي المألوف . شاهد سيدتين تدخلان الى أحد المخازن .

«كلا . لايمكن . — تفكّر شتولتس . — ياللغرابة ! لايُعْقَل ذلك ! إذ كنت سأعرفهما » .

لكنه على الرغم من ذلك ، اقترب من واجهة هذا المخزن وأخذ ينظر الى السيدتين عبر الزجاج :

« لم يستطع أنْ يتبيّن حقيقة شخصيتهما ، لأنهما كانتا تقفان وقد أدارتا ظهرهما صوب الواجهة » .

دخل شتولتس الى المخزن وأخذ يشتري شيئاً ما . استدارت إحدى السيدتين تجاه الضوء ، فكانت أولغا إيلينسكايا ! أراد أن يندفع نحوها ، لكنه توقف وصار ينظر إليها بامعان .

ياإلهي ! أي تبدل طرأ عليها ! هي وليست هي . الملامح نفسها ، لكنها شاحبة مهمومة ، عيناها غائرتان ، لاأثر للبسمة على شفتيها ، فوق حاجبيها ترقد فكرة كئيبة رزينة ، وعيناها تحكيان الكثير مما لم تعرفاه من قبل . لم تعد نظرتها حيوية متلألئة هادئة كما كانت سابقاً . تعطي وجهها كله سحابة من الحزن والاسى .

اقترب منها . تحرك حاجباها قليلاً ، نظرت إليه بارتباك للحظة ، لكنها عرفته بعد ذلك : ارتفع حاجباها ثم استقرا بشكلٍ متماثل ، التمعت عيناها بشعاعٍ من السرور ، الهادىء ، غير الجامح ، لكن

العميق . لكنّ أيّ أخٍ سيكون سعيداً بلا ريب ، إذا مافرحت أخته الغالية بلقائه ، كما فرحت أولغا بلقاء شتولتس .

– ياإلهي هذا أنت ؟ قالت بصوت عارم بالبهجة والفرح .

التفتت عمتها بسرعة ، وبدأ الجميع بالتكلّم دفعةً واحدة .

عاتبهما ، لأنهما لم يكتبا إليه ، بينما أخذتا تبرّران سبب ذلك . فها هما تبحثان عنه لليوم الثالث بلا انقطاع ، أي منذ وصولهما . قيل لهما بأنّه سافر الى لندن فأصبحا في حيرة من أمرهما ، لايعرفان ماالعمل .

– (معاتباً) كيف خطرت لكما فكرة السفر ؟ تأتيان الى هنا دون أن تكتبا كلمة واحدة !

– قررنا السفر بسرعة . لذا لم نكتب إليك ، – قالت العمة – فأولغا أرادت أن تجعلها مفاجأة . نظر الى اولغا : لم يكن وجهها يؤكدّ كلمات عمتها . أخذ ينظر إليها بمزيد من الإمعان ، لكنها كانت منيعة ، عصّيةً على الرصد والمراقبة .

« ماذا جرى لها ؟ – تفكر شتولتس . – سابقاً كنت أخمّن مابداخلها ، أما الآن . . . فقد تغيرت كثيراً ! » .

– كم تطورتِ ونَضَجت ياأولغا سيرغييفنا – قال شتولتس بصوت مسموع ، –كدت ألاّ أعرفك ! مع أنه لم يمض على فراقنا أكثر من سنة ، لم نتقابل فيها . ماذا كنت تفعلين ؟ ماذا حدث لك ؟ تكلّمي ، تكلّمي !

– لاشيء ، – قالت أولغا وهي تنظر الى قطعة قماش .

twitter @baghdad_library

— كيف أصبح غناؤك ؟ — قال شتولتس ، وهو يتابع تفحص أولغا الجديدة بالنسبة له ، ويحاول أن يقرأ التغيّرات الجديدة ، غير المألوفة ، البادية على وجهها ؛ لكنّ هذه التغيّرات كانت تتبدّد وتختفي كالبرق .

— لم أغنّ منذ زمن بعيد ، منذ شهرين ، — قالت بعدم اكتراث .

— وأبلوموف ، كيف أحواله ؟ — سأل فجأة — هل مازال حياً ؟ لماذا لايكتب ؟

— ربما كانت أولغا ستكشف عن سرها في هذه اللحظة ، لو لم تسرع عمتها لنجدتها .

تصور ، — قالت العمة ، وهي تخرج من المخزن ، — أنه كان يأتي إلينا يومياً ، ثم اختفى بعد ذلك فجأة وعندما عزمنا على السفر الى الخارج ، أرسلت أستفسر عنه ، فقيل بأنه مريض لايستقبل أحداً : وهكذا لم نتقابل .

— وأنت ، ألا تعرفين ؟ — سأل شتولتس أولغا باهتمام .

كانت أولغا تتابع بنظرها عربة ، كانت تمر بالقرب .

— لقد ساءت صحته حقاً ، — قالت أولغا ، وهي تنظر باهتمام متصنّع الى العربة — . انظري ياعمتي ، يبدو لي أنّ رفاقنا في السفر ، هم الذين كانوا في هذه المركبة .

— كلا أريدك أن تخبريني عن أحوال عزيزي إيليا ، — قال شتولتس باصرار ، — ماذا فعلت له ؟

لماذا لم تجلبيه معك ؟

— لكن عمتي قد أخبرتك منذ برهة ، — قالت أولغا .

— إنه كسول جداً ، — لاحظت العمة ، — ومتوحش لايعرف أصول اللياقة ، فما ان يأتي لعندنا بعض الناس ، حتى يغادر فوراً . تصوّر ، انه اشترك في حضور حفلات الأوبرا ، لكنه لم يحضر إلا نصف الحفلات فقط .

كما انه لم يسمع روبيني ، — أضافت أولغا .

هز شتولتس برأسه وتنهّد .

— كيف قررتما السفر فجأة ؟ هل ستمكثان طويلاً ؟ .

— لقد أتت بناء على نصيحة الطبيب ، — قالت العمة وهي تشير الى أولغا . فمناخ بطرسبورغ قد ألحق الضرر بصحتها بشكل ملحوظ ، لذا قررنا أن نسافر ونمضي الشتاء في الخارج ، لكننا لم نقرّر بعد أين سنمضيه : في نيس أم في سويسرا .

— أجل لقد تغيّرت كثيراً ، قال شتولتس متأملاً وهو ينظر الى أولغا بإمعان ويتفحّص كل عرقٍ من عروقها .

أمضت أولغا وعمتها نصف عام في باريس : وكان شتولتس طيلة هذه المدّة دليلهما وجليسهما الوحيد الدائم .

بدأت صحة أولغا تتحسّن بشكل ملحوظ : فقد تحوّلت من حالة الشرود الى الهدوء وعدم المبالاة . هكذا كانت تبدو على الأقل من الخارج . لكن الله وحده ، هو الذي كان يعرف مايعتمل في داخلها ، لكنها صارت تعود رويداً رويداً الى وضعها السابق المألوف بالنسبة

twitter @baghdad_library

لشتولتس ، على الرغم من أنّ ضحكتها الطفولية الرزانة العذبة قد اختفت فأصبحت تبتسم ابتسامة متحفظة فقط ، عندما كان شتولتس يضحكها . حتى أنّ الأسى والحزن كان يبدوان عليها أحياناً ، لأنها لم تكن تستطيع أن تضحك كما كانت تضحك سابقاً .

سرعان ماأدرك شتولتس عجزه عن إضحاكها : غالباً ما كان ردّ فعلها على نكتة قالها شتولتس ، مقتصراً على حركة غير متماثلة لحاجبيها ، فتكتفي بأنْ ترفع أحدهما أكثر من الآخر قليلاً مع ثنية على الجبين ، دون أنْ تبتسم ، ثم تتابع النظر إليه بطريقةٍ تبدو لمن يراها ، وكأنّها تلومه على خفة عقله واستهتاره . وفي بعض الأحيان كانت تردّ على نكتته بسؤال جدّي مفاجيء ، مصحوب بنظرة ملحاحة ، الأمر الذي كان يشعره بنوعٍ من الإرتباك والخجل بسبب حديثه الفارغ المستهتر .

أحياناً ، كان يبدو عليها تعب داخلي ، ناجم عن ثرثرة الناس اليومية وركضهم المستمر وجلبتهم ، الأمر الذي كان يضطر شتولتس لأنْ يتحوّل فجأة الى أسلوب آخر ، لم يكن يستخدمه مع الناس إلاّ نادراً ومضطراً ، وبغير رغبةٍ منه .

كم أنفق من الجهد الذهني والحيل ، من أجل أنْ تصبح نظرة أولغا واضحة صافية هادئة ، لاتبحث عن شيء آخر يتجاوز وجوده ويتجاهله!

كم كان يتعذّب عندما كانت تصبح نظرتها صارمة مليئة بالجفاء ، وهي تقطّب حاجبيها فترتسم على وجهها ظلال صامتة ، لكن عميقة من عدم الإرتياح ، بسبب توضيح متهاونٍ صادر عنه .

كان عليه بعد ذلك أنْ ينفق يومين أو ثلاثة أيام من الجهد الذهنيّ المتواصل وحتّى من الحيلة ، وأنْ يستخدم كل خبرته في التعامل مع النساء ، كي يعيد رويداً رويداً ، وهذا ما كان يتمّ بصعوبة فائقة ، الإشراقة الى وجه أولغا ، وأشعة الضياء الى قلبها والوداعة والتسامح الى نظرتها وابتسامتها .

وفي نهاية اليوم كان يعود إلى البيت وقد أنهكه هذا الجهد المضني ، لكنه كان يشعر بفيض من السعادة عندما كان يخرج منتصراً .

« ياإلهي كم نضجتْ ! كم تطوّرتْ هذه الفتاة ! من كان معلمها ؟ أين تلقت دروس الحياة الغنية هذه ؟ هل من البارون ؟ لكن المرء لايستطيع أن يستفيد من عباراته المعسولة شيئاً ! أمِنْ إيليا تلقت دروسها ! . . . »

لم يكن يستطيع أن يفهم أولغا ، وفي اليوم التالي كان يذهب إليها من جديد ، ويدرس بحذر وخوف وبكثير من الصعوبة ، من خلال الإستعانة بذهنه وخبرته الحياتية ، التساؤلات والشكوك والمطالب ، أي كل ماكان يرتسم على محياها من تعبيرات وأمارات .

كان يغوص في متاهات ذهنها ، وهو يمسك ضوء خبرته بيديه ، فيكتشف ويدرس كل يوم ، السمات والحقائق الجديدة الكامنة في أعماقها ، دون أن يتمكّن من الوصول إلى أعماق روحها ، بل يكتفي بأنْ يتابع فقط ماينشره ذهنها من أهدافٍ ومثل ، وما تطلبه روحها المتأججة أبداً ، من خبرة وحياة .

twitter @baghdad_library

وبالأضافة الى نشاط شتولتس كله ، وحياته الزاخرة كلها ، كانت تتأصّل عنده حياة أخرى ، ونشاط آخر : فبعد أنْ أحاط أولغا بجو جديد مريح ، وبكتب وألبومات ودفاتر نوتات جديدة ، اطمأنّ شتولتس ، لأنه قد ملأ أوقات فراغ صديقته بأمور مفيدة هامة ، لذا فانه أصبح يعمل ويتنقل بحثاً عن مخطوطات جديدة هامة ، ويخالط الناس ويتعرف عليهم ويتقابل مع شخصيات جديدة رائعة ، ثم يعود بعد ذلك الى صديقته أولغا منهكاً متعباً . فيجلس بالقرب من البيانو ويستمتع بنغمات صوتها العذب ويستريح من الجهد والتعب . لكنه كان يقرأ على وجهها ، وفي نظرتها أسئلة جاهزة ومطالب ملحة تتعلق بما قام به من نشاطات وأعمال . ثم يبدأ دون أنْ يشعر بتقديم تقرير شفوي إليها عما شاهد وعمل .

أحياناً كانت أولغا تبدي رغبتها برؤية ومعرفة ماشاهده وعرفه شتولتس . فكان يكرر عمله : فيذهب ليشاهد مبنى ، أو مكاناً ، أو آلة ويقرأ الأحداث التاريخية على الجدران والأحجار .

أخذ يعتاد تدريجياً على أنْ يفكر ويفضي بأحاسيسه بحضورها بصوت مسموع ، فقد كشف السرّ ذات مرة ، وبشكل مفاجىء ، بأنه لم يعد يحس بالوحدة منذ مجيء أولغا الى باريس ، وأن حياته أصبحت مرتبطة بحياتها .

كان يجري بوجودها عن غير عمد تقريباً ، نوعاً من التقويم لما أحرزه واكتسبه ، ثم يدقق بعد ذلك باهتمام ، ليرى إن كان قد بقي في

نظرتها شيء من التساؤل ، وليتأكد من ارتسام شعاع الإرتياح والسرور على محياها ، وليتفحص إنْ كانت نظرتها تشيّعه كمنتصر .

فاذا ماتأكد من ذلك كله ، فانه كان يعود الى البيت بكثير من الفخار والإعتزاز المصحوبيْن بشيء من الاضطراب الخافت المحبب ، ويحضّر نفسه سراً . طوال الليل تقريباً . ليوم الغد . فأكثر الأعمال مللاً وإلزاماً لم تكن تبدو جافة مضجرة بالنسبة له ، بل ضرورية فقط :

لأنّها كانت تندرج في أساس الحياة ونسيجها ؛ أما الأفكار ، والملاحظات والظواهر فلم تكن تتكوّن بصمت وتهاون ، بل كانت تضفي على الأيام رونقاً وبهجة .

أي بريق قد غمر وجه أولغا الشاحب عندما أسرع شتولتس ليضع أمامها بكثير من الحيوية والعاطفة دون أن ينتظر نظرتها المتسائلة الثاقبة ، ذخيرة جديدة ، ومعلومات جديدة !

وكم كان شتولتس سعيداً أيضاً ، عندما سارع ذهنها بكثيرٍ من الاهتمام والامتثال العذب . ليتلقف كل مافي نظراته وكلماته من معانٍ ومدلولات . فأصبح كل منهما ينظر إلى الآخر : صار ينظر إليها ليرى إن كان قد بقي في عينيها شيء من التساؤل ؛ بينما راحت تنظر إليه بدورها لترى إن كان قد بقي شيء لم يكشف عنه أو إن كان قد نسي شيئاً لم يقله ! هل أهمل شيئاً يساعدها على فهم واكتشاف كل ماهو عصيٌ عليها ، متعذرٍ على إدراكها ؟

وكلما ازدادت المسألة أهمية وتعقيداً ، وكلما أصبح التوضيح من

twitter @baghdad_library

جانبه أكثر اهتماماً وتوكيداً ، فانّ نظرتها الشاكرة المعترفة بالجميل ، كانت تزداد وضوحاً ودفئاً وعمقاً وعاطفةً .

« أولغا ، أيتها الطفلة ! — كان يسرّ الى نفسه بدهشة . — أصبحت تتفوّقين عليّ ! »

أصبح يفكر بها . كما لم يفكّر بأحد أو بشيء من قبل . في الربيع ، يسافر الجميع الى سويسرا . كان شتولتس قد قرر منذ أن كان في باريس ، بأنّه لايستطيع أن يعيش بعد الآن بدون أولغا . وبعد أن حسم شتولتس الأمر واتّخذ قراراً نهائياً بهذا الصدد ، بدأ يفكّر إن كانت أولغا تستطيع أن تعيش بدونه ، لكنّ حلّ هذه المسألة ، لم يتيسر له بسهولة .

كان يقترب من هذه المسألة ببطء وبحذر ، يتلمس الأمور تارةً ، ويفكر بجرأةٍ تارةً أخرى ، وهو يقول ها هو ذا قد أصبح قريباً من الهدف وسيحصل بالتأكيد على أمارة أو نظرة أو كلمة ؛ على بادرةٍ سارّة أو محزنة : إذ لايلزم إلا حركة صغيرة ، او إشارة بسيطة من حاجبي أولغا ، أو تنهيدة منها ، حتى ينكشف السر ويتّضح بأنه : محبوب !

كان يقرأ على وجهها ثقة واضحة به ؛ كانت تنظر إليه أحياناً ، كما لم تنظر إلى أحدٍ أبداً ، كانت تنظر إليه كما كان يمكن أن تنظر الى أمها فقط . لو كانت على قيد الحياة .

لم تكن اولغا تعتبر مجيئه إليها ، وأوقات الفراغ . التي يمضيها معها ،

معروفاً أو مجاملة أو إطراءً لها ، بل كانت تعتبر ذلك كله ببساطة واجباً يؤديه كأخٍ وأبٍ وحتى كزوج . كانت تتصرّف معه في كل خطوة تخطوها ، وفي كل كلمة تقولها بحرّية وبصدق ، كما لو أنه كان يتمتّع عندها بتأثير كبير وبنفوذ لاجدال فيه .

كان يعرف منزلته عندها ؛ كانت تؤكد له ذلك في كل لحظة ، وتقول بأنها لاتثق إلاّ به ، ولا تستطيع أن تعتمد على أحد في هذا العالم ، مثل ماتعتمد عليه .

كان فخوراً بذلك طبعاً ، لكنّ ذلك كان يمكن أنْ يكون مدعاةً للفخر أيضاً بالنسبة لأيّ شخص كهل ذكي مجرّب ، حتى بالنسبة للبارون شريطة أنْ يتمتّع بذهنٍ ثاقبٍ وطبيعة حيوية .

لكنْ ، هل كان ذلك هو نفوذ الحب وهيبته ؟ — تلك هي المسألة. هل يمكن أنْ يكون هذا النفوذ مُغلّفاً بدرجةٍ أو بأخرى ، بخداعها الساحر ، وغرورها الفتّان ، اللذين يخلقان لدى المرأة استعداداً للخطأ ، وقدرةً على أنْ تعيش سعيدةً بخطئها ؟ . . .

كلا ، فهي تمتثل له عن وعي . صحيح ، أنّ عينيها تتلألآن عندما يطوّر فكرة أو يكشف أمامها عما يعتمل بداخله ؛ صحيح أيضاً أنها تغمره بأشعة نظرتها ، لكن السبب واضح دائماً ؛ حتى أنها تكشف بنفسها أحياناً عن السبب . لكنّ المأثرة في الحب تتمّ بلا وعي وبدون تفكير ، وفي عدم التفكير والوعي ، تكمن السعادة .

وعندما تكون مستاءةً من شيء ، يتّضح على الفور سبب استيائها .

twitter @baghdad_library

لم يكن يترَبّص أبداً احمرار خجل مفاجىء ولاسروراً قبل الهلع ، ولا نظرة مشبوبة بالوجد ، وإذا ما حدث شيء شبيه بذلك ، فانه كان يتراءى له ، وكأن وجهها قد تشوّه من الألم ؛ وعندما كان يقول بأنه سيسافر الى إيطاليا خلال فترة قريبة ، وقلبه يتفطرّ ويتضرّج دماً بفعل تأثير هذه اللحظات الثمينة النادرة ، فانها كانت تضيف قائلة بصراحة وببساطة : « كم أنا آسفة ، لأنني لاأستطيع أنْ أسافر معك الى هناك ؛ أتمنى لو أستطيع أنْ أفعل ذلك ! لكنك ستحكي لي كل ما ستشاهده ، فتضعني بالصورة الكاملة كما لو أنني كنت هناك » .

هكذا يذهب السحر والإفتتان ضحيّة الإطراء بقدرته الفائقة على سرد ما سيشاهده بصورة حيّة .

ثم تصبح فجأة هادئة متزنة بسيطة وحتى باردة في بعض الأحيان . تراها جالسة وهي تطرّز وتصغي إليه بصمت ، فترفع رأسها أحياناً وتلقي عليه نظرات مستطلعة متسائلة . لدرجة أنه حدث أنْ رمى الكتاب وقطع الحديث أكثر من مرة بأسى وكآبة ، ثم نهض وانصرف . يلتفت إليها فترمقه بنظرة مليئة بالدهشة فيخجل ، ثم يعود ليبتدع شيئاً ما ليبرّر تصرّفه .

تصغي إليه ببساطة متناهية وتصدّق مايقول . حتى أنْ الشك والإبتسامة الماكرة ، لم يعد لهما وجود عندها .

« تحبني أولا تحبني ؟ » — كان هذان السؤالان يدوران في رأسه دائماً .

إنْ كانت تحبني حقاً ، فانني أتساءل : لماذا هي حذرة متحفظة إلى هذا الحد ؟

وإنْ كانت لاتحبني ، فانني أتساءل أيضاً : لماذا هي مجاملة مطيعة ؟ سيسافر من باريس الى لندن وسيمضي هنالك أسبوعاً ، لكنه لم يخبرها بذلك مقدماً ، بل فعل ذلك في يوم السفر ذاته .

فاذا ماتغير وجهها فجأةً وبدا الخوف عليها — فهذا يعني أنّ سرها سينكشف بالطبع . وسيكون سعيداً ! صافحته بحرارة وبأسى : فخارت قواه .

كم سأشعر بالملل لغيابك ، — قالت أولغا ، — الرغبة بالبكاء تتملكني ، فأنا الآن كاليتيمة . عمّتي !— أندريي إيفانيتش مسافر ! — أضافت بصوت يميل الى البكاء .

لكنها قطعته .

« تُكاشِفُ عمتها أيضاً ! — فكر شتولتس ، — أما كفاني ! أرى الأسى بادياً على وجهها ، فهي تحبني على الأرجح . . . أجل ، فالحب يمكن شراؤه بشيء من الإهتمام والإسترضاء ، كما تُشتَرى البضاعة في السوق ، لكن الأمر يتطلب بعض الوقت . . . لن أعود ، — فكّر شتولتس بتجهّم . — . أأتوسل إليها ! لكنها كانت مطيعة جداً فيما مضى . ماذا جرى لها ؟ » .

ثم استغرق في تفكير عميق .

ماذا جرى لها ؟ لم يكن يعرف بأنها قد أحبّت ذات مرة ، وأنها قد

twitter @baghdad_library

اجتازت مرحلة المراهقة ، التي لاتستطيع فيها المرأة أنْ تسيطر على نفسها المرحلة التي تبرز فيها اندفاعات الحب المفاجئة ويرتعش فيها القلب ، وتظهر فيها أعراض الحمى .

لو كان على دراية من الأمر ، لساعده ذلك على الأقل في كشف السبب الذي يدفعها لأنْ تنظر الى الأمور بروّية وحكمة . ولَفَهِم تصرفها وسلوكها الراهن .

في سويسرا شاهدوا كل الأماكن التي يشاهدها السياح عادة ، لكن شتولتس وأولغا كانا يترددّان أكثر مايتردّدان الى الاماكن الهادئة البعيدة التي قلما يزورها السياح ، ويتوقفان عندها بمزيد من المتعة والإرتياح . فأكثر ماكان يثير اهتمامهما ، أو على الأقل اهتمام شتولتس وشغفه ، هو « علاقتهما الخاصة » . بينما كانت مسألة التنقل والإستمتاع برؤية المشاهد الأثرية السياحية وغيرها . تحتل عندهما المركز الثاني

كان يسير وراءها في الجبل ويستمتعان برؤيةالمنحدرات والشلالات ، لكنّ أولغا كانت تسير في المقدمة دائماً . كان يسير وراءها عندما يسلكان درباً ضيقة ، بينما كانت عمتها تجلس في العربة ، في الأسفل دون أن تغادرها إلاّ نادراً ، كان شتولتس يراقب أولغا خلسةً وبانتباه . كيف ستتوقف وهي تصعد الجبل لتلتقط انفاسها ، ثم تلقي عليه نظرة بالتأكيد . قبل أنْ يجذب اهتمامها أي شيء آخر : فلقد ترسخت هذه القناعة لديه .

كان ذلك يروي ظمأه ويحسّن مزاجه : إذ كان يشعر بالإرتياح

وصفاء القلب ، لكنّ شيئاً مباغتاً كان يعكّر صفو ذلك كله ؛ كانت أولغا بعد ذلك تلقي نظرة مفاجئة على المكان وتتسمّر في مكانها ، ثم تستغرق في تأمل عميق .. لدرجة أنها لم تعد تلاحظ وجوده .

ماإن يتحرك ويذكّرها بوجوده ويتبس بكلمة ،حتى تجفل مذعورة وأحياناً تصرخ : كان يتضح بجلاء بأنها قد نسيت إنْ كان قريباً منها أم بعيداً .. أو إنْ كان موجوداً في هذا العالم .

لكنها بالمقابل . كانت تتحدث إليه طويلاً بعد ذلك في البيت بالقرب من النافذة ، أو على الشرفة ، على انفراد . بحرارة وصدق وعاطفة ، فتفضي إليه بانطباعاتها الحلوة وتتوقف أحياناً وهي ترمقه بنظرة حانية ، لتختار الكلمات والعبارات المناسبة التي تعبر عن شكرها وامتنانها لما أبداه لها من مساعدة . وأحياناً كانت تجلس في كرسيها المريح ، شاحبة وقد أنهكها التعب ، لكنّ عينيها النهمتين كانتا تنظران إليه وتقولان له ، بأنها تريد أنْ تسمعه .

كانت تصغي إليه بلا حراك ، لكنها لم تكن تفوّت كلمة أو تضيّع شيئاً مما يقوله . وعندما يصمت تظل مصغية وهي تنظر إليه بعينين متسائلتين ، فيتابع الحديث بحرارة وقوة ومتعة ، رداً على ندائها الصامت هذا .

كان ذلك يروي ظمأه ويحسّن مزاجه . فقد كان يشعر بالإرتياح وبالرعشة : فهي ماتزال معه تعيش بأحاسيسها دون أنْ تشعر بحاجة لأي إنسان آخر : فهناك عالمها وعاطفتها وعقلها . لكنها كانت تنهض فجأة

twitter @baghdad_library

خائرة القوى ، فتتغير عيناها المتسائلتان على الفور . وتطلبان منه أن ينصرف ، أو تقولان له بأنها تريد أنْ تأكل ، ثم تتناول الطعام بشهية كبيرة . . .

كل هذا يمكن أن يبدو رائعاً : لأنه ليس حالماً : فهو لايحب العواطف الجامحة المندفعة ، شأنه في ذلك شأن أبلوموف . بيد أنّ الأسباب مختلفة تماما . لكنه كان يرغب ويتمنّى ، بأنْ تسير العاطفة بخط مستقيم منتظم ، بعد أن تغلي في البداية وتجيش عند النبع بحرارة ، ليغرف منها ويشرب حتّى الثمالة . كي يعرف طيلة حياته فيما بعد منبع سعادته هذه .

تحبني أولا تحبني ؟ — كان يقول باضطراب مضنٍ ، كاد أنْ يصل به الى حد الدموع والعرق الدامي .

أصبح هذا السؤال يستولي عليه أكثر فأكثر ، ويضطرم في داخله كاللهب : فقد غدا حيوياً ملحا . ليس بالنسبة لحبه فحسب ، بل ولحياته كلها . فلم يترك في روحه وأعماقه مكاناً لأي شيء آخر . يبدو أنّ الأوبئة قد تحلقت حوله خلال هذه السنة والنصف ، فأصابته سهام الحب ولواعجه ، التي كان يتجنبها سابقاً أثناء لقاءاته مع النساء .

كان يحس بأنّ جسده السليم لن يقوى على المقاومة والصمود ، إذا مااستمرت طويلاً أشهر التوتر الذهني والعصبي هذه.لقد أدرك بأنه كان غريباً عليه حتى الآن ، كيف تُبدّد الجهود والقوى في صراعات عاطفية داخلية لاتراها العيون ، وكيف يصاب القلب بجرح لايندمل دون أنْ يسيل دماً ، وتتتابع الآهات بلا انقطاع .

أخذت ثقته بنفسه وبقواه تضعف قليلاً ؛ لم يعد ينظر باستخفاف وهو يسمع القصص ، التي تقول بأنّ الآخرين يفقدون العقل ، ويذبلون لأسباب أخرى مختلفة ، ناجمة عن الحب .

أصبح خائفاً جداً .

— كلا . سأضع حداً لهذا . — قال شتولتس ، — سأتسلّل الى روحها ، كالسابق ، وسأكون غداً ، إمّا سعيداً ، أو أرحل !

— لاطاقة لي ! — قال بعد ذلك ، وهو ينظر الى المرآة . — لقد تغيّرت كثيراً . . . كفى ! ثم توجه مباشرة الى هدفه ، أي الى أولغا .

وماذا بالنسبة لاولغا ؟ هل يُعقَل أنها لم تلاحظ حالته ؟ هل تشعر بميل نحوه ؟

لابدّ أنها قد لاحظت حالته : فالنساء مرهفات الحس مثلها ، يعرفن الفرق بين العلاقة الصداقية ، وبين المداراة والإستلطاف الرقيق المشبوب بالعاطفة . أما أنْ نفترض العبث والغنج والدلال كسمة رئيسية ملازمة لسلوك أولغا . فذلك أمر يستحيل التسليم به ، لمعرفتنا اليقينية الموثوقة بصفاتها ومزاياها الأخلاقية .

بقي أن نفترض أمراً واحداً إذا . هو أنّ أولغا كانت معجبة بذلك النوع من الرجال الأذكياء ، الذين يمتلكون موهبة وخبرة من أمثال شتولتس . لابدّ أنْ نشير بالطبع الى انّ العاطفة الجياشة التي كان يبديها شتولتس تجاه أولغا في الفترة الأخيرة ، والتي وصلت درجة العبادة ، كانت تعيد لها تدريجياً كرامتها المهانة وتضعها على نفس المنصّة التي

twitter @baghdad_library

سقطت عنها ؛ لقد أصبحت تستعيد رويداً رويداً كبرياءها وأنفتها .

لكن كيف كانت تفكّر بخصوص الطريقة التي ينبغي أن تحلّ بها حالة شتولتس المشبوبة وَجداً وعاطفةً ؟ فلا يمكن أن تظلّ حالته هذه التي يتصارع فيها حب الإستطلاع عنده لمعرفة حقيقة مشاعر أولغا تجاهه مع صمتها الدائم ، إلى مالا نهاية .

هل شعرت على الأقل . بأنّ صراعه كله ليس عبثاً . وأنه سيكسب القضية التي أنفق من أجلها كثيراً من الجهد والإرادة ؟ هل يُبدّد هذا الوجد والشوق عبثاً ؟ هل سيغرق شتولتس في أشعة هذا الوجد والحب ؟

لم تكن تدرك أو هي بوضوح شيئاً من هذا ، بل كانت تعاني حالة من الصراع النفسي ، وهي تواجه هذه الأسئلة ،دون أنْ تعرف كيف تخرج من هذه الفوضى .

كيف يجب أن تتصرّف ؟ إذ يستحيل أنْ تبقى في هذا الوضع القلق المضطرب :

فلا بدّ أنْ تخرج يوماً من هذا الصراع الداخلي . الذي تعيشه ، لتصل الى توصيف ماضيها بالكلمات ! لكن كيف تسمّي هذا الماضي . وماهي التسمية التي تطلقها على ماتحسّ به إزاء شتولتس ؟

فاذا كانت تحب شتولتس ، فكيف يمكنها أنْ تحدّد طبيعة حبها السابق ؟ هل كان نوعاً من العبث والدلال والطيش ، أم أسوأ ؟ كانت تشعر بالخجل الشديد عندما تتأمل هذه الفكرة . فمثل هذه التهمة لايمكن أن توجّهها لنفسها .

واذا كانت مشاعرها السابقة هي حبها الطاهر الأول ، فماذا تكون حقيقة علاقتها الراهنة بشتولتس ؟ هل هي أيضاً نوع من الخداع والعبث والحسابات الدقيقة ، من أجل أنْ تجذبه للزواج لتغطي طيشها ؟ . . . كانت هذه الفكرة تجعلها جامدة شاحبة منذهلة .

وإذا لم تكن علاقتها بشتولتس خداعاً ،ولا عبثاً ، ولاطيشها — فماذا يمكن أن تسميها ؟ هل تعتبر حبّاً ثانياً ؟

كانت ترتعد من هذا الافتراض : حبٌّ ثانٍ بعد سنة أو ثمانية أشهر من حبها الأول ! من سيصدّقها؟ كيف يمكن أنْ تلمح إليه دون أنْ تثير الدهشة ، ولربما ... الإزدراء ! فهي لن تجرؤحتى على التفكير بذلك لأنها لاتملك الحق .

أخذت تستعين بخبرتها وتجربتها : لكنها لم تعثر على أية أدلة تشير الى وجود حبٍّ ثانٍ . استرجعت في ذهنها خبرة العمات والخالات وأجيال الفتيات في العهود الماضية ؛ استعانت أخيراً بخبرة الكتاب ، و « المفكّرين المتخصّصين بالحب » ؛ — فلم تر إلا حكْماً قاسياً لايرحم : « المرأة تحب بصدق مرة واحدة فقط » . وأبلوموف أصدر حكمه أيضاً على هذا النحو . تذكرت سونيتشكا ، التي أحبت مرّةً ثانية ، وسمعت أيضاً من أحد القادمين من روسيا ،بأنّ صديقة لها تعيش الآنقصةحب ثالثه ...

كلا ، كلا ، فهي لاتحب شتولتس ولا يمكن أن تحبّه ! فقد أحبتْ أبلوموف . لكنّ حبها ذاك قد ذبل . فذبلت معه الحياة وإلى الابد ! إنّ

twitter @baghdad_library

ماتحسّ به تجاه شتولتس ، هو نوع من الصداقة المبنيّة على أساس الصفات الرائعة الموجودة فيه ، وعلى اهتمامه وثقته بها وعلى صداقته أيضاً .

وهكذا ، فقد استبعدت الفكرة حتى انها استبعدت امكانية حبها لصديقها القديم .

ذلكم هو السبب ، الذي كان يمنع شتولتس من اكتشاف أية أمارة على وجهها ، أو سماع أية كلمة يمكن أنْ تعطيه تلميحاً أو إشارة عابرة وحتى بصيصاً من الأمل ، يمكن أنْ يخرج عن إطار العلاقة الصداقية العادية أو يتجاوزها .

ولكي تضع حدّاً لذلك كله دفعةً واحدة ، بقي عليها أنْ تفعل شيئاً واحداً : هو أنْ تسافر فوراً ، بعد أنْ لاحظت علامات حب شتولتس لها ، كي لاتتؤجج مشاعره أكثر ، ومن أجل أنْ يخمد هذا الحب قبل أنْ ينمو . لكنها كانت قد أضاعت الفرصة الملائمة : فأمارات الحب ظهرت منذ زمن بعيد ، زد على ذلك أنه كان ينبغي عليها أنْ تتنبأ مسبقاً ، بأنّ هذه المشاعر الوليدة ستتحوّل الى وَجدٍ وحبّ ؛ فشتولتس ليس أبلوموف : ولن تستطيع أنْ تهرب منه .

لنفترض أنّ الرحيل كان ممكناً عملياً ، لكنه كان مستحيلاً معنوياً : في البداية كانت تستخدم حقوق الصداقة السابقة فقط ، وكانت تجد في شتولتس تارةً كالسابق محدِّثاً ذكياً ، مرحاً لطيفاً ، بينما كانت تجد فيه تارة أخرى محدّثاً مخلصاً وفياً ، يحيط بظواهر الحياة كلها بعمق ، وبكلّ مايحدث لهما ويجري أمامهما ويشغل اهتمامهما .

لكن ، كلما كانت لقاءاتهما تزداد أكثر ، كلما كان تقاربهما يتوثق معنوياً ، ويزداد بالتالي دور شتولتس حيوية وتأثيراً : فقد انتقل دون أنْ يشعر من دور الراصد ، المتتبع للظواهر ، الى دور الشارح لطبيعتها ، المتحكم بها . أصبح ضميرها ووجدانها وعقلها . فظهرت حقوق جديدة وعلاقات خفيّة جديدة ، أوقعت حياة أولغا كلها في أحابيلها ، ماعدا زاوية مقدسة واحدة ، كانت تخفيها بدقة عن مراقبته وتحكمه .

مارست حجْراً معنوياً على عقلها وقلبها ، وأدركت أنها تملك من جانبها تأثيراً عليه . كانا يتبادلان الحقوق ، كانت تسمح بعملية التبادل هذه خلسةً وبصمت .

كيف تستطيع الآن أنْ تسلب كل شيء فجأة ؟ . . . زد على ذلك أنها كانت تجد في عملية المبادلة الخفية الصامتة هذه . . . الارتياح . . . والمتعة . . . والتنوع ... والحياة . . . والعمل . . . ماذا تستطيع أنْ تفعل ، إذا مااختفى ذلك كله فجأة ؟ وعندما فكرت بالهرب والرحيل ، كان الوقت قد أصبح متأخراً ، كما كانت عاجزة عن تحقيق ذلك .

فاذا مامرّ يوم دون أنْ تراه ، أو خطرت فكرة ، دون أنْ تناقشها معه . — فانّ أولغا كانت تعتبر ذلك كله خالياً من المعنى والبريق والجاذبية .

« يا إلهي ! ليتها تستطيع أن تكون أختاً له ! — خطرت الفكرة في ذهنها . — إنها لسعادة عظيمة أنْ يملك المرء حقوقاً أبدية دائمة على إنسان

twitter @baghdad_library

كهذا ، ليس على ذهنه فقط ، بل وعلى قلبه أيضاً ، انها السعادة لاتوصف أنْ يستمتع المرء بوجوده بصورة مشروعة وعلنية ، دون أنْ يتطلب الأمر تضحيات قاسية وأحزاناً مضْنية . والآن ماذا أفعل ؟ فاذا ماأراد الرحيل ، فانني لاأملك أيّ حق عليه يمنعه من ذلك ، بل ينبغي أنْ أرغب ذلك أيضاً ، واذا ماأردت أنْ أمنعه ، فماذا سأقول له ، وبأيِّ حقٍّ أطلب منه بأنْ أراه وأسمعه في كل لحظة ؟ . . . ربما أفعل ذلك بسبب ما سأعانيه من ضجر وملل بغيابه . ربما أفعل ذلك . لأنه يعلمني ويسليني ، لأنه لطيف معي ، ومفيدٌ لي . هذا سبب بالطبع ، لكنه ليس حقاً . ماذا سأمنحه مقابل ذلك ؟ أن أعطيه الحق بالإستمتاع بالنظر إليّ بلا هدف ، دون أن يجرؤ حتى على التفكير بمقابل ، في الوقت الذي تجد فيه نساء كثيرات السعادة العارمة بأنْ . . . » .

أخذت تتعذب وتتفكر كيف ستخرج من وضعها هذا ، لكنها لم تر مخرجاً منه . فلم تر إلا الخوف والإحباط والفراق الأبدي . كان يخطر بذهنها أحياناً أن تكشف له كل مايجول في خاطرها ، لتضع حدّاً لصراعها النفسي هذا ، لكنها كانت تشعر بالإنقباض بمجرّد أنْ تفكر بذلك . كانت تشعر من جرّاء ذلك بالخجل والألم .

أغرب مافي الأمر ، هو أنها لم تعد تحترم ماضيها ، حتى أنها بدأت تخجل منه ، منذ اللحظة التي استولى فيها شتولتس على حياتها ، منذ أنْ أصبحت أسيرةً له لاتحتمل فراقه .

لو عرف البارون ذلك على سبيل المثال أو أي شخص آخر ، لشعرت

طبعاً بشيء من الحرج والإرتباك ، لكنها لم تكن لتتعذب ولتتألم كما ستتعذب وتتألم الآن ، عندما سيعرف ذلك شتولتس .

آخذت تتصور كيف سيتغير وجهه، أخذت تتصور كيف سينظر إليها وما سيقوله لها ، ثم تساءلت :

ماذا سيفكر بعد ذلك ؟ ستبدو في عينيه فجأة ضئيلة ، ضعيفة ، صغيرة . كلا ، كلا ، هذا لايمكن أن يحدث !

اكتشفت وهي تراقب نفسها ، بأنها لاتخجل من قصة حبها الماضية فحسب ، بل ومن بطل هذه القصة أيضاً . . . هنا شعرت بالأسى والندم بسبب جحودها وعدم ردّها بالمثل على مايبديه إزاءها شتولتس من عاطفة عميقة .

وبما كانت ستعتاد على شعورها بالخجل ، لو أنّ الصداقة التي تربطها بشتولتس ، كانت خاليةً من المطامح والمشاعر النبيلة ! وإذا ماستطاعت أنْ تكبت همسات قلبها ونداءاته ، فانها لن تستطيع أبداً أنْ تمنع تخيلاتها عن أن تبرز بجلاء : فقد كانت تتبدّى أمام عينيها رغماً عنها ، قصة حب آخر جديد أكثر إشراقاً وتألقاً وسعادة ، قصة حب بعيد عن الكسل والخمول يكون بطلها شخص آخر غير أبلوموف ، قصة حبّ تدخل أولغا من خلالها مسرح الحياة الفسيح الشامل المتنوع ، قصة حبّ زاخرة بالسعادة يكون شتولتس بطلها .

عندئذ ، ستبكي كثيراً على ماضيها ، الذي يثير مشاعر الخجل والندم في نفسها .

twitter @baghdad_library

وستصحو من حلمها ، وستتخلص من جدار الصمت والكتمان وعدم المبالاة الذي يؤرّق شتولتس ويعذبه . وبعد أنْ تتمالك نفسها وتستعيد تفاؤلها وجاذبيتها ورقتها ولطفها بوجود شتولتس، ستكتشف بأنّ المستقبل لم يضع ، ورونق الحياة لم يبهت . والأحلام الوردية الواعدة مازالت موجودة .

ربما كانت ستألف وضعها القلق اليائس مع السنين ، وتتخلى عن أي أمل بالمستقبل كما تفعل العوانس ، وتستسلم لليأس وتشغل نفسها بممارسة بعض الأعمال الخيرية ، لكنّ الآمال قد انتعشت فاستيقظت فجأة على بعض الكلمات ، التي أفلتت من شتولتس ، واكتشفت بأنها قد فقدت الصديق ، ووجدت فيه بدلاً من ذلك العاشق المحب . لقد غرقت الصداقة في الحب .

استيقظت شاحبةً ذلك الصباح ، ولم تغادر الى أي مكان طوال اليوم الذي اكتشفت فيه ذلك كله ، بل ظلت تعاني من الإضطراب وهي تصارع نفسها وتفكر بما يجب أنْ تفعله الآن ، وبالمسؤولية التي تقع على كاهلها ، لكنها لم تتوصل الى شيء . لعنت نفسها فقط . لأنّها لم تتغلب على خجلها وتكشف لشتولتس منذ البداية ماضيها ، لأنّ مهمةً أخرى قد برزت أمامها الآن ، هي أنْ تتغلب على الخوف أيضاً .

كانت تُصاب بنوبات من الإنفعال ، عندما كانت تشعر بألم في صدرها ، وتنحبس الدموع في عينيها ، عندما كانت تتملكها الرغبة بأنْ ترتمي عليه وتحكي له كل شيء يتعلق بحبها ، ليس بالكلمات ، بل

بالنحيب والتشنجات والإغماءات ، كي يرراها وهي تكفّر عن ذنبها .

كانت قد سمعت كيف تتصرف الفتيات عادةً في ظروف مماثلة . فسونيتشكا مثلاً ، تحدّثت عن علاقتها السابقة مع أحد الضباط وأخبرت خطيبها بأنها كانت تسخر منه وتمكر به ، وانها كانت تجبره على الإنتظار في البرد القارس ريثما تخرج وتستقل العربة .

لكنه لم يكن ليخطر ببال سونيتشكا بأنْ تتحدث عن أبلوموف وتقول بأنها كانت تمازحه من باب التسلية ، وأنه كان مضحكاً ، لايخطر ببال أية فتاة أنْ تحبّ « أخرقاً كهذا » ، لأنّ ذلك لن يصدّقه أحد . لكن تصرفاً كهذا يمكن أنْ يكون مُبرَّراً فقط ، من قبل آخرين على غرار زوج سونيتشكا ، وليس من قبل شتولتس .

لكن أولغا كانت تستطيع أنْ تطرح المسألة بصورة أكثر إقناعاً وتبريراً ، وتقول بأنها كانت تريد أنْ تخلص أبلوموف من الضياع وأنها لجأت كما يقال ، الى استخدام العبث الصداقي الودي . . . كي تبعث الحياة في إنسان خامد ذابل ، ثم تبتعد عنه بعد ذلك ، لكن هذا ، كان يمكن أنْ يبدو زائفاً متَصَنعاً الى أبعد الحدود . . . كلا ، كلا ، فلا نجاة من ذلك !

« ياإلهي ، في أية حفرة عميقة سقطت ! أسرّت أولغا لنفسها بكثير من العذاب — . أأكشف له كل شيء ! آه ، كلا ! فليبق هكذا ، دون أنْ يعرف شيئاً عن هذا أبداً ! وإذا ماأبقيت الأمر سراً ، فسأكون عندئذ في منزلة السارق . سيكون هذا نوعاً من الخداع والتزوير .

twitter @baghdad_library

ساعدني يا إلهي ! . . . » . لكن المساعدة لم تأت .

ومع أنها كانت تجد متعة كبيرة بلقاء شتولتس ، إلا أنها كانت تتمنى أحياناً ألاّ تلتقي به أكثر ، وأن تمرّ في حياته كالظلّ ، الذي لا يلاحظه أحد ، كي لاتعكّر صفوه وذكاءه بشوق غير شرعي .

كان بإمكانها أنْ تندب حظها العاثر ، وتبدي ندمها وأسفها على الماضي ، وتدفن ذكراه في أعماقها ، وبعدها . . بعدها ، قد تستطيع الحصول على « زوج ملائم » ، كما تفعل الكثيرات ، فتصبح زوجة جيدة ذكية ، وأماً حانية مهتمة . أما الماضي فتعتبره ذكرى مضت وأدبرت لم تعشها . أليس هذا مايفعله الجميع !

لكن المسألة لاتتعلق بها فقط ، بل تتعلق بشخص آخر أيضاً ، تُعلق عليه أفضل أمانيها وآمالها الحياتية .

« لماذا أحببت ؟ » -- كانت تتعذب بألم وتتذكر ذلك الصباح في الحديقة ، عندما كان أبلوموف يريد أنْ ينصرف ، بينما كانت هي تعتقد آنئذ ، بأنّ كتاب حياتها سينغلق الى الأبد ، اذا ماذهب أبلوموف . هكذا بجرأة وسهولة حسمت مسألة الحب والحياة ، فقد بدالها كل شيء واضحاً ، لكن الأمور تشابكت في عقدة غير محلولة .

كانت تعتقد أنّ الامور غاية في السهولة ، إذ يكفي فقط أنْ ينظر المرء ببساطة إلى الأشياء ويسير الى الأمام ، -- لتمتثل الحياة له ، وتنبسط تحت قدميه بيسر ، فتنحلّ الأمور ! لكنها لاتستطيع الآن أنْ تجد أحداً تلقي اللوم عليه : فهي وحدها المذنبة !

وبدون أنْ تفترض أولغا أو تخمّن سبب مجيء شتولتس ، نهضت من على الأريكة بلا اكتراث فوضعت الكتاب وذهبت لملاقاته .

— هل أزعجتك ؟ — سأل شتولتس وهو يجلس في حجرتها بالقرب من النافذة المطلة على بحيرة . كنت تقرأين ؟

— كلا . كنت قد توقفت عن القراءة : فقد خيم الظلام . كنت أنتظرك ! .. قالت برقة وبمودّة .

.. ذلك ماأريد : يجب أنْ أتحدث إليك .. . لاحظ شتولتس بجدّية . وهو يتقدم لها كرسياً ، وضعه بالقرب من كرسي آخر ، عند النافذة .

ارتعشت وتجمّدت مكانها . ثم تهاوت بعد ذلك على الكرسي غريزياً ، وجلست في وضع مؤلم ، وهي تخفض رأسها وتطرق بصرها. كان يبدو لمن يراها بأنها كانت تتمنى في هذه اللحظة أنْ تكون بعيدة عن هذا المكان مئة فرسخاً .

في هذه اللحظة ، التمع في ذاكرتها كالبرق ، الماضي كله . « هاهي المحاكمة قد ابتدأت ! فلا يجوز أنْ يعبث المرء بالحياة كما يعبث بالدُمى ! — تراءى لها أنّ هنالك صوتاً يردّد ذلك . — الحياة ليست مزحة ، لأنّ من يتعامل معها باستخفاف ، يدفع الثمن ! » .

صمتا بعض الوقت . كان ، على مايبدو ، يستجمع أفكاره . كانت أولغا تنظر خلسةً وبخوف ، الى وجهه النحيل ، وحاجبيه المقطبين وشفتيه المزمومتين ، المعبرتين عن عزيمة وإرادة .

twitter @baghdad_library

« انتقام ! . . . . » فكرت اولغا وهي ترتعد في أعماقها . كان يبدو كأنّ كلاً منهما كان يستعدّ للمبارزة .

– لابد أنك تخمّنين بالطبع ياأولغا سيرغييفنا ، عما أريد أنْ أتحدث ؟ ... قال شتولتس وهو ينظر إليها متسائلاً .

كان يجلس بعيداً عن النافذة بعض الشيء ، حيث كان وجهه مغشّى بالظلام ، فالنور الذي كان يأتي من النافذة ، كان يسقط على أولغا مباشرة ، لذا فقد كان يستطيع أنْ يقرأ مايدور في ذهنها .

– كيف أستطيع أنْ أعرف ؟ ... أجابتْ بصوت خافت .

لم تكن تملك أمام هذا الخصم الخطر قوة الإرادة والعزيمة ، ولا المقدرة ذاتها ، في السيطرة على نفسها التي كانت تواجه بها أبلوموف دائماً .

لقد أدركت بأنّ السبب الذي مكّنها حتى الآن من إخفاء مشاعرها وخوضها الحرب بنجاح أمام نظرة شتولتس الثاقبة ، لايكمن في قوتها إطلاقاً ، كما كانت عليه الحال في مواجهتها لأبلوموف ، بل يكمن في صمت شتولتس وصبره . لكنّ التفوق لم يكن الى جانبها في هذه المعركة المفتوحة ؛ من هنا جاء سؤالها : « كيف أستطيع أنْ أعرف ؟ » كانت تريد من خلال سؤالها هذا ، أنْ تكسب لحظةً من الوقت ، كي يكشف خصمها عن خطته بشكل أكثر وضوحاً .

– آه ، كلا ! – أفلتت منها فجأة .

أمسكت بيده ونظرت إليه كما لو أنها تطلب الرحمة .

— أرأيت ، لقد خمّنت بأنك تعرفين ! — قال شتولتس — لماذا تقولين « كلا ؟ » — أضاف بعد ذلك بكآبة .

صمتت أولغا .

— مادمت قد تنبأت بأنني سأوضح أفكاري في يوم من الأيام ، فلا بد أنك تعرفين بالطبع بماذا ستجيبين ؟ - سأل شتولتس .

— توقعت ذلك ، وتعذبت كثيراً ! - . قالت أولغا وهي تستلقي الى الوراء ، على ظهر الكرسي ، وتشيح بوجهها عن الضوء ، وتطلب من الغسق النجدة . كي لايقرأ شتولتس الإنفعال البادي على وجهها ، ومن أجل أنْ تحجب عنه ارتباكها وألمها .

— تعذّبت ! هذه كلمة مرعبة ، - . قال شتولتس بصوت هامس تقريباً ، — فدانتي يقول :

« اقطع الأملَ الى الأبد » . هذا كل ماأستطيع قوله : فهذه العبارة توضح كل ماأريد ! لكنني ، — أضاف شتولتس وهو يتنهد بعمق ، — أشكرك ، لأنك أخرجتني من الضياع والظلام ، فأنا أعرف الآن على الأقل ، ماينبغي عليّ عمله . هناك مخرج واحد فقط ، هو أنْ أهرب سريعاً ! نهض شتولتس .

— لا ، ناشدتك الله ألاّ تفعل ! قالت أولغا متوسلة مذعورة ، وهي ترمي بنفسها عليه ، وتمسك بيده من جديد — . ارحمني : ماذا سيحدث لي ؟

جلس شتولتس ، وكذلك فعلت أولغا .

twitter @baghdad_library

— لكنني أحبك ياأولغا سيرغييفنا ! — قال شتولتس بعبوس تقريباً — لقد رأيت ماجرى لي خلال نصف السنة هذه ! ماذا تريدين : انتصاراً كاملاً ؟ أتريدين أنْ أذبل وأفقد عقلي ؟ أشكرك جداً .

تغيّر وجهها .

— سافِرْ ! — قالت باعتداد مشوب بالحزن والأسى ، لم تستطع إخفاءهما .

— أرجو المعذرة ! — قال شتولتس . — ها قد تشاجرنا . إني أعرف بأنك لاتريدين ذلك ، لكنك تقدّرين بأنه يستحيل عليّ أنْ أبقى على حالتي هذه ، فما كنت تقدرين على أن تظلّي هكذا ، لذا كان لابُدّ أنْ أحاول الهرب . فالإنسان أحياناً يصبح أنانياً ، بدون قصد .

تحرّكت أولغا قليلاً على كرسيها ، كأنها كانت تشعر بنوع من عدم الإرتياح في جلستها تلك ، لكنها لم تقل شيئاً .

— حسن ، هاقد بقيت ؟ لكنْ ماالفائدة من ذلك ؟ — تابع شتولتس ستقترحين عليّ صداقتك بالطبع ، لكنني أقول بأنّ صداقتنا قائمة بالأصل . بدون حاجة لأيّ اقتراح ، وستبقى قائمة مهما طال بعادي .

فالصداقة شيء رائع ياأولغا سيرغييفنا عندما تكون مبنية على حبّ راسخ بين شاب وفتاة ، أو على ذكريات طيبة حلوة بين عجوزين . لكن كم يكون الوضع صعباً ، عندما تكون صداقة من طرف . وحباً من الطرف الآخر . إنني أعرف بأنك لاتشعرين بالضجر معي ، هل تعرفين حالتي ؟

– إذا كنت تريد السفر حقاً ، فليوفقك الله ! – همست بصوت لايكاد يُسْمَع .

– أنْ أبقى ! – أخذ يتفكر بصوت مسموع ، – معناه أنْ أسير على حدّ السكين – يالها من صداقة رائعة !

– وهل سيكون وضعي أفضل ؟ – اعترضت أولغا فجأة .

– وضعك أنت ؟ لماذا ؟ – سأل شتولتس بحيوية – . فأنت . . . لاتحبّين . . . .

– لاأعرف ، أقسم أنني لاأعرف ! لكن ، إذا ما . . . تغيّرت حياتي الراهنة بطريقة ما . فماذا سيحدث لي ؟ – أضافت أولغا بحزن وبصوت خافت وكأنّها تسرّ لنفسها .

– كيف يمكن أنْ أفهم ذلك ؟ ناشدتك الله أن توضّحي ! – قال شتولتس ، وهو يسحب كرسيه نحوها ، وقد حيّرته كلماتها ولهجتها الصادقة المؤثرة .

حاول أنْ يتبيّن ملامحها ومكنونات نفسها . كانت صامتة . كانت تستولي عليها رغبة عارمة بأنْ تطمئنه وتهدّىء من روعه ، وبأنْ تستعيد كلمة « تعذّبت » وتفسرها بشكلٍ آخر ، يختلف عما فهمه من قبل ؛ لكنها لم تكن تعرف كيف تشرحها ؛ فقد كانت تشعر بشيء من الغموض بأنهما معاً ، واقعان تحت وطأة حيرة مميتة ويعيشان وضعاً صعباً ؛ يشعر كلٌّ منهما بثقله . وأنها هي الوحيدة فقط التي تستطيع بمساعدةٍ منه ، أنْ توضح الماضي والحاضر بطريقةٍ تساعدها على الخروج من هذا الوضع .

twitter @baghdad_library

لكن . ينبغي عليها من أجل ذلك كله أنْ تعبر هوّةً وتكشف له عما حدث لها في الماضي :

لكنها كم كانت تتمنى وتخشى الحكم الذي سيصدره !

– إنني لاأفهم شيئاً . فأنا في ضياع وحيرة وظلام أكثر مما أنت فيه ! – قالت أولغا .

– اسمعي ، هل تثقين بي ؟ – سأل شتولتس وهو يمسك بيدها .

– بلا حدود . كما تثق البنت بأمّها . – فأنت تعرف ذلك كله – ، أجابت بضعف .

– احكِ لي كلّ ماجرى معك منذ أنْ افترقنا . فأنت عصيّةٌ عليّ الآن . بينما كنتُ سابقاً أقرأ على وجهك كل أفكارك : يبدو لي أن هذا هو السبيل الذي يُمكّن كلاً منا من فهم الآخر . هل أنت موافقة ؟

– آه ، أجل . هذا ضروري . . . يبدو أنه لابدّ من ذلك . . . – قالت بأسى وهي تدرك أنْ لامفرّ من الإعتراف . « الانتقام ! الانتقام ! » – فكرت أولغا وهي تميل رأسها على صدرها .

غشّتْ بصرها وصمتت . أما شتولتس فقد أصابه الهلع بفعل تأثير هذه الكلمات وهذا الصمت الرهيب .

« ياإلهي ! إنها تتعذّب ! ماذا حدث لها » – فكر شتولتس ، ثم أحسّ بارتعاش في يديه وساقيه . تصوّر شيئاً ما ، غايةً في الرعب . انها ماتزال صامتة ، يبدو أنها تصارع نفسها .

— إذن . . . يا أولغا سيرغييفنا . . . — بدأ شتولتس يحثّها على الكلام .

ظلت صامتة ، لكنها قامت من جديد بحركة عصبية ، كان من الصعب على المرء رؤيتها ؛ كان يُسمَع فقط كيف كان فستانها الحريري يخفق .

— إنني ألمّ أطراف شجاعتي ، — قالت أخيراً : — ليتك تعرف كم هو صعب عليّ أنْ أتكلم ! . . . أضافت بعد ذلك وهي تلتفت جانباً ، في محاولة للتغلب على تردّدها وعلى الصراع النفسي الذي تعاني .

لم تكن تريد أنْ يعرف شتولتس كلّ شيء من فمها ، بل عن طريق معجزةٍ ما — . ولحسن حظها وعظيم سعادتها ، فقد اشتد الظلام أكثر وأصبح وجهها غارقاً في العتمة تماماً : لكن الصوت كان يخونها والكلمات لم تنعقد على لسانها ، كأنها محتارة كيف تبدأ .

« يا إلهي ! كيف يمكن أنْ أكون مذنبة ، مادمت أحسّ بمثل هذا العذاب والخجل ؟ » —

كانت تتعذب في أعماقها .

لقد مضى الزمن الذي كانت تتحكم فيه بتقرير مصير شخص آخر ، عندما كانت لاتزال قوية واثقة بنفسها ! وها قد جاء دورها الآن لترتعد كفتاة صغيرة ! فالخجل من الماضي وما سبّبه من عذاب وألم يطالان الحاضر . ووضعها القلق المتصنّع . — كلّ ذلك قد مزّقها وأضناها . . . فالوضع لا يُحتَمَل !

twitter @baghdad_library

ـ سأساعدك . . . هل أحببت ؟ ـ نطق شتولتس بصعوبة . فقد أحس بألم شديد ، ناجم عن هذه الكلمة ، التي تفوه بها .

أكدت ذلك بالصمت ، أما شتولتس فأصابه الهلع من جديد .

ـ من هو ؟ إن لم يكن ذلك سراً بالطبع ، ـ قال شتولتس وهو يحاول أن يتحكم بلهجة حديثه ، كي تبدو طبيعية ، لكنه أحس بأن شفتيه ترتجفان .

أحست أولغا بمزيد من الألم والعذاب . كانت تتمنى أن تذكر اسماً آخر ، وتلفق قصة أخرى . بقيت مترددة بضع لحظات ، لكن ، كان لابد أن تواجه الحقيقة : كانت أشبه بالشخص ، الذي يرمي بنفسه في النار ، في أشد اللحظات خطراً . عندما قالت فجأة : « أبلوموف ! »

بقي شتولتس مذعوراً في مكانه . استمر الصمت مدة دقيقتين .

ـ أبلوموف ! ـ كرر بدهشة . ـ هذا ليس صحيحاً ! ـ أضاف بعد ذلك بصورة قاطعة وهو يخفض صوته .

ـ إنها الحقيقة ! ـ قالت أولغا بهدوء .

ـ أبلوموف ! ـ كرر شتولتس من جديد . ـ مستحيل ! ـ أضاف مؤكداً من جديد ـ لابد أن التباساً قد حصل : فإما أنك لم تفهمي نفسك ، أو لم تفهمي أبلوموف ، أو لم تفهمي الحب .

ـ صمتت أولغا .

ـ هذا ليس حباً ، إنه شيء ما آخر ، ذلك ما أقوله لك ! ـ أكد شتولتس باصرار .

— أجل ، لقد مازحته ، وتصنّعت معه . وضلّلته وجعلته تعيساً . . .

وها أنت تعتقد بأنني أسير معك على نفس الطريق ! — قالت أولغا بصوت حبيس ، مشوب بدموع الإهانة والأسى .

— عزيزتي أولغا سيرغييفنا ! لاتغضبي ، ولاتتكلمي بهذه الطريقة : فهذه ليست لهجتك . أنت تعلمين بأنني لاأفكر بشيء من هذا . لكنني لاأستطيع أنْ أقتنع أو أفهم . كيف يمكن لأبلوموف . . .

— لكنه رغم ذلك جدير بصداقتك ، فأنت لاتعرف كيف تعطيه حقه وقدره : لماذا تستغرب أنْ يكون جديراً بالحب ؟ — قالت أولغا مدافعة .

— أعرف . بأنّ الحب أقل صرامة وتشدّداً من الصداقة . — قال شتولتس . — فالحب أعمى غالباً ، والناس لايحبون بسبب المآثر على كل حال . لكن الحب يتطلب بعض السمات والأمور الصغيرة أحياناً التي لاتتوفر في صديقي الكسول إيليا . ذلك هو سبب دهشتي . اسمعي ، — أضاف شتولتس بحيوية — لن نصل من خلال هذا الأسلوب الى نتيجة ، ولن نفهم بعضنا .

لاتخجلي من التفاصيل ، ولا تكوني رحيمة بنفسك نصف ساعة من الزمن . حدثيني عن كل شيء . وأنا سأحدّد لك الحالة التي كنت تعيشين ، ولربما سأحدّد لك أيضاً ماسيكون . . . يبدو لي أنّ هنالك التباساً في الامر . . . آه ، كم أتمنى أنْ يكون ذلك صحيحاً ! أضاف باهتمام . — أتمنى أنْ يكون أبلوموف ولا أي شخص آخر ! أبلوموف !

twitter @baghdad_library

هذا يعني أنك حرّة ، غير أسيرة للماضي ولا للحب . . . حدّثيني . حدّثيني بسرعة ! -- ختم شتولتس بصوت هادىء ، بصوت يهيج تقريباً.

-- حسناً ، حسناً ! -- أجابت بفرح وسرور لأنّ جزءاً من العبء قد أُلقي عن كاهلها . -- لكنني حائرة . فأنا أعاني الكثير من الألم ! إنني لاأعرف إنْ كنت مذنبة أم لا ، لاأعرف إنْ كان ينبغي عليّ أنْ أخجل من الماضي أو أتأسف عليه ؛ هل أثق بالمستقبل أم أخيّب أملي فيه . كنت تتحدث عن عذاباتك ، لكنك لم تذكر عذاباتي مطلقاً ، ولم تفترض وجودها . اسمعني حتى النهاية . لكنْ لاتسمعني بعقلك : فأنا أخشاه ، من الأفضل أنْ تسمعني بقلبك : لأنه ربما سيأخذ بعين الإعتبار ، بأنني محرومة من الأمّ ، وأنني كنت كما لو أنني في غابة . . . -- أضافت بهدوء وبصوت خائر ضعيف -- . كلا . -- صحّحت بعد ذلك بسرعة . لاترحمني . فاذا كان ذلك حباً فاتركني . -- توقفتْ لحظةً-- وعُدْ عندما تناديك الصداقة وحدها من جديد . وإذا كان ذلك تصنّعاً وعبثاً ودلالاً ، فاصدرحكمك عليّ بالإعدام ، واهربْ وانسني الى الأبد . سمعت !

ضغط على يديها بقوة وحرارة في معرض ردّه على كلامها .

ابتدأ اعتراف أولغا التفصيلي الطويل . أخذت تحكي بوضوح وتتذكر بالتفصيل كل ما كان يؤرقها ويعذبها . والأسباب التي كانت تجعلها تحمر خجلاً ، تحدثت أيضاً عن سعادتها ومشاعرها الرائعة السابقة . وكيف سقطت بعد ذلك فجأة في لجّة المأساة والشكوك .

تحدّثتْ عن النزهات والحديقة ، عن آمالها ومطامحها السابقة . عن صحوة أبلوموف وعن سقوطه ، عن غصن الليلاك وحتى عن القبلة . لكنها أغفلت فقط التحدث عن تلك الأمسية الخانقة ، لأنها لم تتبيّن بعد ، طبيعة تلك النوبة التي ألمّتْ بها حينئذ .

في البداية كان يسمع همسها المرتبك فقط ، لكنّ صوتها أخذ يصبح أكثر وضوحاً وطلاقة كلما مضت في حديثها شوطاً أبعد ، فقد انتقل من الهمس الى النغمة الخافتة ومنها الى الرنين . أنهت قصتها بهدوء واضح كما لو أنها كانت تقصّ حكاية حدّثتْ مع شخص آخر .

انفتحت الستائر أمامها وظهر الماضي ، الذي كانت تخشى أنْ تنظر إليه حتى الآن بامعان . تفتّحت عيناها على أشياء كثيرة ، حدثت في ثنايا ذلك الماضي ، حتى أنها كانت تستطيع أنْ تنظر إلى محدّثها بجرأة . لولا الظلام الذي كان يحول دون ذلك .

أنهت حديثها وراحت تنتظر إصدار الحكم ، لكن الجواب كان صمت القبور .

ماذا حدث له ؟ لم تكن تسمع كلمة ولا حركة ، حتى ولا نفَساً ، كأنّ أحداً لم يكن معها .

أثار هذا الصمت ، من جديد ، الشك في نفسها . استمر الصمت طويلاً . ماذا يعني هذا الصمت ؟

ماهو الحكم الذي سيصدر عن أعدل قاضٍ في هذا العالم ؟ قد يكون الحكم الذي يمكن أنْ يصدر عن شخص آخر غيره ، قاسياً لايرحم ؛

twitter @baghdad_library

فشتولتس هو الإنسان الوحيد ، الذي يمكن أنْ تختاره ليكون مدافعا عنها . . . فهو الذي يمكن أنْ يفهم وضعها ، ويقدّر ظروفها ويقرّر مصلحتها أفضل مما تتّخذه هي بنفسها من قرار ! لكنه صامت : فهل يمكن أنْ تكون قضيتها خاسرة ؟ . . .

شعرت بالخوف من جديد . . .

انفتحت الابواب فجأة فغمرت شمعتان كانت تحملهما خادمتها ، الزاوية المظلمة بالضياء . ألقت عليه أولغا نظرة خجولة ، لكنها متلهفّة متسائلة . شبك يديه على صدره . وراح ينظر إليها بعينين وديعتين مفتوحتين ، ويستمتع بارتباكها .

اضطرب قلب أولغا واضطرم . تنهّدت بعمق وشارفت على البكاء. لكن الثقة به ، والتسامح مع نفسها عادا إليها فجأة . كانت سعيدة كالطفل الذي يُصْفَحُ عنه لخطأ ارتكبه ، ثم يُلاَطفُ ويتمّ استرضاؤه .

— هذا كل شيء ؟ — سأل بصوت خافت .

— كل شيء ! — أجابت أولغا .

— ورسالته ؟

أخرجت الرسالة من محفظتها ، وناولتها له . اقترب من الشمعة فقرأها ووضعها على الطاولة . ثم عادت عيناه لتتركزا عليها ، وقد امتلأتا بتعبير لم تشاهده فيهما منذ زمنٍ طويل .

كان يقف أمامها الآن صديقها ، الذي عرفته من قبل ، بنفس سماته المعهودة .

كان واثقاً بنفسه ، ساخراً بعض الشيء ، طيباً الى أبعد الحدود ، عنصر الدعابة بادٍ عليه . لم يكن على وجهه أيّ أثر للعذاب ولا للشك . أمسك بكلتا يديها وقبّلهما ، ثم استغرق بعد ذلك في تفكير عميق . هدأت أولغا أيضاً ، وشعرت بنوع من الطمأنينة وراحت تراقب بهدوء حركة الأفكار المتراقصة على وجهه .

نهض شتولتس فجأة .

-- ياإلهي ، لو أنني كنت أعرف أنّ المسألة تتعلق بأبلوموف ، لما تعذبت هكذا ! -- قال شتولتس ، وهو ينظر الى أولغا بلطف وبثقة ، كما لو أنّ ماضيها خالٍ من أية أمور تستدعي اللوم والخوف .

أصبح السرور بادياً عليها ، وغمرت البهجة كيانها . كان الإرتياح بادياً عليها . فقد اتضّح لها ، أنّ ردّ فعله . كان طبيعياً ، فلن يُصْدِرَ حكماً بالإعدام بحقها ، ولن يهرب !

استعاد شتولتس السيطرة على نفسه من جديد ، وكان مرحاً ، لكنّ هذا لم يكن كافياً ، بالنسبة لها . فقد لاحظت بأنها بريئة ، لكنها رغم ذلك ، كانت تنتظر الحكم وتريد أنْ تسمع قرار براءتها . تناول شتولتس قبعته .

— الى أين ؟ — سألت أولغا .

— استريحي ، فأنت مضطربة ! -- قال شتولتس .— سنتحدث غداً.

— أتريدني أنْ أمضي الليل كله دون نوم ؟ . . قاطعته أولغا وهي

twitter @baghdad_library

تمسك بيده وتجلسه على الكرسي . — تريد أنْ تذهب دون أنْ تبدي رأيك بما قلته لك . . .

دون أنْ توضح لي من أنا ، ومن . . . سأكون . ارحمني ياأندريي إيفانيتش : فمن ذا الذي سيقول ذلك لي ؟ من ذا الذي سيعاقبني ، اذا كنت أستحق ذلك ، ومن ذا الذي سيغفر لي إذا كنت لاأستحق العقاب ؟— أضافت أولغا . ثم ألقت عليه نظرة مليئة بالمودّة ، أجبرته أنْ يضع قبعته ، حتى أنه كاد أنْ يرتمي أمامها .

— اسمحي بأنْ أقول لك : ياملاكي ! — قال شتولتس . — لاتعذّبي نفسك عبثاً : فأنت لاتستحقين اللوم والعقاب ، حتى انني لاأستطيع أنْ أضيف شيئاً لما سمعته منك . فلامبرّر لقلقك وارتيابك . تريدين أن تعرفي ماهي التسمية التي يمكن أنْ تُطْلَقَ على ماحدث معك ؟ فأنت تعرفين ذلك منذ زمن طويل . . . أين رسالة أبلوموف ؟ — أخذ الرسالة من على الطاولة

— اسمعي ! — ثم أخذ يقرأ : « كلمة أحبك الراهنة ، التي تفوّهت بها ، لاتعني حبّاً حقيقياً راهناً ، بل مستقبلياً . فهي لاتعني أكثر من مجرّد حاجة غير واعية لأن تحبي ، أكثر من حاجة تتّقد بشكل متصنع غير حقيقي ، دون أن تصدر نوراً ساطعاً ، بسبب عدم كفاية . أو لنقل بسبب نقص الغذاء الحقيقي . فتعبرّ عنها النساء أحياناً ، عندما يداعبن طفلاً ، أو يجاملن أمرأة أخرى ، حتى أنّ ذلك يتمّ التعبير عنه من خلال الدموع أو النوبات الهستيرية ! . . . لقد أخطأت (قرأ شتولتس ،

وهو يشدّد على هذه الكلمة) : فليس آمامك من كنت تنتظرينه أو تحلمين به ! انتظري، سيأتي ، وعندئذ ستعودين الى وعيك وستحزنين وستخجلين بعدها من خطيئتك . . . » .

أرأيت كم هذا صحيح حقاً ! — قال شتولتس . لقد شعرت بالخجل والأسى بسبب . . . خطيئتك ، ذلك كل مافي الأمر . الأمر واضح تماماً ، فلا أرى ضرورة لأنْ أضيف شيئاً . لقد كان محقاً ؛ لكنك لم تصدقيه . وفي هذا يكمن ذنبك .

كان ينبغي أنْ تفترقا منذ ذلك الوقت ، لكن جمالك سَحَرَهُ أما هو فقد كان مفتوناً برقتك ولطفك ! .- أضاف شتولتس بلهجة لاتخلو من بعض السخرية .

— لم أصدّقه ، لانني كنت أعتقد بأنّ القلب لايخطىء .

— كلا ، فالقلب يخطىء : وكم يكون ذلك قاتلاً في بعض الأحيان! لكن هذا لم يصل الى قلبك . - أضاف شتولتس ، - بسبب تصوّرك ورقة إحساسك من جهة ، وبسبب عطفك من جهة أخرى . . . كنت تعتقدين بأنْ العيد لن يحلّ في حياتك المقبلة ، وأنّ الشعاع الشاحب ذاك سينير حياتك ، ثم يعقبه بعد ذلك ليل دائم ؛ ذلك ماكنت تخشين . . .

— والدموع ؟ — قالت أولغا — . ألم تكن نابعة من القلب عندما كنت أبكي ؟ لم أكن أكذب . فأنا كنت صادقة مخلصة . . .

— ياإلهي ! وهل هناك شيء لايثير بكاء النساء ؟ فلقد قلت ، بأنك تكدّرت وحزنت على غصن الليلاك ، والمقعد الخشبي المحبب إليك .

twitter @baghdad_library

أضيفي الى ذلك ، عزة النفس المهانة ودورك الفاشل كمنقذة ، والإعتياد أيضاً . . . ألا يعتبر ذلك كله سبباً كافياً للدموع !

ـ ولقاءاتنا ونزهاتنا ، هل كانت خطأ أيضاً ؟ فأنت تتذكر بأنني . . . كنت عنده . . .

ـ أكملت أولغا بارتباك . لكنها كانت تريد . على مايبدو أنْ تخمد كلماتها . حاولت أولغا جاهدة بعد ذلك ، أنْ تتهم نفسها ، من أجل آن يدافع شتولتس عنها بحرارة أكثر ، ولكي تبدو في عينيه أكثر فأكثر ، بأنها على صواب .

ـ يتضح من كل ماذكرت بأنكما لم تتحدثا شيئاً في لقاءاتكما الأخيرة ، إذ لم تبق مادة للحديث .

فما يسمى « حبك » كان ينقصه المحتوى والمضمون ، فما كان له ليستمر أكثر . فلقد اختلفتما في الواقع ، قبل الفراق ، ولم تكونا وفيين للحب ، بل لشبحه ، الذي اختلقتماه أنتما بالذات ، ـ ذلك هو سر المسألة .

ـ والقبلة ؟ ـ همست بصوت خافت لم يسمعه ، لكنه استنتج المقصود .

ـ وما أهمية ذلك ، ـ قال شتولتس بلهجة متهكمة ساخرة ، ـ كان من المفروض أن يكون عقابك على هذا ، هو حرمانك من طبق شهي أثناء الغداء ـ . كان لايزال ينظر إليها بدعابة فائقة ، وبمودة كبيرة .

ــ لكنّ النكتة لايمكن أنْ تكون تبريراً « لخطأ » كهذا ! ــ اعترضت أولغا بصرامة ، وقد غضبت بسبب عدم مبالاته واستخفافه ــ . كان من السهل عليّ أكثر ، لو أنك عاقبتني بكلمة ما قاسية ، أوسمّيت تصرفي هذا باسمه الحقيقي .

ــ ماكنت لأمزح ، لو أنّ المسألة تتعلق بشخص آخر غير إيليا ، ــ قال شتولتس معللاً ، ــ فالخطأ هناك ، يمكن أنْ ينتهي . . . بكارثة : لكنني أعرف أبلوموف . . .

ــ شخص آخر ، مستحيل ! ــ قاطعته أولغا وقد بداعليها التهيّج. لقد عرفته أكثر مما عرفته أنت . . .

ــ أرأيتِ ! ــ أكد شتولتس .

ــ لكن ، لو طرأ عليه تبدل . . . لو أصبح منتعشاً بحبّ الحياة ، لو سمع مني . . .

أما كان للأمور أنْ تتغير ؟ هل كان يمكن أن يحصل عندئذ خطأ ؟ ــ قالت أولغا بُغيةَ أنْ تُقَلّبَ المسألة وتتفحّصها من جميع الجوانب، كي لايبقى أي لغز أو أدنى شك يتعلق بذاك الماضي ، خافياً .

ــ هذا يعني ، لو كان مكانه شخص آخر ، ــ قاطعها شتولتس ، لتطورّت مشاعرك ، بلا ريب ، الى حب حقيقي ، ولترسّخت علاقاتكما وعندئذ . . . لكنّ ذلك كله هو قصة أخرى وبطل آخر ، لاعلاقة لنا بهما .

تنهدت كما لو أنها ألقت بآخر عبء عن كاهلها . صمت الإثنان .

twitter @baghdad_library

– أنْ يتماثل الإنسان للشفاء . . . تلكم هي السعادة ، – تفوّهت أولغا ببطء ، وقد تفتحت كالزهرة ، ثم وجّهت إليه نظرة اعتراف بالجميل ، نظرة مودّةٍ حارّةٍ متناهيةٍ في صدقها ، لدرجة أنْ خُيّل له ، بأنه قد وجد فيها تلك الشرارة التي بحث عنها عبثاً طيلة عام . أحس برعشةٍ بهيجةٍ تسري في جسده .

– كلا ، فأنا الذي أتماثل للشفاء ! – قال شتولتس ثم استغرق في التفكير . – آه ، ليتني كنت أعرف فقط بأنّ بطل هذه المغامرة هو إيليا! كم من الوقت قد ضاع ، كم من الجهد قد تبدّد ! ومن أجل ماذا ؟ – قال شتولتس بحزن وبأسف .

لكنه بدا ، وكأنه قد صحا فجأة من حزنه ، ومن تأمله المضني ، فانفرجت أساريره ، وتألقت عيناه فرحاً .

– لكن هذا كان محتماً : فكم أنا هادىء مطمئن الآن ، و . . . كم أنا سعيد ! – أضاف بسرور .

– كأنني في حلم ، كأن شيئاً لم يكن ! – قالت أولغا بتأمل ، وبصوت لايكاد يُسْمَع ، وقد اندهشت لانتعاشها المفاجىء هذا . – فأنت لم تخلصني من الخجل والندم فقط ، بل ومن الحزن والألم ، ومن كل شيء . . . كيف استطعت أنْ تفعل ذلك ؟ – سألت بهدوء . هل سينتهي ذلك كله حقاً ، هل سيمر الخطأ بسلام ؟

– أعتقد ، بأنّ كل شيء قد انتهى ! – قال شتولتس ، وهو

يرميها للمرة الأولى بنظرة شوق لايخفيها ، — أقصد كل ماكنت تشعرين به ، وتخافين بسببه .

— وماذا سيحدث ، إذا لم يكن ذلك خطأ . بل حقيقة ؟ — سألت أولغا .

— اسمعي ماهو مكتوب هنا ، — قال شتولتس وهو يأخذ الرسالة من جديد : . . « لم تعثري على من كنت تنتظرين أو تحلمين به : فلا بدّ أن يأتي . وعندها ستصحين . . . » . وستحبّين ، أضيف أنا ، حباً زاخراً متجدداً . ليس لسنة فحسب ، بل مدى الحياة كلها ، لكنني لا أعرف فقط . . . من هو المحبوب ؟ — أكمل شتولتس وهو يحدّق إليها . غضّتْ بصرها وزمّتْ شفتيها ، لكنّ أشعةً كانت تنبجس عبر جفنيها الى الخارج ، كما كانت شفتاها تحبس بسمةً ، لم تستطع أنْ تكبتها حتى النهاية . نظرت إليه وبدأت تضحك من أعماقها ، لدرجة أنّ الدموع طفرت من عينيها .

— لقد وضّحت لك ياأولغا سيرغييفنا ، كل ماحدث معك ، وما سيحدث ، — ختم شتولتس الكلام ، — لكنك لم تجيبي على سؤالي بعد .

وماذا يمكنني أنْ أقول ؟ . . قالت أولغا بارتباك — . ليتني كنت أملك الحق ، بأنْ أقول لك كل ماأراه ضرورياً بالنسبة إليك . . . فأنت تستحق الكثير الكثير — أضافت وهي تنظر إليه بخجل .

خُيّل إليه من جديد ، بأنه وجد في نظرتها شرارة من المودة الصادقة العميقة ، التي بحث عنها طويلاً ، فارتعش من جديد بسبب السعادة ، التي غمرته .

twitter @baghdad_library

. لاتستعجلي ، — أضاف شتولتس . — كل ماأرجوه هو أن تقولي مستقبلاً ، عندما ينتهي حدادك الغرامي ، حداد اللياقة ، كل ماترينه ضروريا بالنسبة لي ، وكل ماأستحق . فأحداث هذا العام قالت لي بعض ماأريد . أما الآن ، فأريدك أن تقرري :

هل أسافر . . . أم أبقى ؟

.. اسمع : فأنت تتدلل عليّ ! — قالت فجأة وبسرور .

— كلا ! — لاحظ شتولتس برزانة . فهذا السؤال لم يفت أوانه ، لأنه يكتسي الآن معنى آخر : فاذا بقيت ، ف . . . بأي حق ؟

ارتبكت أولغا فجأة .

.. أرأيت بأنني لاأتدلل ! ضحك شتولتس . وقد بدا عليه الإرتياح ، لأنه كشف الحقيقة . ينبغي علينا أنْ نتصرف مع بعضنا ، بعد حديثنا هذا ، بطريقة تختلف عن السابق .

فالآن ، لم نعد كما كنّا البارحة .

.. لاأعرف . . . همست أولغا ، وقد ازداد ارتباكها .

. أتسمحين بأنْ أسدي إليك نصيحة ؟

.. تكلّم . . . سأنفذها بلا تردّد ! — أضافت أولغا بانصياع مليء بالوجد والحب .

. تزوجيني !

— لاأجرؤ بعد . . . همست أولغا وهي تحجب وجهها بيديها باضطراب ، لكنها كانت سعيدة . . .

– لماذا لاتجرؤين ؟ – سأل بصوت هامس ، وهو يميل رأسها نحوه.

– والماضي ؟ همست من جديد ، وقد وضعت رأسها على صدره ، كما لو كانت تضعه على صدر أمها .

أبعد يدها عن وجهها . وقبّل رأسها وراح يستمتع طويلاً بارتباكها ، وهو ينظر الى الدموع في مآقيها .

– سيذبل . كما ذبل غصن الليلاك ! – ختم شتولتس . – لقد أخذتِ درساً : فلقد آن الأوان لأن تستفيدي منه . فلنبدأ حياتنا : امنحيني مستقبلك ، ولا تقلقي – فسأكون جديراً به ، وفياً له ، متكفلاً به ! لنذهب الى عمتك .

انصرف شتولتس في ساعة متأخرة .

« لقد عثرت على ماأريد ، – فكر شتولتس ، وهو ينظر بعينين عاشقتين الى الأشجار ، والسماء ، والبحيرة ، وحتى الى الضباب المتصاعد من الماء . – انتظرت وظفرت ! كم انتظرت سنوات طويلة من المعاناة والصبر والإضطراب والقلق ! أجل ، لقد انتظرت طويلاً ، لكنني فزت بأروع مكافأة : إنها سعادة الإنسان ! » .

كانت سعادته الآن ، تحجب كل شيء عن ناظريه : المصنع ، وعربة أبيه ، والقفاز المتسخ ، والحسابات الملطخة ببقع الزيت والشحم وحياة العمل كلها .

استعاد في ذاكرته فقط ، غرفة أمه العبقة ، ونوتات غيرتسي الموسيقية ، ومتحف الأمير للصور واللوحات الفنية ، والعيون الزرق

twitter @baghdad_library

والشعر الكستنائي -- لكن صوت أولغا الرقيق العذب . كان يغطّي ذلك كله : فلم يكن يتردّد في ذهنه إلاّ أصداء غنائها العذب

-- أولغا -- زوجتي ! -- همس شتولتس وهو يرتعش بسرور . لقد عثرت على كل ماأريد ، فلن أبحث بعد الآن عن شيء . ولن أذهب إلى أي مكان !

كان يشعر بسعادة عارمة وهو في طريقه الى البيت ، لدرجة أنّه لم يكن يلاحظ الطريق ، والشارع .

شيّعته أولغا طويلاً بنظراتها . ثم فتحت النافذه بعد ذلك ، واستنشقت لبضع دقائق نسيمات الليل الباردة العبقة ، بينما بدأ اضطرابها يخفّ تدريجياً ، وأصبح صدرها يعمق بانتظام .

ركّزت نظرها على البحيرة . وعلى الأفق البعيد . وراحت تتأمل بهدوء وبعمق ، كما لو أنها نائمة . كانت تريد أنْ تقف على حقيقة ما تفكر وتحسّ به ، لكنها لم تستطع .

كانت الأفكار تتدافع كالأمواج ، والدم يسيل بانسياب في عروقها. كانت تحس بالسعادة ، لكنها لم تستطع أن تتبيّن حدودها وكنهها . أخذت تتفكر بالسبب ، الذي جعلها هادئة ، مطمئنة ، سعيدة ، فرحة .

-- إنني الآن خطيبته . . . . . -- همست أولغا .

« أنا خطيبة ! » -- بدأت الفتاة تفكّر برعشة من الإعتزاز بالسعادة بعد أنْ انتظرت طويلاً هذه اللحظة ، التي أنارَتْ حياتها كلّها ،

ثم راحت تنظر من علٍ الى الدرب المظلم ، الذي كانت تسير عليه البارحة وحيدة .

ولماذا لاترتعش؟فقدكانت تسير لوحدهاعلى الطريق ،دون أن يشعر بها أحد ، ثم التقاها عند مفترق الطرق ، ومدّ إليها يده ، وأخرجها من المتاهات والأضواء الباهرة التي تعمي العيون ، وقادها الى الحقول الفسيحة والهضاب ، التي تبتسم لها بودّ وبمحبة . لكنها لم تُغمض عينيها من شدة اللمعان والبريق ، ولم يتوقف قلبها ، ولم تتهيّج .

أصبحت نظرتها هادئة مطمئنة ، وهي تواجه فيض الحياة ، ورحابها الفسيحة ، وهضابها الخضر الرائعة . لم تشعر بالرعشة تسري في جسدها ولم تضطرم نظرتها اعتزازاً وزهواً : لكنها أحست فقط عندما حوّلت نظرتها تلك ، عن الرحاب الفسيحة والهضاب الخضر الرائعة ، الى الإنسان ، الذي مدّ لها يده ، بأنّ الدموع كانت تسيل ببطء على وجنتيها

ظلت جالسة ، بطريقة تبدو للناظر ، كما لو أنها نائمة — . كان حلم سعادتها هادئاً ، جميلاً : لم تكن تتحرك ، حتى أنها لم تكن تتنفس تقريباً .

ركّزت نظرتها الحالمة تلك ، وهي ماتزال مستغرقة في تأملها العذب الجميل ، على هذا الليل الأزرق الهادىء ، الذي ينسم أنفاساً عبقة دافئة ويتلألأ بوداعة ورقة . بسطَ طيف السعادة جناحين واسعين ، وراح يحلّق بهدوء فوق رأسها ، كما تحلّق الغيمة في السماء . . .

في حلمها هذا ، لم تر نفسها ملفوفةً بالحرير مدة ساعتين فقط ، لتجد نفسها بعد ذلك في ثياب بالية مدى الحياة . لم تر في حلمها وليمة

twitter @baghdad_library

رائعة ، ولا أضواء ، ولا وجوهاً فرحة مسرورة ؛ شاهدت سعادتها ، البسيطة ، الخالية ، من البهرج والزينة ، التي أدخلت السرور الى قلبها ، والتي جعلتها تهمس مرّةً أخرى . بكثير من الرقة والحنان : « إنني خطيبته ! » .

— ٤

ياإلهي ! كم كانت تبدو شقة أبلوموف كئيبة مظلمة ، بعد انقضاء سنة ونصف على زيارة شتولتس في عيد التسمية . كان إيليا إيليتش قد ترهّل ، وكان السأم يتخلّل عينيه ويأكلهما ، كما كان الضعف والإعياء يطلاّن منهما .

كان يتمشى في الغرفة ويتمشى . ثم يستلقي بعد ذلك وينظر الى السقف . ويأخذ كتاباً من على المنضدة ويتصفح بعينيه بضعة أسطر ، ويتثاءب ، ثم يبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة .

أصبح زاخار أخرق ووسخاً أكثر ، ظهرت الرقع على كوعيه ؛ كان يبدو فقيراً ، جائعاً ، كما لو أنه يأكل بشكل سيء ، وينام قليلاً ، ويقوم بعمل ثلاثة رجال .

أصبح رداء أبلوموف بالياً ، فلم تستطع عمليات الترقيع والرتق أن تحول دون اهترائه : إذ كان من الضروري استبداله بآخر جديد منذ زمن بعيد . والبطانية أيضاً أصبحت بالية ، ظهرت عليها الرقع في بعض الأماكن ؛ الستائر على النوافذ تنسّلت وبهت لونها منذ زمن بعيد ،

وعلى الرغم من أنها كانت نظيفة مغسولة ، إلا أنها كانت تبدو كالخرق البالية .

جلب زاخار غطاء الطاولة القديم ، وفرش نصف الطاولة ، الموجودة بالقرب من أبلوموف ، ثم جلب بحذر . وهو يعضّ لسانه . دورقاً زجاجياً مليئاً بالفودكا مع بعض الأغراض الأخرى ، ووضع الخبز وانصرف .

انفتح الباب المفضي الى القسم ، الذي تشغله صاحبة الشقة ، ودخلت أغافيا ماتفييفنا ، وهي تحمل برشاقة ونشاط مقلاة تحتوي على بيض لايزال يسمع صفيره ونشيشه .

كانت قد تغيرت بشدة . ولم يكن هذا التبدل في صالحها . أصبحت نحيلة . لم تعد وجنتاها مستديرتين ، بيضاوين ، متوردّتين ، متألقتين عافيةً ؛ أما حاجباها فقد توقفا عن اللمعان . بينما ذبلت عيناها .

كانت ترتدي فستاناً قديماً من الشيت ، أما يداها فقد أصبحتا خشنتين من كثرة العمل ، ومن كثرة تعاملهما مع النار ، أو الماء ، أو بسبب الإثنين معاً .

كانت أكولينا قد تركت البيت . أما أنيسيا . فكانت تعمل في المطبخ والحاكورة وتراقب الطيور وتشطف الأرض ، وتغسل الثياب ، لكنها لم تكن تتدبر هذه الأعمال لوحدها ، فقد كانت أغافيا ماتفييفنا تعمل في المطبخ : تطحن ، وتغربل ، أمّا المطرزات فلم تكن تجرؤ حتّى على التفكير بها .

twitter @baghdad_library

كانت تقوم بتقطيع البصل وبيرش الفجل البري ، بالإضافة الى تحضير بعض أنواع التوابل الأخرى . كانت الكآبة بادية على وجهها بوضوح .

لم تكن تتأوه على نفسها ، ولا على القهوة التي لم تعُدْ تطحنها إلا قليلاً ، ولم تكن تأسف ، لأنّ مجالات عملها قد أصبحت ضيقة محدودة ، أو لأنها لم تعد تمارس نشاطها على نطاق واسع . فلم تعد تدق القرفة ، أو تحضر القشدة والزبدة ، بل كانت تتأوه وتتأسف لأنّ إيليا إيلييتش لم يعد يأكل شيئاً من هذا كله ، فلم تعد القهوة تُجْلَب له من أحسن المخازن بكميات كبيرة ، بل أصبحت تُجْلَب من الباعة الجوالين بكميات قليلة جداً ؛ لم يعد يتناول القشدة الشهية الرائعة ، فأصبح يتناول البيض بدلاً من الشرحات الشهية الطازجة ، واللحم المقدد عوضاً عن الطري ، عالي الجودة .

ماذا يعني ذلك ؟ سبب ذلك . هو أنّ الدخل الجيد من أبلوموفكا الذي كان يرسله شتولتس إلى أبلوموف ، كان يذهب لتسديد الإدّعاءات الباطلة من الديون الوهمية ، التي كان ينبغي على إيليا أنْ يدفعها لصاحبة الشقة بموجب سند دين ، كان قد أعدّه إيفان ماتفييتش وتارانتييف عن طريق التحايل والمكر والدهاء .

أحرزت « المسألة القانونية » ، التي دبرها أخ صاحبة الشقة نجاحاً أكبر مما كان متوقعاً . فقد ارتبك إيليا إيلييتش واضطرب وخاف كثيراً لدى أول تلميح صدر من تارانتييف الى علاقة أبلوموف « الشائنة »

بصاحبة الشقة . وتمّ الإتفاق بعد ذلك على المصالحة ، ثم التقى الثلاثة وشربوا . ووقع أبلوموف على سند الدَّين ، الذي يجب أنْ يسدّده خلال أربع سنوات ؛ وبعد شهر ، وقّعت أغافيا ماتفييفنا على سند دَيْن مماثل ، تدفعه لأخيها . دون أن تعرف أو تشتبه بالأمر . ودون أنْ تعرف بالطبع حقيقة المسألة . فقد قال لها أخوها ، بأنّ توقيع هذه الورقة ضروري من أجل البيت ، الذي تملكه .

كل مافعلته . هو أنها تَعَذَّرَتْ قليلاً . وقالت بأنها لاتجيد الكتابة، ورجت أخاها بأنْ يرغم ابنها فانيوشا على أنْ يقوم بذلك بدلاً عنها ، لأنه « يكتب أفضل منها بكثير » ، ولأنها قد تخطىء أيضاً . لكنّ أخاها أصرّ عليها أنْ تنفّذ مايطلبه منها ، فجاء توقيعها بأحرف كبيرة معوجّة مائلة .

كان عزاء أبلوموف بعد أنْ وضع توقيعه ، هو أنّ النقود ، التي سيدفعها ستذهب لإعالة الطفلين اليتيمين ، لكنه في اليوم التالي ، بعد أنْ صحا ذهنه ، أخذ يتذكر المسألة بكثير من الخجل . محاولا أنْ ينسى ذلك كله . متجنّباً مقابلة أخيها ، حتى أنه كان يهدّد تارانتييف ، عندما كان الأخير يبدأ بالتحدّث عن ذلك ، بأنه سيترك الشقة ويغادر الى القرية .

وعندما استلم إيليا إيليتش النقود من القرية بعد ذلك ، جاء إليه أخ صاحبة الشقة وأبلغه بضرورة أنْ يبدأ بتسديد الديون فوراً ، والا فإنّ القرية سَتُطْرَحُ للبيع في المزاد العلني إذا لم يسدّد الدَّين في الموعد المحدد خلال ثلاث سنوات .

twitter @baghdad_library

أدرك أبلوموف الورطة ، التي وقع فيها ، عندما صارت النقود ، التي كان شتولتس يرسلها ، تذهب لتسديد الدَّين ، فلم يبقَ لديه إلا مبلغ زهيد فقط يعيش منه .

كان أخ صاحبة الشقة مستعجلاً لأنْ ينهي هذه الصفقة خلال سنتين كي لاتبرز من هنا وهناك عوائق ، قد تعرقل المسألة ، فأصبح وضع أبلوموف صعباً للغاية بسبب ذلك .

في البداية ، لم يلاحظ أبلوموف كثيراً المصاعب ، التي تعرَّض لها بسبب العادة المتأصلة فيه وهي أنه لايعرف مقدار مافي جيبه من نقود ، لكنَّه أحسَّ بها فيما بعد . أما إيفان ماتفييتش ، فقد قرر أنْ يتزوج ابنة أحد تجار الحبوب ، فاستأجر شقة خاصة به وانتقل إليها .

انعكس ذلك كله على مستوى الحياة ، الذي كان يعيشه أبلوموف ؛ فقد اختفى فجأة لحم العجل الطري ، ولحم الديك الرومي من مطبخ أغافيا ماتفييفنا ، وأصبح يظهر في مطبخٍ آخر ، في شقة موخاياريف الجديدة .

كانت تشتعل النيران هناك في الليالي ، حيث كان يجتمع أقرباء إيفان ماتفييتش المستقبليون ؛ وزملاؤه في الوظيفة وتارانتييف . أما أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا فقد أصبحتا فجأة في وضع صعب ؛ فقد غدت طناجرهما خاوية ، ومطبخهما فقير ، لايعرف طعم المأكولات الفاخرة .

عرفت أغافيا ماتفييفنا للمرة الأولى ، بأنها تملك بيتاً وحاكورة وطيوراً ، وأنَّ القرفة ونبات الفانيليا لايزرعان في حاكورتها ؛ شاهدت

كيف أصبح الباعة في الأسواق يتمنّعون تدريجياً عن تحيتها والإنحناء لها ، وعن التحدث إليها والبسمة تعلو وجوهم ، وأدركت بأنّ هذه الإنحناءات والإبتسامات قد أصبحت من نصيب الطاهية البدينة ، الجديدة ، المتأنقة ، في شقة أخيها .

أعطى أبلوموف أغافيا ماتفييفنا ، كل النقود التي تركها أخوها له ، وبدون أن تعرف شيئاً عن حقيقة الأمور ، ظلت كعادتها ثلاثة أو أربعة أشهر تشتري القهوة والقرفة بكميات كبيرة ، وتقلي لحم العجل الطري والدجاج الرومي ، حتى نفذت النقود تماماً ، فأتت إليه تخبره بأنه لم يبقَ في حوزتها قرش واحد .

تقلّب مرات ثلاث على الأريكة ، لدى سماعه الخبر ، ثم نظر بعد ذلك في الدرْج : لكنه لم يرشيئاً . أخذ يتذكر أين وضع النقود ، لكنه ، لم يذكر ، بدأ يتلمّس الطاولة بيده بحثاً عن بعض القطع المعدنية ، التي يمكن أنْ يكون قد تركها ، فلم يعثر على شيء ، ثم سأل زاخار فأجابه بأنه لم ير شيئاً على الإطلاق . ذهبت أغافيا ماتفييفنا الى أخيها ، وأخبرته بسذاجة ، أنه لم يبقَ في البيت قرش واحد .

— على أي شيء بدّدْت النقود ، التي أعطيتها لصاحب المقام الرفيع ؟ سأل أخوها — لقد أعطيته ألف روبل ، فأنا لاأستطيع أنْ أعطيك الآن قرشاً واحداً . أنت تعرفين ، بأنني سأتزوج : فأنا لاأستطيع أنْ أعيل أسرتين ، لاسيما أنك تبدّدين النقود على صاحب المقام الرفيع هذا بسخاء .

twitter @baghdad_library

– وما علاقة السيد النبيل بالأمر ؟ لماذا تهاجمه وتوجه اللوم له ؟ – قالت أغافيا ماتفييفنا . – هل يؤذيك ؟ إنه لايسيء لأحد ، ولا يتدخّل بشؤون أحد . قلست أنا ، الذي جئت به الى الشقة : بل أنت وميخا أندرييتش .

ناولها عشرة روبلات وقال ، بأنه لن يعطيها المزيد . لكنه بعد أنْ ناقش الأمر مع ميخا أندرييتش . قررّ بأنه لايجوز أنْ يترك أخته وأبلوموف على هذا الوضع ، لأنّ المسألة قد تصل الى شتولتس ، الذي يمكنه أنْ يستوضح ويتبيّن الحقيقة . فيُفْسِدُ الأمر ويُفْشِلْ خطتهما

أصبح يعطيها خمسين روبلاً شهرياً ، مفترضاً بأنه سيستردّ هذه النقود من دخل أبلوموف في السنة الثالثة ، لكنه أقسم لأخته بأنه لن يعطيها قرشاً واحداً أكثر من ذلك . كما حدّد لها نوعية الوجبات والأطعمة ، التي يجب أن تحضّرها ، وطلب منها تقليص النفقات والمصاريف الى أبعد الحدود ، وحَسبَ لها الدخل ، الذي سيأتيها من الدجاج والملفوف ، بالإضافة الى ماتأخذه منه . مؤكّداً بأنّ المبلغ الإجمالي سيوفرّ لها حياة لائقة .

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتها ، التي لاتفكّر فيها أغافيا ماتفييفنا بالشؤون المنزلية . كالطهي والغسيل وغيره ، بل بشيء آخر ؛ كانت هذه هي المرة الأولى التي تبكي فيها ، ليس حزناً على الصحون ، التي كسرتها أكولينا ، ولا بسبب اللوم الذي يوجهه أخوها عادةً لها ، لأنها لم تسلق السمك جيداً ؛ كانت هذه هي المرة الأولى ، التي أحسّت

فيها بالخوف من الفاقة والفقر ، لكنّ الخوف لم يكن على نفسها ، بل على إيليا إيلييتش .

« كيف سيأكل السيدالنبيل فجأةً ،— كانت أغافيا تحاكم الأمور— البلّفت عوضاً عن الهليون . ولحم الغنم عوضاً عن لحم الطيور ، والسمك المقدّد عوضاً عن الطازج . . . » ياللفظاعة ! لم تستطع أنْ تتابع المقارنة والتفكير حتى النهاية ، فارتدت ملابسها بسرعة ، واستأجرت عربة ، وذهبت الى أقارب زوجها المتوفي ، ليس في عيد الفصح والميلاد ، ولا تلبيةً لدعوة ، بل صباحاً باكراً ، لتأخذ منهم بعض النقود ، التي يمكن أنْ تخفّف من قلقها ومخاوفها بشأن المستقبل .

فلديهم أموال كثيرة : وسيلبّون طلبها مباشرة ، بمجرد أن يعرفوا أنّ النقود ، هي من أجل إيليا إيلييتش . لو كان الأمر متعلقاً بشراء قهوة أو شاي ، أو ملابس أو أحذية لطفليها ، لما ذهبت إليهم مطلقاً ، لكن الأمر يتعلق بمسألةٍ ، في غاية الأهمية : هي شراء الهليون والسمك الطازج واللحم الطري لإيليا إيلييتش . . .

لكنهم لم يعطوها شيئاً ، بل أبدوا دهشتهم وتعجّبهم لطلبها وقالوا بأنه إذا كان إيليا إيلييتش يملك بعض الأشياء الذهبية أو الفضية ، وحتى الفِراء ، فانه يمكن رهنها مقابل ثلث المبلغ المطلوب فقط ، على أن تبقى لحين استرداد المبلغ .

لو أنّ هذا الدرس العملي قد صادفها في ظرفٍ آخر ، لما اهتمت به ولمرّ دون أنْ تعيره أيّ قسطٍ من الإهتمام والتفكير ، لكنّ الظرف

twitter @baghdad_library

الآن مختلف تماماً ، فقد أدركت بحسّها العفوي وبقلبها بانها تستطيع أن ترهن اللؤلؤة ، التي حصلت عليها وقت عرسها .

وبدون أن يشتبه بالأمر ، شرب إيليا إيلييتش في اليوم التالي فودكا وأكل سمك السلمون ، ولحم الطيور بالإضافة الى بعض المأكولات الأخرى الشهية . أما أغافيا ماتفييفنا فقد تناولت مع طفليها حساء الكرنب والعصيدة ، بينما شربت من باب المجاملة فقط مع إيليا إيلييتش فنجانين من القهوة .

سرعان ماأخرجت من صندوقها أيضاً المشبك ، وبعض الأشياء الفضية ، ومعطفها ، فرهنتهم أيضاً . . .

جاء وقت إرسال النقود من القرية : فأعطاها أبلوموف كل ما استلمه .

استرجعت لؤلؤتها ، بعد أنْ دفعت مبلغ الرهن المترتب عليها ، كما دفعت جزءاً من مبلغ الرهن المترتب على أدواتها الفضية ومعطفها ، وصارت تعدّ له من جديد ، الهليون ولحم السمك والطيور ،.ومن باب المجاملة فقط ، كانت تشرب القهوة معه . لكن اللؤلؤة رُهِنتْ من جديد .

من أسبوع لآخر ، ومن يوم ليوم ، كانت قواها تخور وعزيمتها تضعف بسبب ما كانت تعانيه من عذاب وألم . فباعت شالها ، وفستان سهرتها ، وبقيت بفستان الشيت فقط ، الذي كان يكشف عن مرفقيها ، لكنها كانت تغطّي عنقها في أيام الآحاد بخمارها القديم البالي .

ذلكم هو السبب ، الذي جعل أغافيا ماتفييفنا نحيلة ، ذابلة العينين ، تجلب الإفطار بنفسها لإيليا إيليييتش .

حتى أنّ العزيمة كانت تنقصها كي تتظاهر بالسرور ، عندما أخبرها آبلوموف بأنّ تارانتييف وآلكسييف ، وإيفان غير اسيموفيتش سيتناولون طعام الغداء على مائدته غداً .

كان الغداء شهياً نظيفاً رائعاً . فلم تسبب العار لصاحب البيت . لكن كم أنفقت من الجهد والركض في الأسواق ، ومن القلق والأرق ، وحتى من الدموع ، في سبيل هذه المشاغل المنزلية !

كم عانت من كثرة القلق والإضطراب والتهيّج عندما انغمست فجأة في لجة الحياة الصعبة هذه ، وكم عرفت أياماً سعيدة ومريرة ! لكنها أحبّت هذه الحياة : على الرغم من المرارة والأحزان والدموع والمشاغل ، وما كانت لترضى عنها بديلا . فقد كانت تفضّلها على حياتها السابقة الهادئة . عندما لم تكن قد عرفت أبلوموف بعد ، وعندما كانت تتبختر باعتزاز وزهوّ وسط طناجرها المليئة بأنواع الأطعمة الفاخرة ، وتصدر أوامرها الى أكولينا والبوّاب .

حتى أنها كانت ترتعش خوفاً عندما تلوح في ذهنها فكرة الموت ، مع أنه كان يمكن أنْ يضع مرةً واحدةً والى الأبد حدّاً لدموعها وقلقها اليومي وأرقها .

تناول إيليا إيليييتش طعام الإفطار ، واستمع الى ماشا وهي تقرأ

twitter @baghdad_library

بالفرنسية ، وجلس قليلاً في حجرة أغافيا ماتفييفنا وشاهد كيف كانت تصلح سترة فانكا وهي تقلّبها على هذه الجهة وتلك ، بينما كانت في الوقت نفسه ، تركض الى المطبخ باستمرار ، لتتأكد إن كان لحم الغنم الذي تعدّه للغداء ، قد انقلى جيداً ، ولترى إن كان قد حان سلق السمك.

— لماذا تجهدين نفسك حقاً ؟ — قال أبلوموف .

— من ذا الذي سيفعل ذلك غيري ؟ — قالت أغافيا — سأضع هنا رقعتين فقط ، وأسلق السمك ،ثم أستريح. كم هو خبيث ولدي فانيا! في الأسبوع الفائت أصلحت سترته . وها قد مزقها من جديد ! لماذا تضحك ؟ — توجهتْ بالسؤال الى فانيا ، الذي كان يجلس بالقرب من الطاولة ، وهو يرتدي قميصاً وبنطلوناً بحمّالة واحدة .

لن أصلحها قبل الصباح ، كي لاتركض خارج البوابة . لابد أنْ يكون الأولادهم الذين مزّقوا هذه الحمّالة :

ألم تتشاجر معهم ؟ اعترفْ !

كلا ياأمي ، فقد تمزقت من تلقاء ذاتها ، — قال فانيا .

— من تلقاء ذاتها ! كان عليك أن تجلس في البيت ، وتذاكر بدلاً من أنْ تركض في الشوارع ! فاذا ما قال إيليا إيلييتش من جديد ، بأنك لاتحضّر دروس الفرنسية جيداً . فسأنزع حذاءك : وستجلس رغما عنك من أجل أنْ تذاكر !

— لاأحب أنْ أتعلم الفرنسية .

— لماذا ؟ — سأل أبلوموف .

– لأنها تحتوي على كثير من الكلمات السيئة . . .

احمرّت أغافيا ماتفييفنا خجلاً ، بينما انفجر أبلوموف في الضحك. الحقّ يقال ، أنّ حديثاً قد دار بينهما فعلاً عن « الكلمات السيئة » .

– اسكت أيها الولد الخبيث ، – قالت أغافيا ماتفييفنا . من الأفضل أن تمسح أنفك ، ألا ترى ؟

ضحك فانيوشا . ولم يمسح أنفه .

– سأشتري لك سترة زرقاء ، عندما تصل النقود من القرية ، – تدخلّ أبلوموف في الحديث ، – وفي السنة القادمة سأشتري لك بزة جديدة ، بمناسبة دخولك المدرسة الثانوية .

– يمكنه أنْ يلبس سترته القديمة ، – قالت أغافيا ماتفييفنا ، – أما النقود فسنحتاجها في المنزل ، سنتموّن باللحم المملّح والمربيات . . . سأذهب لأرى إنْ كانت أنيسيا قد جلبت القشدة الرائبة . . . – نهضت أغافيا ماتفييفنا .

– ماذا يوجد الآن ؟ – سأل أبلوموف .

– شوربة سمك نهري ، لحم غنم مقلي ، وفطائر .

صمت أبلوموف .

وصلت مركبة فجأة ، وصار يُسْمَع نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

ذهب أبلوموف الى حجرته ، وهو يعتقد بأنّ أحداً ما يقصد صاحبة البيت : اللحام ، بائع الخضار ، أو أي شخص آخر من هذا الطراز . فمثل هذه الزيارات كانت تقترن عادةً بطلب النقود ، وبالرفض

twitter @baghdad_library

من جانب ربة البيت . ثم بالتهديد من جانب البائع . وبالتوسلات بتأجيل التسديد من جانب صاحبة البيت . ثم تعقبها الشتيمة وصفق الأبواب ونباح الكلب وقرقعة السلسلة – بوجه عام . لم يكن المشهد مريحاً . لكن المركبة وصلت – ماذا يعني ذلك ؟

فاللحامون وبائعو الخضراوات لايستخدمون العربات عادة

هرعت إليه ربة المنزل فجأة . والخوف باد على وجهها

– جاءك ضيف ! – قالت أغافيا ماتفييفنا

– من : تارانتييف أم ألكسييف ؟

– كلا . كلا . إنه نفس الشخص . الذي تناول الغداء عندك في عيد إيليا .

– شتولتس ؟ – قال أبلوموف باضطراب . وهو يتطلع حوله الى مكان يختبىء فيه . . . ياإلهي ! ماذا سيقول . عندما سيشاهد . . . قولي له . بأنني غير موجود ! . . أضاف أبلوموف بسرعة . ثم ذهب الى غرفتها .

كانت أنيسيا قد وصلت في الوقت المناسب . أبلغتها أغافيا ماتفييفنا أوامر سيدها . وطلبت منها استقبال الضيف وإبلاغه . بأن أبلوموف غير موجود . صدّق شتولتس . لكن ما أدهشه فقط . هو كيف يمكن أنْ يكون أبلوموف خارج البيت .

– أبلغيه . بأني سأعود بعد ساعتين . سأتغدّى عنده ؟ . . قال شتولتس . ثم ذهب الى مكان قريب . الى الحديقة العامة .

— سيتغدّى ! — قالت أنيسيا بذعر .

— سيتغدّى ! — كررت أغافيا ماتفييفنا ، وقد بدا الخوف عليها وهي تبلغ أبلوموف .

— يجب أن نحضّر أطعمة أخرى ، — قرر أبلوموف ، ثم صمت.

ألقت أغافيا ماتفييفنا عليه نظرة مليئة بالخوف . لم يبق معها إلا نصف روبل فقط ، بينما بقي على موعد استلام النقود من أخيها عشرة أيام . ليس هناك أحد تستدين منه .

— لن نلحق ياإيليا إيلييتش ، — لاحظت بخجل ، — فليأكل مما هو موجود عندنا . . .

— إنه لايأكل شيئاً مما هو موجود عندنا ياأغافيا ماتفييفنا : فهو لايحب شوربة السمك. حتى السمك النهري الصغير لايأكله. ولحم الغنم لايضعه في فمه أيضاً .

— يمكننا أن نشتري بعض السجق من مكان قريب هنا ! — قالت أغافيا ماتفييفنا فجأة ، وكأن الوحي قد نزل عليها .

— هذا جيد ، هذا ممكن ، أرجو أنْ تأمري بتحضير بعض الخضراوات والفول .

— ثمن كيلو الفول عشرة كوبيكات ! — خطرت الفكرة في ذهنها فجأة ، لكنها لم تتفوه بها .

— حسناً ، سأفعل . . . — قالت ، وقد عزمت على أنْ تستبدل الفول بالملفوف .

twitter @baghdad_library

- أرجو أن تأمري بشراء كيلو من الجبنة السويسرية ! قال أبلوموف دون أن يعرف شيئاً عن الظروف المالية لأغافيا ماتفييفنا . فذلك سيكون كافياً ! سأعتذر منه . وأقول بأننا لم نكن نتوقع قدومه ... واذا كان ممكناً ، فأرجو أن تحضّري بعض المرق .

كانت تهمّ بالإنصراف .

— والنبيذ ؟ - تذكّر أبلوموف فجأة .

أجابته بنظرة جديدة مليئة بالرعب .

— يجب أن نحضر نبيذاً فرنسيا أحمر ، - ختم أبلوموف ببرود .

— ٦ —

جاء شتولتس بعد ساعتين .

- مابك ؟ لقد تغيرت كثيرا . كم أنت مترهّل شاحب ! هل ساءت صحتك ؟ - سأل شتولتس .

— صحتي سيئة ياأندريي ، . قال أبلوموف ، وهو يعانقه ، — أشعر بخدَرٍ في ساقي اليسرى

— كم هو المكان شنيع هنا ! - قال شتولتس وهو يتلفت حوله . - لماذا لاترمي رداءك هذا ؟

انظر . إنه مليء بالرقع !

- إنها العادة ياأندريي ، يصعب عليّ تركه .

- والبطانية ، والستائر . . . — بدأ شتولتس ، - هل هي العادة أيضاً ؟

هل يحزنك تغيير هذه الخرق البالية ؟ هل يمكنك النوم على هذا الفراش ؟ ماذا جرى لك ؟

نظر شتولتس الى أبلوموف بامعان ، ثم حوّل بصره الى الستائر والفراش .

— هذا غير مهم ، قال أبلوموف بارتباك ، — فأنت تعرف بأنني كنت دائماً غير مبالٍ فيما يتعلق بترتيب غرفتي . . . من الأفضل أن نتناول الغداء . إي ، زاخار ! ضع الطعام على الطاولة . من أين قادم أنت؟ وهل ستبقى فترة طويلة في بطرسبورغ ؟

— هل تستطيع أنْ تخمّن من أين أنا قادم ؟ — سأل شتولتس ، — فأنت منقطع هنا عن الأخبار في هذا العالم . أليس كذلك ؟

نظر أبلوموف إليه بفضول وهو يترقّب ما سيقول .

— ماهي أخبار أولغا ؟ — سأل أبلوموف .

— لم تنسها ! اعتقدت ، بأنك ستنساها . قال شتولتس .

— كلا ياأندري . وهل يمكن أن أنساها ؟ هذا يعني ، أنْ أنسى بأنني عشت في يوم من الأيام ، وأنني كنت في الجنة . . . أما الآن ، فها أنت ترى كيف أعيش ! . . . — ثم تنهّد . —

أين هي الآن ؟ .

— في قريتها .

— مع عمتها ؟ — سأل أبلوموف .

— ومع زوجها .

twitter @baghdad_library

ـ هل تزوجت ؟ ـ نطق أبلوموف فجأةً وهو يحملق إليه

ـ لماذا خفت ؟ هل تتعدى المسألة إطار الذكريات بالنسبة لك ؟ . . . أضاف شتولتس بهدوء وبدعابة .

ـ آه ، كلا ! ـ قال أبلوموف وقد عاد الى رشده . ـ لم أخفْ ، لكنني اندهشت ، لاأعرف لماذا أدهشني ماسمعت . هل تزوجت منذ مدة طويلة ؟ هل هي سعيدة ؟ ناشدتك الله ان تخبرني : أشعر الآن ، بأنك أزلت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً ! على الرغم من أنك قد أكّدت لي بأنها صفحت عني . . . إلا أنني لم أكن مطمئناً ، ولا مرتاح البال ! كنت أشعر بتأنيب الضمير . . . كم أنا شاكر لك ياعزيزي أندريي !

انفرجت أساريره من الأعماق ، بدأ ينطّ على الأريكة ويتململ فرحاً ، الأمر الذي دفع شتولتس لأنْ ينظر إليه بكثير من المتعة ، حتى انه كان متأثراً .

ـ كم أنت إنسان طيب ياإيليا ! ـ قال شتولتس . ـ فقلبك جدير بها ! سأحكي لها كل شيء .

ـ (مقاطعاً) كلا ، كلا ، لاتقل لها شيئاً ! ستعتبرني فاقد الإحساس غير مبالٍ ، إذا ماعرفت بأنني قد استقبلت نبأ زواجها بسرور كبير .

ـ ومتى كان السرور لايعتبر إحساساً ؛ خاصّةً إذا كان متجرّداً عن الأنانية ؟ فأنت مسرور لأنها سعيدة ، ذلك هو مبعث سرورك .

ـ تلك هي الحقيقة ! تلك هي الحقيقة ! ـ قال أبلوموف . ـ الله يعلم ذلك . . .

لكن من هو سعيد الحظ ؟ ... ذلك سؤال لاأطرحه . المهم انها سعيدة .

– من تعتقد ؟ .. كرّر شتولتس .– كم أنت قليل الحدس يا إيليا !

تركزت نظرة أبلوموف على صديقه فجأة : فَتَغَضّنت ملامحه متجمّدة . وزال التورّد عن وجهه .

– أليس . . . أنت ! – سأل فجأة .

– ها أنت قد خفت من جديد ! مابك ؟ – قال شتولتس وهو يضحك .

– لاتمزح يا أندريي . قل الحقيقة ! – قال أبلوموف باضطراب .

– أقسم ، أنني لاأمزح . مضى عام على زواجي بأولغا .

أصبح الخوف يختفي تدريجياً من وجه أبلوموف ، ليحلّ مكانه تأمل هادىء . لكنه لم يرفع بصره ، بل ظلّ مطرقاً . لكنّ تأمله أصبح بعد لحظة ممزوجاً بسرورٍ عميق . وعندما بدأ ينظر الى شتولتس بهدوء وبطء كانت نظرته مليئة بالدموع والرقة .

– عزيزي أندريي ! – قال أبلوموف وهو يعانقه . – عزيزتي أولغا سيرغييفنا ! – أضاف بعد ذلك ، وهو يحبس دهشته . – فليبارككما الله ! ياإلهي كم أنا سعيد ! قل لها . . .

– سأقول لها . كم هو طيب القلب أبلوموف ! – قاطعه شتولتس وقد تأثر بعمق .

كلا ، قل لها : بأنها قد وجدت طريقها الحقيقي ، وإني أبارك

twitter @baghdad_library

طريقها الجديد هذا ! قلْ لها بأنني الآن في غاية السعادة ، لأنها وجدت ضالتها المنشودة . . . قل لها ، بأنّ لقائي بها قد دلّها على الطريق السليم . . فأنا الآن . . . — ختم أبلوموف بسرور ، — لاأندم على دوري ، ولا أحمرّ خجلاً بسببه ، فقد أُزيح العبء عن كاهلي ، فأنا في غاية السعادة. ياإلهي ! كم أنا شاكر لك !

كاد أنْ يقفز على الأريكة من جديد ، من شدة الفرح والإضطراب : كانت عيناه تدمعان تارةً ، بينما كان يضحك تارة أخرى .

— زاخار ، أحضر الشمبانيا ! — صرخ أبلوموف ، وقد نسي بأنه لايملك قرشاً واحداً .

— سأحكي لأولغا كل شيء ، كل شيء ! — قال شتولتس . — فهي محقّة ، لأنّها لاتستطيع أن تنساك .

لقد كنت جديراً بها : فقلبك عميق كالبئر !

أطلّ زاخار برأسه من الباب .

— الى هنا من فضلك ! — قال زاخار وهو يغمز سيده بعينه .

— ماذا تريد ؟ — سأل أبلوموف بنفاذ صبر — اذهب !

— تكرّم بالنقود ! — همس زاخار .

صمت أبلوموف فجأة .

-. لاداعي لذلك ! -. همس أبلوموف . بعد أن أتى الى الباب .

قل بأنك نسيت ! انصرفْ ! كلاّ ، تعال الى هنا ! — قال أبلوموف بصوت عالٍ . — هل سمعت النبأ يازاخار ؟ قَدِّمْ التهنئة : فقد تزوج أندريي إيفانيتش ! آه ياأبتاه ! لقد مَنَّ الله علي ، بأنْ أعيش فرحاً كهذا ! أهنئك ياأندريي إيفانيتش . ليمنحك الله عمراً مديداً ، وذرية صالحة ! ياإلهي ، كم أنا مسرور !

انحنى زاخار وابتسم ، ثم تنحنح . أخرج شتولتس ورقة مالية من فئة العشرة روبلات ، وناولها لزاخار .

-- خذ ، واشترِ لنفسك سترة ، — قال شتولتس : — فأنت تبدو كالمتسول تماماً في سترتك البالية هذه .

-. من هي ، التي تزوجتها ياأبتاه ؟ -- سأل زاخار وهو يتلقف يد شتولتس .

— إنها أولغا سيرغييفنا . ألا تذكرها ؟ -. قال أبلوموف .

-- الآنسة إيلينسكايا ! ياإلهي ! يالها من آنسة رائعة ! كنت محقاً يا إيليا إيليتش ، عندما وبختني بسبب الإشاعات ! إنني أعترف الآن بذنبي . فأنا الذي كنت أنشر الإشاعات ، وليس نيكيتا ! ياإلهي ، ياإلهي ! ماذا كنت أفعل . . . -- ! أكدّ زاخار وهو يمضي الى غرفة المدخل .

-- أولغا تدعوك لزيارتها في القرية ، فقد فترَحبُّك ،ولم يعد هنالك من خطر : فالغيرة لن تأكلك . هيّا ! تنهد أبلوموف .

twitter @baghdad_library

— كلا ياأندريي ، — قال أبلوموف ، — فأنا لاأخشى الحب والغيرة ومع ذلك فانني لن أذهب .

— ماذا تخشى إذن ؟

— أخشى الحسد : فسعادتكما ستكون بالنسبة لي كالمرآة ، التي أرى فيها حياتي المريرة الضائعة ، فلن أعيش حياة أخرى ، لأنني لا أستطيع .

— كفى ياعزيزي إيليا ! لن يكون مستحيلاً أن تعيش ، كما يعيش الآخرون من حولك . يمكنك أن تقرأ وتسمع الموسيقى ، كم هو رائع صوتها الآن ! أَتَذْكُرُ أغنية العذراء الطاهرة ؟

أخذ أبلوموف يلوّح بيده ، كي لايذكّره بالماضي .

— فلنذهب ! — أصرّ شتولتس . — هذه رغبتها : وستظل تلح عليها . فهي لن تكف عن المطالبة بزيارتك .

إنها مصرّة على أنْ تراك . هيا ! ! سينبعث الماضي حياً في أعماقك ، ستتذكر الحديقة ، وغصن الليلاك وستتحرك . . .

— (مقاطعاً بجدية) كلا ياأندريي ، كلا ! لاتذكرّني بالماضي ، ناشدتك الله ألا تفعل ! — فالأمر لايسرني ، بل يؤلمني . فالذكريات تمثّل قصيدةً رائعة ، عندما تتعلق بسعادة حيّة ، لكنها تتحول الى ألم مُمضٍ عندما تلامس الجراح القديمة . . . لنتحدث عن شيء آخر . فأنا لم أشكرك بعد ، على ماسببته لك من مشاغل ، وما أسديته لي من خدمة في القرية . فأنا شاكر لك كثيراً على مافعلته من أجلي ... حتى انني لاأستطيع أنْ أجد

الكلمات المعبرة عن ذلك ياصديقي . أرجوك غاية الرجاء أن تسامحني ، لما أسببه لك من متاعب . لكن الربيع سيحلّ قريباً ، وسأسافر حتماً الى أبلوموفكا . . .

- أتعرف ماذا يجري في أبلوموفكا ؟ إنك لن تعرفها ! لقد تغيرت كثيراً ! - قال شتولتس . - لم أكتب إليك بهذا الصدد ، لأنك لاتجيب على الرسائل . الجسر أُنجِزَ بناؤه ، والبيت تمّ تشييده منذ الصيف الماضي

بقي عليك فقط ، أنْ ترتّبه من الداخل حسب ذوقك - فهذا أمر لايمكن أنْ أقوم به بدلاً عنك . يدير أملاكك شخص جديد ، وضعته أنا . لابدّ أنك رأيت قائمة التكاليف التي أرسلتها . . .

صمت أبلوموف .

- ألم تقرأها ؟ - سأل شتولتس وهو ينظر إليه . - أين هي ؟

- انتظر ، سأبحث عنها بعد الغداء ، يجب أن أسأل زاخار عنها ...

- إيليا ، إيليا ، آه منك ! أ أبكي ، أم أضحك ؟ لاأعرف ، فأنت تحيّرني .

- سأبحث عنها بعد الغداء . فلنتناول غداءنا !

تغيّرت ملامح شتولتس عندما جلس الى الطاولة . تذكّر عيد إيليا : تذكّر المحار ، والأناناس ، والمأكولات الأخرى الشهية ، أما الآن فانه يرى غطاء الطاولة الخشن ، ووعاءً من الخلّ ، وزبدة مغطاةبالورق . وفي الصحون يشاهد كسرة من الخبز الأسود وملاعق قديمة . قُدّم لأبلوموف صحن من شوربة السمك ، بينما قُدّم له صحن من شوربة

الدجاج ، تبعه لحم الغنم ، وصحن من لحم اللسان القاسي . ظهر بعد ذلك النبيذ الأحمر . سكب شتولتس نصف كأس ، وتذوّق النبيذ ثم وضع الكأس على الطاولة ، ولم يذقه بعد ذلك . شرب إيليا إيليتش كأسين صغيرين من الفودكا بدون فاصل زمني ، ثم بدأ يأكل لحم الغنم بشراهة .

– النبيذ سيء جداً ! – قال شتولتس .

– أرجو المعذرة ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي لنذهب الى الجهة الأخرى من النهر ، – قال أبلوموف ، – ألا تريد أنْ تجرّب هذه الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب ؟ إنها رائعة ياأندريي ، تذوّقها ! صبّ كأساً صغيراً آخر وشربه .

نظر شتولتس إليه بدهشة ، لكنه ظل صامتاً .

– أغافيا ماتفييفنا تحضّرها بنفسها : إنها امرأة رائعة ! – قال أبلوموف ، وقد سكر قليلاً . . . فأنا أعترف ، بأنني لاأعرف كيف سأعيش في القرية بدونها : فلن أجد ربة بيت مثلها .

كان شتولتس يصغي إليه وقد قطّب حاجبيه قليلاً .

– هل تعتقد بأن أنيسيا هي التي تحضّر ذلك كله ؟ – كلا ! تابع أبلوموف – فأنيسيا تهتم بالدجاج والحاكورة ، وتغسل الأرض ، أما أغافيا ماتفييفنا فهي التي تحضّر ذلك كله .

لم يأكل شتولتس لحم غنم ، ولا فطائر ، بل وضع شوكته وملعقته وأخذ ينظر الى أبلوموف وهو يأكل بشهية كبيرة .

– لن تجدني الآن لابساً قميصي بالمقلوب ، – قال أبلوموف بعد

ذلك ، وهو يمص ّ أحد العظام بشهية كبيرة ، — ، فهي تهتم بي كثيراً ، حتى انها ترفأ كل جواربي . والقهوة ، ياإلهي كم هي بارعة في تحضيرها ! ستقدّمها لك بعد الغداء ، وستحكم بنفسك .

كان شتولتس يصغي إليه بصمت ، والانزعاج بادٍ عليه .

— أخوها يعيش الآن في شقة أخرى ، فهو عازم على الزواج ، لذا فانّ حجم الأعمال المنزلية لم يعد كبيراً كالسابق . كانت سابقاً ، تمضي اليوم في حركة دائمة ، وهي تعمل وترتب وتنظف ، وتحضّر المأكولات الشهية ، وتذهب الى السوق ، دون أنْ تحتاج لمساعدةٍ من أحد.

شرب أبلوموف كأساً آخر من الفودكا .

— (مترنّحاً) اشرَبْ ياأندريي ، اشرَب : إنها فودكا رائعة حقاً ! فأولغا سيرغييفنا لاتستطيع أن تحضّر لك مثلها ! فهي تستطيع أنْ تغنّي العذراء الطاهرة ، لكنها لاتعرف تحضير مثل هذه الفودكا ! كما انها لاتستطيع أنْ تحضّر فطراً كهذا ! فلم أذقْ مثله الا في أبلوموفكا ! الرائع في الأمر ، هو أن ذلك كله يتمّ بدون طباخ ، فأنا لا ارتاح لنظافة أيدي الطباخين ،أما أغافياماتفييفنا فتُعتَبَر تجسيداً حياً للنظافة !

كان شتولتس يصغي باهتمام شديد .

— أما يداها فكانتا بيضاوين ، — تابع أبلوموف وقد ظهر عليه السكر ، — القبلة منهما ليست ذنباً ! أما الآن ، فقد أصبحتا خشنتين قليلاً ، لأنها تحضّر كل شيء بنفسها ! فهي تنشّي قمصاني بنفسها ! — قال أبلوموف بعاطفة والدموع تكاد أنْ تطفر من عينيه . — لقد تأكّدت بنفسي من ذلك . فحتى الزوجة لاتهتم مثلها ! أغافيا ماتفييفنا امرأةرائعة !

twitter @baghdad_library

آه ياأندريي ! ليتك تنتقل مع أولغا سيرغيفنا لتستأجرا منزلاً ريفياً هنا ! ياإلهي ، كم كنّا سنمضي وقتاً ممتعاً ! كنا سنخرج الى الغابة . ونتناول الشاي فيها ، وفي المناسبات ، نذهب الى المنطقة القريبة من مصانع بوروخوف ، فتسير العربة وراءنا وهي تحمل المؤونة والسماوار . وهناك نفرش البساط على العشب ونتمدّد

ثم تتعلّم أولغا سيرغيفنا من أغافيا ماتفيفنا تحضير الأطعمة وتدبير الشؤون المنزلية . آه كم سيكون ذلك رائعاً ! لكنّ أمراً واحداً يسبب لي الآن بعض المتاعب . فدخلي لايسمح لي بأنْ أعيش كما يحلو لي ، بسبب ضآلة دخلي .

لو كان دخلي ثلاثة آلاف ، أو أربعة آلاف روبل ، لكنت قد حضّرت لك أشهى أنواع الأطعمة . . .

— لكنك تتلقّى خمسة آلاف مني ! — قال شتولتس فجأةً . — أين تبدّدها ؟

— والدّين ؟ — أفلتت الكلمة من أبلوموف فجأة .

— قفز شتولتس من مكانه .

— الدّيْن ؟ — كررّ شتولتس . — أي دَيْن ؟

أخذ شتولتس ينظر إليه ، كما ينظر معلم صارم الى تلميذ صغير يخفي عنه شيئاً .

— لِمَنْ أنت مدين ؟

صحا أبلوموف قليلاً وثاب الى رشده .

-- لست مديناً لأحد ، لقد كذبت عليك .

-- كلا ، إنك تكذب الآن. ماالذي حدث ياإيليا ؟ ماذا جرى لك ؟ ماذا يعني هذا اللحم الرديء ، وهذا النبيذ السيء ؟ هل نفدت نقودك ؟ أين بددتها ؟

-- إنني مدين لربة البيت ببعض النقود . . . لقاء الأطعمة والمؤونة.

-- لقاء لحم الغنم والاناناس ! إيليا ، قل لي الحقيقة ! مامعنى أن تسوء معيشتك ، بعد أن انتقل أخ صاحبة الشقة ، الى شقة أخرى جديدة . بكم أنت مدين ؟

-- بعشرة آلاف روبل ، بموجب سند دين . . . همس أبلوموف .

قفز شتولتس ثم جلس من جديد .

-- عشرة آلاف ؟ لربة المنزل ؟ لقاء المؤونة والأطعمة ؟ -- كرر شتولتس بذعر .

-- أجل . كنا نشتري الكثير ، كنا نعيش برخاء . . . أتذكر الأناناس والدراق . . . كنت أشتريه بالدين . . . تمتم أبلوموف .

ظل شتولتس صامتاً. كان يفكر بالآتي : « ساءت معيشة أبلوموف بعد أن انتقل أخ صاحبة الشقة الى شقة أخرى جديدة ! أصبحت حياة أبلوموف رديئة صعبة ! هل هي امرأة جيدة صاحبة الشقة هذه ؟ أبلوموف يمدحها ! إنها تهتم به ؛ أبلوموف يتحدث عنها بحرارة...».

تغير وجه شتولتس فجأة ، فقد أدرك الحقيقة .

twitter @baghdad_library

– إيليا ؟ ماذا يمثّل بالنسبة لك . . . هذه المرأة ؟–سأل شتولتس–. كان أبلوموف قد وضع رأسه على الطاولة ونام .

« إنها تنهبه وتأخذ كل ما لديه . . . فهي مسألة تتكرّر دائماً ، لكنني لم أستطع أن أتبيّن حتى الآن ، حقيقة الأمر ! » – فكر شتولتس .

نهض شتولتس وفتح باب حجرة صاحبة الشقة بسرعة . لدرجة أنها رمت الملعقة ، التي كانت تحرّك بها القهوة ، من يدها عندما رأته.

– يجب أنْ أتحدّث إليك ، – قال شتولتس باحترام .

– تفضّلْ الى غرفة الضيوف . . . سآتي حالاً ، – أجابت بحياء . وضعت المنديل على عنقها ، وتبعته فوراً ثم جلست عند طرف الأريكة . لم تكن تملك شالاً ، لأنها كانت قد باعته ، لذا كانت تحاول أن تخفي يديها تحت منديلها .

– هل أعطاك إيليا إيلييتش سند دَين ؟ – سأل شتولتس .

– كلا ، – أجابت بنظرة بلهاء ، مليئة بالدهشة – . لم أر أيّ سند دَيْن .

– لم تشاهدي أيّ سند دين ؟ كيف ؟

– لم أشاهد أي سند دين ! – أكدت بنفس النظرة البلهاء ، المليئة بالدهشة .

– تذكري ! – قال شتولتس .

فكّرت قليلاً

– من الأفضل أنْ تتحدّث الى أخي ، – قالت أغافيا ماتفييفنا ، – فأنا لم أر أي سند دَين .

« ماهذا ، هل هي مغفّلة حمقاء ، أم مراوغة محتالة ؟ » – فكّر شتولتس .

– أليس مديناً لك ؟ – سأل شتولتس .

نظرت إليه ببلاهة ، ثم تغيّر وجهها بعد ذلك ، حتى ان القلق ظهر عليها .

تذكرت لؤلؤتها وفضياتها المرهونة ،وكذلك ،معطفها . ظنّت بأنّ شتولتس يلمح الى المبلغ المترتب لقاء الرهن . لكن مالم تستطع أنْ تفهمه ، هو كيف تَمَكّنَ من معرفة ذلك ، فهي لم تكشف سرّها هذا لأحد ، ليس لأبلوموف فحسب ، بل وحتى لأنيسيا . التي كانت تكاشفها عادةً بكل قرش تنفقه .

– بكم هو مدين لك ؟ – سأل شتولتس بقلق .

– ليس مديناً لي بشيء ! ولا بقرش واحد !

« إنها تحاول أن تخفي عني كل شيء . تبّاً لها من مرابية جشعة محتالة ! – فكّر شتولتس . – لكنني سأعرف الحقيقة . »

– والعشرة آلاف روبل ؟

– عن أية عشرة آلاف تتحدث ؟ – سألت بدهشة وبقلق .

– إيليا إيلييتش مدين لك بعشرة آلاف روبل بموجب سند دَين – هل هذا صحيح أم لا ؟ .

twitter @baghdad_library

— ليس مديناً لي بشيء . كان مديناً للّحام باثني عشر روبلاً ونصف ، لكننا سدّدناها ، كما سدد أيضاً كل ماكان مديناً به لبائعة الحليب ، — لكنه الآن ، غير مدين لأحد .

— ألا تحتفظين بسند الدّين ؟

نظرت إليه ببلاهة .

— من المستحسن أنْ تتحدّث الى أخي ، —أجابت أغافيا ماتفييفنا ، — إنه يقطن عبر هذا الشارع هنا ، في منزل زاميكالوف ، يوجد قبو في المنزل الذي يقطنه .

كلا ، فأنا أريد أن أتحدث إليك ، — قال شتولتس بحسم . — إيليا إيلييتش يعتبر نفسه مديناً لك ، لا لأخيك . . .

— ليس مديناً لي بشيء ، أجابت صاحبة الشقة ، — فما رهنته من لؤلؤة وفضة وفراء ، لم يكن من أجله ، بل من أجلي أنا . فقد اشتريت حذاءً لماشا ، وقميصاً لفانيا ، كما سدّدت كل ماكنت مدينة به لبائع الخضار . فلم أنفق قرشاً واحداً على إيليا إيلييتش .

كان ينظر إليها ويصغي ويتعمّق في معنى كلماتها . كان على مايبدو الوحيد ، الذي أصبح على وشك أنْ يحلّ لغز أغافيا ماتفييفنا ، فقد تبدلت نظرة الإزدراء والشك تقريباً ، التي كان يرمقها بها ، وهو يتكلم معها ، لتحلّ مكانها رغماً عنه نظرة الفضول وحتى التعاطف .

فمن خلال رهن اللؤلؤة والفضيات ، استطاع أن يقرأ بغموضٍ تقريباً سر الضحايا ، لكنه لم يستطع فقط أن يقرر إنْ كانت عملية الرهن

قد تمت بدافع الإخلاص العميق ، أم بدافع الحصول على بعض المكاسب المستقبلية .

لم يكن يعرف إن كان ينبغي عليه أنْ يحزن على إيليا ، أم يفرح لأجله . اتضّح له بجلاء ، بأنّ أبلوموف ليس مديناً لأغافيا ماتفييفنابشيء . وانّ هذا الدين لايعدو كونه خديعة احتيالية من جانب أخيها ، كما اتضحت له بالمقابل أشياء أخرى كثيرة . . ماذا يعني رهن الفضة واللؤلؤة ؟

— إذاً ، ليست لديك أية ادّعاءات على إيليا إيليييتش ؟ — سأل شتولتس .

— أرجو أنْ تتكرم بالتحدّث إلى أخي . . . أجابت برتابة . — إذ ينبغي أنْ يكون الآن في المنزل .

— هل إيليا إيلييتش غير مدين لك ؟ تكلمي !

— أقسم ، بأنه غير مدين لي ، ولا بقرش واحد . وأقسم أنّ ما أقوله صحيح ! — قالت وهي تنظر إلى الإيقونة وترسم علامة الصليب .

— هل تؤكدين ذلك بحضور الشهود ؟

— أجل ، فأنا أوكد ذلك أمام الجميع ! — أما اللؤلؤة والفضة ، التي رهنتها ، فمن أجل تغطية مصاريفي الشخصية . . .

— حسن جداً ! — قاطعها شتولتس . — سأكون غداً عندك مع اثنين من معارفي ، هل تؤكدين أمامهما نفس ما قلت ؟

— من الأفضل أن تتحدّث الى أخي . كررت أغافيا ماتفييفنا ،

twitter @baghdad_library

لأنّ ثيابي لاتليق باستقبال الآخرين . . . خاصّةً أنني أتواجد دائماً في المطبخ ، فليس لائقاً أنْ يشاهدني الغرباء على هذه الحال .

– حسن ، حسن ، سأتحدّث الى أخيك غداً . بعد أنْ توقعي على ورقة . . .

– لقد نسيت الكتابة تماماً .

– لاتقلقي ، كلّ مايلزمنا أن تكتبيه هو سطران فقط .

– كلا ، اعذرني ، من الأفضل أن يكتب فانيوشا بدلاً مني : فهو يكتب جيداً . . .

– كلا ، يجب أنْ تكتبي أنت . ألحّ شتولتس . – إذا لم تكتبي فهذا معناه ، أنّ إيليا إيلييتش مدين لك بعشرة آلاف روبل .

– كلا ، إنه غير مدين لي . ولابقرش واحد . – أكدت أغافيا ماتفييفنا ، – أقسم على ذلك !

– في مثل هذه الحالة ، ينبغي عليك أن تكتبي وتوقعي بنفسك . الى الغد .

– من المستحسن أن تعرّج غداً على أخي . . . – قالت وهي تودّعه ، – إنه يقطن هنا ، عبر هذا الشارع ، على الزاوية .

– كلا ، أرجوك ألا تقولي لأخيك شيئاً . قبل أنْ ألتقي . لأنّ ذلك يضرّ بايليا إيلييتش كثيراً . . .

– إذاً ، لن أقول له شيئاً ! – قالت بطاعة .

— ٧ —

في اليوم التالي ، أعطت أغافيا ماتفييفنا إقراراً خطياً لشتولتس ، يفيد بأنه ليس لديها أية ادّعاءات مالية على إيليا إيليتش . فاجأ شتولتس أخاها بهذا الإقرار .

كانت المفاجأة هذه ، ضربةً حقيقية قاصمة بالنسبة لإيفان ماتفييتش أخرج وثيقة من جيبه . ثم أشار بالاصبع الوسطى ليده اليمنى ، وظفره الى الأسفل ، الى توقيع أبلوموف والسماسرة الشهود

— المسألة قانونية ، — قال إيفان ماتفييتش — ، كل ما في الامر ، هو أنني أحافظ على حقوق أختي ، لكنني لاأعرف كم هي النقود ، التي أخذها إيليا إيليتش .

— لن تمر قضيتك هكذا بسهولة ، — هدّد شتولتس ، وهو ينصرف .

— المسألة قانونية ! — قال إيفان ماتفييتش وهو يخفي يده في كمّه .

ماإنْ وصل إيفان ماتفييتش في اليوم التالي الى الدائرة ، التي يعمل فيها ، حتى أبلغه ساعي البريد بالذهاب الى الجنرال فوراً .

— الى الجنرال ! — كرّر الجميع بذعر . — لماذا ؟ ماذا حدث ؟ بخصوص أية قضية ؟ أسرعْ ، اسرعْ ! رتّب الأوراق . اعمل جرداً ! ماذا حدث ؟

في المساء ، ذهب إيفان ماتفييتش الى الحانة والإنزعاج بادٍ عليه . كان تارانتييف ينتظره هناك منذ بعض الوقت .

twitter @baghdad_library

— ماذا جرى ياإشبيني ؟ — سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

— تقول ماذا ! — نطق إيفان ماتفييتش برتابة . — يجب أن تعرف !

— هل وبخوك ؟

— وبخوني ! — قال إيفان ماتفييتش بغضب — كان من الأفضل لو ضربوني ! وأنت ! —

قال معاتباً . — كان جديراً بك أنْ تحذرني من هذا الألماني ! لقد قلت لك ، بأنه ماكر !

— ماكر ! إنه أكثر من ذلك ! صادفت كثيراً من الماكرين ، لكنهم ليسوا على شاكلته ! لماذا لم تقل لي بأنه صاحب نفوذ ؟ كان يخاطب الجنرال بضمير أنت ، كما نتخاطب أنا وأنت . لو كنت أعرف ذلك ، لما تورطت في مسألة كتلك !

— لكنها مسألة قانونية ! . . اعترض تارانتييف .

— مسألة قانونية ! — قال موخاياريف متهكماً — . اذهبْ وقل هذا هناك ، إنْ كنت بارعاً حقاً . أصبحت هناك كالأبكم ، غير قادر على الكلام . أتعرف ماذا سألني الجنرال ؟

— ماذا ؟ — سأل تارانتييف بفضول .

— « صحيح أنك أسكرت الإقطاعي أبلوموف بمساعدة أحد الأنذال وأجبرتماه على توقيع سند دين باسم أختك ؟

— هكذا قال : « بمساعدة أحد الانذال ؟ » — سأل تارانتييف

— أجل ، هكذا قال

— من هو النذل ، الذي يقصده ؟ — سأل تارانتييف من جديد .

نظر إيفان ماتفييتش إليه .

— (بخث) ألا تعرف ؟ ألست أنت ؟

— لم يعرفوا إذاً ، بأنني أنا الذي كنت معك .

— لا . عرفوا بفضل الألماني . وبفضل مواطنك . فقد استفسر الألماني عن كل شيء . وتأكد من وجودك آنئذ . . .

— كان جديراً بك أنْ تسمّي شخصاً آخر بدلاً مني . وأنْ تقول بأنني لم أكن موجوداً !

— هه ! يالك من قديس ! — قال إيفان ماتفييتش .

— بماذا أجبت عندما سأل الجنرال : « صحيح أنك بمساعدة أحد الأنذال . . . ؟ » .

كان عليك أن تراوغ .

— أراوغ ؟ وهل تظنّ بأنني لم أحاول ؟ حاولت جاهداً أنْ أقول : « ليس صحيحاً . ياصاحب السيادة . هذا افتراء عليّ ! » — لكنّ لساني لم يقو على الكلام . وسقطت عند قدميه .

— هل سيرفعون دعوى ؟ — سأل تارانتييف بصوتٍ خافت . — اسمعْ . لا علاقة لي بالموضوع إطلاقاً ، فأنت الذي . . .

— لاعلاقة لك ! هه ! لا ياصديقي . فأنت المذنب الأول : من أغرى أبلوموف بالشراب ؟ من الذي تهدّد وتوعّد ؟ . . .

أنت الذي علمتني ذلك كله ، — قال تارانتييف .

twitter @baghdad_library

– وهل أنت قاصر ؟

– هذه وقاحة ياإشيني ! فأنت الذي أخذت النصيب الأكبر . أما أنا فلم آخذ إلا ثلاثمائة روبلاً فقط . . .

– تريدني أن آخذ الأمور على مسؤوليتي لوحدي ؟ يالك من ذكي بارع ! ! لا ، فهذا لن يحدث . سأقول بأنّ أختي طلبت مني ، بسبب جهلها وعدم درايتها ، بأنْ أكتب سنداً عند السمسار – تلك هي المسألة كلها . أما انت وزاتيرتي فقد قمتما بدور الشاهدَيْن . وسيتمّ استجوابكما !

– كيف تجرؤ أختك على معارضتك ؟ – قال تارانتييف .

– أختي – غبية حمقاء : ماذا أستطيع أن أفعل معها ؟

– ماذا تفعل أختك الآن ؟

– إنها تبكي . لكنها تصرّ على موقفها وتقول : « بأنّ إيليا إيلييتش غير مدين لها بشيء . وانها لم تقرضه أية نقود » .

– لكنْ ، يوجد معك سند دين عليها ، – قال تارانتييف . فأنت لن تفقد شيئاً . . .

أخرج موخاياريف من جيبه سند الدّين على أخته ، ثم مزّقه وأعطاه لتارانتييف .

– خذه هدية مني إليك . ألا تريد ؟ – أضاف موخاياريف . – ماذا سآخذ منها ؟ البيت والحاكورة ؟ فالبيت قديم يكاد أن يسقط . هل يعقل أنْ أطردها من البيت مع طفليها . وأتركها في الشارع ؟ لا ، لم يصل الأمر بي بعد ، الى هذا الحدّ .

— المحاكمة ستبدأ إذن ؟ — سأل تارانتييف بخجل — يجب أن نساعد بعضنا لنتخلّص من المسؤولية .

— أية محاكمة ؟ لن تكون هناك محاكمة . هدّدني الجنرال بالنفي من المدينة . لكنّ الألماني دافع عني ، لأنه لايريد أنْ يجلب العار لأبلوموف .

— لقد زال الغمّ ! لنشرب نخب ذلك ! — قال تارانتييف .

— على حساب من ؟ على حسابك ؟

— لماذا لايكون على حسابك ؟ فقد ارتشيت اليوم سبعة روبلات .

— هه ! وداعاً أيتها المداخيل : فأنا لم أحكِ لك كل ماقاله الجنرال .

— ماذا قال ؟ — سأل تارانتييف وقد اعتراه الجبن فجأة .

— أمر بإحالتي على التقاعد .

— ماذا تقول ! — قال تارانتييف محملقاً . — سأشتم مواطني بسبب ذلك — ختم تارانتييف كلامه بغضب .

— إنك لاتعرف إلاّ الشتيمة !

— كلا ، سأفعل ماتريد ! من الأفضل أنْ أتمهّل حقاً . اسمع ، لقد خطرت لي فكرة !

— ماهي ؟ — قال إيفان ماتفييتش بتأمل .

— يمكننا القيام بعمل جيّد مفيد . لكن مايؤسفني ، هو انتقالك من شقة أختك . . .

— ماذا تعني ؟

— اسمع ! قال تارانتييف وهو ينظر الى إيفان ماتفييتش . — يجب

twitter @baghdad_library

أن تتلصّص على أبلوموف وعلى أختك أيضاً . وتراقبهما وهما يحضّران الفطائر معاً ويتسامران . . . ثم يحضر الشهود خلسة ! في هذه الحال . لن يستطيع الألماني أنْ يفعل شيئاً . ومادمت قد أصبحت الآن حراً بدون عمل ، فبإمكانك أنْ ترفع دعوى — فالمسألة قانونية ! أما الألماني فسيخاف ، ويقبل بالمصالحة .

— إنها فكرة معقولة حقاً ! — أجاب موخاياريف بتأمل . — فأنت لست غبياً فيما يتعلق بابتكار مثل هذه الأفكار ، لكنك لاتصلح لقضية كهذه ، وكذلك زاتيرتي . سأجد من يصلح لمثل هذه القضية ! انتظر ! — قال بانتعاش وبحيوية . — سأرسل طاهيتي الى مطبخ أختي : وستتصادق مع أنيسيا . وتستطلع كل شيء . وعندها . . . لنشرب نخب ذلك ياإشبيني !

— لنشرب ! — كرر تارانتييف . — وسأوبّخ مواطني بعد ذلك !

حاول شتولتس أن يقنع أبلوموف بالسفر معه ، لكنّ الأخير توسل إليه بإلحاح بأنْ يؤجّل موضوع سفره لشهر واحد فقط ، الأمر الذي أثار شفقة شتولتس . فقد كان ضرورياً بالنسبة لأبلوموف ، حسب ما ادّعى ، أنْ يبقى شهراً آخر ليصفّي حساباته ويسوّي أموره في بطرسبورغ ، وليسلّم الشقة أيضاً ، كي لايعود من أجل ذلك ثانية . كما كان يلزمه أيضاً أنْ يشتري كل ماهو ضروري لترتيب بيت القرية ، كان يريد أن يبحث أيضاً عن مدبّرة منزل جيّدة ، على غرار أغافيا ماتفييفنا . حتى انه لم ييأس من إقناعها ببيع البيت ، وبالسكن في

القرية ، لتمارس هناك دورها اللائق بها ، في الإشراف على منزل كبير واسع .

— بالمناسبة ، كنت أريد أنْ أعرف طبيعة العلاقة ، التي تربطك بصاحبة الشقة ، — قال شتولتس .

ظهر الخجل على أبلوموف فجأة .

— ماذا تقصد ؟ . . سأل أبلوموف بعجلة .

— إنك تعرف جيداً ماأقصد ، — لاحظ شتولتس ، — وإلا لما ظهر الخجل عليك . اسمع ياإيليا ، اذا كان التحذير يمكن أن يفيد شيئاً ، فانني أناشدك باسم صداقتنا أنْ تكون حذراً . . .

— من أيّ شيء ؟ — دافع أبلوموف عن نفسه بارتباك .

— كنت تتكلم عنها بحرارة ، لدرجة أني بدأت أعتقد بأنك . . . .

— تريد أن تقول بأني أحبها ! — قال أبلوموف مقاطعاً ، وهو يضحك بتكلف .

— الأمر سيكون أسوأ . اذا كنت لاتشعر نحوها بأي بصيص من العاطفة ، واذا كانت علاقتك بها مقتصرة فقط على . . .

— أندريي ! هل عرفتني إنساناً عديم الأخلاق ؟

— لماذا بدا عليك الخجل إذاً ؟

— لأنك سمحت لنفسك بأنْ تفكّر بذلك .

هزّ شتولتس رأسه بارتياب .

twitter @baghdad_library

ــ انتبه ياإيليا ، لاتسقط في الحفرة . إنها امرأة ساذجة ، من بيئة سيئة ومن وسط غبي . فظ ــ

ــ تفو ! . . .

صمت أبلوموف .

ــ وداعاً ، ــ ختم شتولتس . . . سأخبر أولغا بأننا سنراك في الصيف إنْ لم يكن عندنا ، ففي أبلوموفكا . تذكّرْ : إنها ستلحّ عليّ !

ــ حتماً ، حتماً ، ــ أجاب أبلوموف مؤكداً ، ــ كما أضفْ أيضاً ، بأنني سأمضي الشتاء عندكم ، إذا كانت تسمح بذلك .

ــ إنها ستُسَرُّ لدى سماع ذلك !

سافر شتولتس في نفس اليوم وفي المساء أتى تارانتييف لعند أبلوموف .

جاء تارانتييف ليوبخ أبلوموف بسبب مافعله الأخير ــ حسب زعمه لإيفان ماتفييتش ، خاصةً فيما يتعلق بصرفه من الخدمة . لكن تارانتييف هذا لم يأخذ بعين الإعتبار أمراً واحداً هاماً : فأبلوموف لم يعد يطيق تصرفاته ، كما لم يعد متسامحاً غير مبال إزاء فظاظته ووقاحته ، بل أصبح ينظر الى ذلك كله بازدراء وتقزّز . تجلّى ذلك منذ زمن بعيد ، حتّى أنّ موقف أبلوموف هذا كان يمكن أنْ يتضّح بعض الشيء ، عندما كان مايزال يعيش في المنزل الصيفي بالقرب من منزل آل إيلينسكايا آنذاك . لكن زيارات تارانتييف أصبحت نادرة قليلة منذ ذلك الوقت ،

زد على ذلك . أنّ لقاءاتهما كانت تتمّ بحضور الآخرين ، لذا لم تكن الإصطدامات تنشب بينهما .

-- مرحباً يامواطني ! -- قال تارانييتف بغضب دون أنْ يمدّ يده .

-- مرحباً ! -- أجاب أبلوموف بفتور وهو ينظر الى النافذة .

-- هل ودّعت صديقك الخيّر المحسن ؟

-- ودّعته . لماذا تسأل ؟

-- صديقك المحسن هذا إنسان جيّد ! -- تابع تارانتييف بسخرية .

-- ألا يعجبك ؟

-- لو كان الأمر بيدي لشنقته ! -- قال تارانتييف بصوت أجش ، مليء بالحقد والكراهية .

-- هكذا إذن !

-- ولشنقتك أنت على شجرة حور !

-- لماذا هكذا ؟

-- عليك ان تتصرف بشرف : فاذا كنت مديناً ، فينبغي عليك أنْ تسدّد الديون ، لا أنْ تتملّص . ماالذي فعلته الآن ؟

-- اسمع ياميخا أندرييتش . خلّصني من قصصك ، فقد تحملتك طويلاً بسبب كسلي وتواكلي : كنت أعتقد بأنه يوجد لديك ولو ذرة وجدان أو ضمير . لكن للأسف لايوجد شيء من ذلك . كنت تريد مع ذاك النذل أنْ تخدعاني : فانا لاأعرف من منكما الأسوأ ، لكنني أعرف جيداً بانكما خسيسان سافلان . فصديقي شتولتس هو الذي أنقذني من هذه الورطة الدنيئة . . .

twitter @baghdad_library

— ياله من صديق جيد ! — قال تارانتييف — . سمعت بأنه خطف منك حبيبتك ، ياله من إنسان محسن خير ! إنك مغفّل يامواطني . . .

— دع هذه الملاطفات من فضلك ! — قال أبلوموف محاولاً أنْ يضع حدّاً له .

— كلا ، لن أفعل ! فأنت ناكر للجميل ، لاتريد أن تفهمني ! لقد وفّرت لك هنا الهدوء والراحة ، وأمنّت لك المسكن عند أمرأة كالكنز ، وأحسنت إليك — وها أنت تقابلني بالسوء ، وتثق بذلك الألماني ! هاهو ذا قد أستأجر أملاكك . سينهبك بالتدريج . تذكّرْ كلامي هذا ! يالك من مغفل ناكر للجميل ! هذا الوصف قليل عليك ، لذا أقول : يالك من بهيمة !

— تارانتييف ! — صرخ أبلوموف بغضب .

— لماذا تصرخ !

— سأصرخ بملء صوتي وأمام الجميع ، بأنك مغفل وبهيمة ! — صرخ تارانتييف . . . لقد حميناك ، أنا وإيفان ماتفييتش وعزّزناك ، كنا كالعبيد أمامك ، نسير على رؤوس أصابعنا ، ونبدي لك الإحترام ونرعاك . — وها أنت تضرب عرض الحائط بذلك كله ، وتشي بإيفان ماتفييتش أمام رؤسائه : إنه الآن بدون عمل ، وبدون رغيف الخبز ! هذه سفالة ودناءة ! يجب عليك الآن أن تمنحه نصف ثروتك ، يجب عليك أن تعطيه كمبيالة باسمه . فأنت الآن لست سكراناً ، بل بكامل قواك العقلية ، فأنا لن أخرج قبل أنْ تفعل ذلك كله

— لماذا تصرخ هكذا ياميخا أندرييتش ؟ — قالت صاحبة الشقة

وأنيسيا وهما يطلاّن برأسيهما من الباب . — فلقد توقف عابرا طريق ، كانا يمرّان بالقرب ، وأخذا يتساءلان عن سبب هذا الصراخ .

— سأصرخ — زعق تارانتييف ، — سأفضح هذا الأبله ! كم سأكون مسروراً ، عندما سينهب كل مالديك هذا الألماني المحتال ، الذي يترع كؤوس الهوى والغرام مع عشيقتك . . .

دوّت في الغرفة صفعة قوية . صمت تارانتييف فجأة ، وقد أذهلته صفعة أبلوموف على وجهه ، ثم تهاوى على الكرسي وأخذ ينظر الى ما حوله بعينين جامدتين مصعوقتين .

— ماهذا ؟ ماهذا ؟ — قال تارانتييف ، وقد أصبح شاحباً وهو يلهث ويضع يده على وجنته .

— أليست هذة إهانة ؟ ستدفع ثمن ذلك ! سأرفع عليك الآن شكوى الى الحاكم : ألم تشاهدا مافعل ؟

— لم نشاهد شيئاً ! — قالت أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا بصوت واحد .

— آ ! هذه مؤامرة إذن ، هذا وكر لصوص ! تقتلون ، وتنهبون .

— اخرج أيها السافل ! — صرخ أبلوموف ، وقد أصبح ممتقعاً مضطرباً من شدّة الغضب . — اخرج فوراً ، وإياك أن تأتي ثانيةً الى هنا ، فاذا لم تغرب عن وجهي حالاً ، فسأقتلك كالكلب !

أخذ أبلوموف يبحث بعينيه عن عصا .

— انجدوني ! هذه قرصنة ! — صرخ تارانتييف .

twitter @baghdad_library

ــ زاخار ! ارمِ هذا الوغد الى الخارج ، ولا تدعه يأتي الى هنا ثانية ! ــ صرخ أبلوموف .

ــ هيا ، انصرف ! ــ قال زاخار وهو يشير الى الباب .

ــ لم أكن آتياً لعندك ، كنت قاصداً إشبيني ، ــ زعق تارانتييف .

ــ بحفظ الله ! فأنا لاأريد أنْ أراك ياميخا أندرييتش ، ولست بحاجةإليك ، ــ قالت أغافيا ماتفييفنا ــ كنت تأتي لعند أخي ، لا لعندي ! لقد أصبحت مملاً للغاية . فأنت تأكل وتشرب ، وتأتي رغم ذلك كله لتنبح .

ــ آه منك ياإشبينتي ! حسناً ، سيقتص أخوك منك ! وأنت ، ستدفع ثمن إهانتي ! أين قبعتي فلتذهبوا الى الشيطان ! لصوص ، سفاحون ! ــ كان يصرخ وهو يسير في فناء المنزل . ــ ستدفع ثمن إهانتي !

بدأ يُسْمَع نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

بعد هذه الحادثة ، لم يتقابل تارانتييف وأبلوموف مطلقاً .

ــ ٨ ــ

انقضت سنوات عديدة ، لم يزر خلالها شتولتس بطرسبورغ . لكنه عرّج ذات مرة فقط ، لبعض الوقت ، على قرية أولغا ، وعلى أبلوموفكا. استلم منه إيليا إيلييتش رسالة ، حاول فيها أندريي اقناعه بالسفر الى القرية كي يتولى بنفسه الإشراف على أملاكه ، التي تم تنظيمها ، أما شتولتس نفسه فقد سافر الى القرم مع أولغا سيرغييفنا من أجل هدفين : لإنجاز

بعض الأعمال في أوديسا ، ومن أجل صحة زوجته ، التي ساءت بعد الولادة .

أقاما في منطقة هادئة على شاطىء البحر . كان بيتهما صغيراً متواضعاً. كان البيت منظماً ومرتباً من الداخل ، كما هو من الخارج ، وفق ذوقهما الخاص . فلقد جلبا من روسيا ومن خارج الحدود الكثير من الرزم والحقائب والأحمال .

ربما هزّ هاوي المتعة والراحة كتفيه وهو ينظر الى الأثاث المتنوع ، وإلى اللوحات القديمة والتماثيل مكسورة الأيدي والأرجل ، الغالية من حيث الثمن . والسيئة من حيث المنظر بالنسبة لمن لايهتم بالعاديات .

ربما ستضطرم عينا خبير ضليع ، وهو ينظر بشغف واهتمام الى هذه اللوحة أو تلك أو الى كتاب ما اصفرّت أوراقه بفعل الزمن . أو الى خزف أو أحجار أو عملة قديمة .

لكن ، وسط هذا الأثاث المتنوع ، المنتمي الى عصور مختلفة ، وسط هذه اللوحات عديمة القيمة في أعين الكثيرين ، عظيمة الأهمية بالنسبة لهما ، وسط هذه التحف الأثرية الصغيرة والكتب والنوتات الموسيقية الكثيرة ، كانت تهب نسيمات الحياة الدافئة ، التي تهيّج العقل وتثير المشاعر الجمالية . كانت تتواجد في ثناياها إما فكرة يقظة حية ، أو تتألق بسطوع فيها روعة الإبداع الإنساني الخلاق ، كتألّق الطبيعة الرائعة الخلابة الأبدي .

twitter @baghdad_library

وجدت مكاناً لها أيضاً هنا . منضدة كبيرة عالية على نمط تلك التي كانت عند والد أندريي . وقمازات من جلد الشموة . وفي الزاوية كان معلقاً معطف مطري بالقرب من الخزانة . ومحارات وطيور محنّطة . مع نماذج مختلفة من التربة والطين والفخّار وأشياء أخرى .

وسط ذلك كله . كان هنالك بيانو لماع مرصع بالذهب . يحتل مكان الصدارة . على غرار البيانو الذي كان يصنعه صانع الآلات الموسيقية الفرنسي جيرار .

كانت هنالك شبكة من الكرمة واللبلاب والمرسين تغطّي العلّية كلها من الأعلى الى الأسفل . من الأروقة . كان يشاهد البحر . بينما كانت تشاهد من الجهة الأخرى . الطريق الذاهبة الى المدينة .

كانت أولغا تترصّد أندريي وتراقب مجيئه من ذلك المكان ، عندما كان يغادر البيت الى المدينة . لانجاز بعض الأشغال ، ثم تنزل الى الأسفل عندما تراه ، فتجتاز ركضاً جنينة الزهور والرواق الطويل المحاط بأشجار الحور . ثم ترتمي على صدر زوجها بكثير من السعادة والسرور الدائمين وقد تورّدت وجنتاها وتألقت عيناها ، على الرغم من مرور عامين على زواجها .

ربما كان شتولتس ينظر الى الحب والزواج بصورة غريبة . مُبالغٍ فيها . لكنه كان ينظر إليهما في كل الأحوال باستقلالية . كان يتصرّف هنا . بحرية وبساطة . ذلك ما كان يبدو له ؛ لكنْ كم عانى من الصبر والجهد ودقة الملاحظة . قبل أن يجتاز هذه المدرسة الصعبة من التعامل الحياتي وقبل أنْ يتعلّم القيام بهذه « الخطوات البسيطة » !

تعلّم من أبيه أن ينظر الى كل شيء في الحياة ، وحتى الى صغائر الأمور بجدية ، ولربما اقتبس عنه أيضاً الصرامة والدقة ، وهما سمتان ملازمتان للألمان عادةً ، في كل خطوة ونظرة يقومون بها في الحياة ، بما في ذلك الزواج .

كانت حياة شتولتس الأب محدّدة بدقة ووضوح ، كما لو أنها محفورة على ألواح من حجر ، فلا يحيد قيد أنملة عما هو مرسوم على تلك اللوحة الحجرية . لكنّ أم أندريي ، وأغنياتها العذبة وهمساتها الرقيقة ، ومن ثم منزل الأمير الحافل بالأحداث ، والجامعة والكتب والإختلاط بالناس ، – كل ذلك قد أبعد أندريي عن المجرى الحياتي ، الذي رسمه له والده ؛ فالحياة الروسية وَسَمَتْهُ بميسمها ، وحوّلت اللوحة الحجرية عديمة اللون ، الى لوحة زاهية رحبة .

لم يكن أندريي يفرض قيوداً على المشاعر ، حتى أنه كان يمنحها الحرية المشروعة ، لكنه كان يحاول فقط « ألا يفقد صوابه » ، عندما يسترسل في الأحلام والتخيلات ، مع أنه لم يكن يستطيع أن يردع نفسه ، عندما يثوب الى رشده ، بسبب من طبيعته الألمانية ، أو لسببٍ ما آخر ، عن استخلاص النتائج ، واستنباط بعض الملاحظات الحياتية .

كان نشطاً جسدياً ، لأنه كان نشطاً ذهنياً . كان حركاً ، ميالاً الى الدعابة في فتوته ، وعندما لم يكن يلعب ويتسلى ، فانه كان يمارس عملاً ما تحت إشراف أبيه . كان يسترسل في أحلامه أحياناً .لم يفسد خياله ، ولم يتلف قلبه : فقد صانت أمه بانتباه العفة والطهارة في نفسه .

twitter @baghdad_library

كان يحافظ غريزياً على نضارة الشباب ، عندما بلغ سن الرشد ، لكنه صار يكتشف مبكراً بعد ذلك ، بأنّ النضارة هذه تولد النشاط والحيوية والسرور ، وتخلق الرجولة ،التي تتصلب فيها الإرادة والعزيمة، اللتان تكسبان النفس الإنسانية المقدرة على مواجهة الحياة ، فلا يعود المرء ينظر إليها كعبء ثقيل يقضّ مضاجعه ، وإنما ينظر إليها كواجب جدير بأنْ يخوض الصراع من أجله .

كرّس الكثير من الإهتمام لقلبه أيضاً ، وبذل الكثير من الجهد لحلّ قضاياه المعقدة . فمن خلال المراقبة الواعية والعفوية لتأثير الجمال على الخيال ، وتحوّل هذا التأثير بعد ذلك الى عاطفة ، ومن ثم دراسة أعراضها وتجلّياتها ، ونتائجها ، استطاع أنْ يكوّن لنفسه عبر مسيرته الحياتية الواعية ، قناعة مفادها ، أنّ الحب يحرّك العالم حسب رافعة أرخميدس ، وأنّ الحقيقة الدامغة الشاملة والخير العام يكمنان فيه ، بقدر مايكمن فيه أيضاً الخداع والبشاعة في حال عدم فهمه وسوء استخدامه . أين الخير ؟ وأين الشر ؟ أين هو الحد الفاصل بينهما ؟

لدى سؤال : أين الخداع ؟ كانت تمرّ في خياله أقنعة الزمن الحاضر والماضي المبرقشة . كان ينظر بسرور وبشاشة تاوة ، وبتجهّم تارةً أخرى ، الى الرتل الطويل ، الذي لاينتهي ، من أبطال وبطلات قصص الحب : الى الدونكيشوتيين بقفّازاتهم الفولاذية ، الى سيدات أفكارهم وعقولهم ، اللواتي قضين خمسين عاماً من الفراق عن أحبائهن ، وهنّ صامدات وفيات ، الى الراعيات متورّدات الوجنات ، متسعات العيون مع خرافهن .

تَـبَـدَّتْ أمام ناظريه أيضاً الماركيزات بمساحيقهن وزينتهن . بعيونهن الذابلة الكامدة . وبا بتساماتهن الفاجرة المتهتكة ؛ تذكر أيضاً صرعى الحب ، المنتحرين والمنتحرات شنقاً ورمياً بالرصاص ؛ تذكر الفتيات الذابلات ،اللواتي ذرفن دموع الحب طويلاً ، ثم التحقن بالدير ، تذكّر أصحاب الشوارب من أبطال الحب ، بعيونهم المتقدة ، ووجوههم المتوردة . تذكر دهاة الحب . . . تذكر الجميع ، الجميع !

لدى سؤال : أين الحقيقة ؟ كان يبحث قريباً وبعيداً ، في الخيال وفي الواقع عن نماذج وأمثلة من التقارب الودي الصادق العميق المخلص مع المرأة ، لكنه لم يجدها . وإذا مابدا له ، أنه قد عثر على نموذج من ذلك ، فانه سرعان ماكان يكتشف العكس . فتخيب آماله ويبدو عليه الحزن والتأمل ، حتى أنه كان ييأس .

« يبدو ، أنّ خيراً كهذا لم يُمنَح لنا بصورة كاملة ، -- فكّر شتولتس ، -- أو ربما كانت تلك القلوب ، التي ينيرها ضياء حبّ كهذا محتشمة ، شديدة الحياء : فهي تخجل وتختبىء . ولا تسعى التحدّي ؛ ربما تفعل ذلك إشفاقاً وتسامحاً . وربما لأنّ دهاة الحب يدوسون بأقدامهم ويمرّغون بالأوحال الزهرة الغضة الطرية ، قبل أنْ تترسخ جذورها في أعماق الأرض وتصبح شجرةً وارفة الظلال » .

كان يتأمل الزيجات ، ويرى في علاقات الأزواج مع زوجاتهم لغزاً محيّراً شبيهاً بلغز أبي الهول ، كان يعتقد بأنّ هناك شيئاً غامضاً ، غير مفهوم في تلك العلاقات ، لكنّ الأزواج لم يتوقفوا لحلّ هذه المسائل

twitter @baghdad_library

الغامضة المعقدة ، بل اكتفوا بالسير على طريق الزواج المألوف . كأنَّ شيئاً لم يكن ،وكأنه لا وجود لأية مشكلات تتطلب منهم تمحيصاً وحلاًّ .

« هل هم على صواب ؟ ربما كان الأمر لايستدعي منهم حقاً . شيئاً أكثر من ذلك » ... كان شتولتس يفكر بارتياب وعدم ثقة ، وهو يرى كيف يجتاز البعض الحب بسرعة ، بمجرّد أنْ يدخلوا آفاق الحياة الزوجية ، فتصبح العلاقة نوعاً من الواجب وتأدية مظاهر الإحترام الضرورية في المجتمع ، لا أكثر !

فهؤلاء يودّعون ربيع الحياة بسرعة فائقة ، حتّى انّ الكثيرين منهم ينظرون بعد ذلك الى زوجاتهم شزراً ، مبدين الأسى والأسف طيلة حياتهم لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الغباء ، عندما أحبوهنّ في وقتٍ من الأوقات .

بيد أنّ الحبّ بالمقابل ، يلازم البعض الآخر من الناس زمناً طويلاً يبقى أحياناً حتّى سن الشيخوخة ، لكنّ ابتسامة السخرية والإنتقاد لاتفارقهم مطلقاً . . .

وأخيراً ، فإنّ الغالبية العظمى من الناس تدخل المؤسسة الزوجية وتنظر إليها كملكية ، تُحقّق من خلالها بعض الفوائد ، وتستمتع بالأرباح المتأتية منها : فالزوجة تهتم بترتيب البيت على أحسن وجه ، وتبدي سرورها لأنها أصبحت ربة منزل ، وأمّاً ومربية أطفال ، لكنها تنظر الى الحب كما ينظر صاحب الأملاك والعقارات الى موقع أملاكه ، أي أنها قد تعوّدت عليه وألِفَته بسرعة . ولم تعد تشعر به بعد ذلك أبداً.

– ماسبب ذلك : هل عدم الأهلية هذا ناجم بسبب قوانين الطبيعة ذاتها ، – قال شتولتس ، – أم هو نقص في التربية والإعداد والتأهيل ؟ . أين هي تلك العاطفة ، التي لاتفقد روعتها وتألقها الطبيعي أبداً ، أين هي تلك العاطفة الرائعة، التي لا تبهت ولا تخبو ولا تنطفيء ؟ أي خير رائع عميم يُسْفَك ، أي نسغ للحياة يراق ؟

نظر بعيداً بتأمل ، فلاحت له هناك ، عبر الضباب ، صورة امرأة تتألق عاطفةً وضياءً ، صورة بسيطة ، لكنها طاهرة متألقة .

– حلم ! حلم ! – قال شتولتس وهو يثوب الى رشده مبتسماً من هذه الصورة ، التي داعبت مخيلته بكسل .

لكنّ ملامح هذه الصورة المتخيَّلة ظلت تعيش في ذاكرته رغماً عنه .

في البداية ، كانت هذه الصورة بالنسبة له تجسد مستقبل المرأة بوجه عام ، ونجاحها المتوقع ؛ لكنه عندما شاهد بعد ذلك أولغا الناضجة الشابة التي لم يفتنه جمالها الساحر فحسب ، بل قوتها أيضاً وحبها للحياة واستعدادها الواضح للصراع معها وقبول تحديها ، فإنّ الصورة الحلم ، صورة الحب التي تخيلها ورسمها لنفسه يوماً ، والتي كاد أنْ ينساها ، قد تجسدت له بكل تفاصيلها في أولغا ، وبدا له وهو يستشرف صورة المستقبل ، بأنّ الحقيقة لابدّ أنْ تكون كامنة في حبهما المرتكز على إدراك حقيقي لمضامينه ، والبعيد كل البعد عن سوء الإستخدام .

بيد أنّ شتولتس لدى تناوله مسألة الحب والزواج ، التي لم يدرج فيها أية مسائل أخرى من حسابات وأموال وعلاقات وتنقلات وأسفار ، كان يفكر جدياً كيف سيوفق بين نشاطه الخارجي الذي لم يضعف حتى

twitter @baghdad_library

الآن ، وبين حياته الزوجية ، وكيف سيتحوّل من تاجر كبير ، كثير الأسفار ، الى رب أسرة يلازم البيت ؟ فاذا ما توقف عن نشاطه الخارجي وأسفاره تلك ، فما الذي سيملأ حياته في المؤسسة الزوجية ؟

فتربية الأولاد وتعليمهم وتوجيه حياتهم ، ليس أمراً هيناً بالطبع ، لكن ذلك كله سيأتي في مرحلة لاحقة من الحياة الزوجية ، وليس فوراً، فما الذي يستطيع أنْ يفعله قبل أنْ تحين تلك المرحلة ؟

كانت هذه الأسئلة تقلقه غالباً منذ زمن بعيد ، ولم يكن يتبرّم من حياة العزوبية ؛ لم يخطر بباله أنْ يقيّد نفسه بسلاسل الزواج ، بمجرّد أنْ يخفق قلبه حباً وإعجاباً باحدى الجميلات . ربما بسبب ذلك كان حذراً من أولغا – الفتاة ، فقد كان يستمتع بالنظر إليها ، كما يستمتع المرء بالنظر الى طفلة صغيرة محببة ، لها مستقبل واعد ؛ كان يطرح عليها ، وهو يمازحها ، بعض الافكار الجديدة الجريئة ، والملاحظات الدقيقة الثاقبة حول الحياة ، فيتلقفها ذهنها الوقاد بحيوية ورغبة ، وهكذا خلقَ في نفسها دون أنْ يعرف أو يفترض ،استيعاباً جيداً للظواهر الحياتية ، ونظرة صائبة للأمور ، لكنه نسي بعد ذلك أولغا ودورسه تلك ، الخالية من الجدية .

لكنه ، عندما كان يرى أحياناً ، ومضات ذكية ، غير عادية تصدر عن ذهنها الوقاد ، ونظرات خالية من الخداع ، لاتبحث عن السيطرة والمجد الشخصي ، بل تنمّ عن مشاعر عفوية صادقة ، غير متكلفة ، صميمية ، جريئة ، نابعة من أعماقها ، – فانه كان يحتار ويتعجب من

أين لها ذلك كله . لأنه كان قد نسي دروسه العابرة وملاحظاته السريعة لها .

ولو أنه نظر إليها بتمعّن آنذاك، لأدرك بأنها تتمسك بالسير على الطريق المستقلّ ، الذي اختطته لنفسها مهما كانت العقبات ، حتّى أنها كانت ستتجاوز تأثير عمتها ووصايتها عليها، وتتخطى نفوذ المربيات والجدات والخالات والأسرة والطبقة والعادات والطباع القديمة والمواعظ . ولتيقّن بأنها ستدافع عن طريقها الجديد هذا ، الذي سارت عليه بوعي وبعاطفة وترفض السير على الطريق القديم مهما كلفها ذلك .

لكن الطبيعة لم تسيء إليها ، ولم تجبرها على ذلك ؛ فعمتها لم تستبد بها ، ولم تفرض سيطرتها على إرادتها ومشيئتها ، فأولغا تستطيع تقدير الكثير من الأمور لوحدها . إذ كانت تتأمل الحياة بحذر ، كما كانت تصغي بالمناسبة ، لحديث ونصائح صديقها . . .

لم يكن شتولتس يدرك شيئاً من ذلك . لكنه كان ينتظر منها الكثير في المستقبل ، في المستقبل البعيد طبعاً .

وبسبب من حيائها وعزة نفسها ، ظلت أولغا طويلاً دون أن تكشف بوضوح عن مواهبها وإمكاناتها . فقد تمكن شتولتس فقط ، بعد صراع مضنٍ في الخارج ، أن يكتشف بكثير من الدهشة ، كم تطورّت ونضجت أولغا — الطفلة ، التي كاد أن ينساها . وكم أصبحت شخصيتها قوية وبسيطة . أصبحت تتبدّى أمامه هناك تدريجياً لجّة نفسها العميقة . التي كان عليه أن يملأها ويكتشف أعماقها .

twitter @baghdad_library

اضطر في البداية لأنْ يخفّف من حماسها الزائد وقلقها ، ومن طبيعتها المفرطة في حيويتها ، وأنْ يبذل جهداً كبيراً في سبيل الحدّ بعض الشيء من اندفاعتها العاطفية ، وتنظيم مجراها بانسياب ، ولو لبعض الوقت : لكنه ما إنْ أغمض عينيه ، وهو يعتقد بأنه فعل ذلك بنجاح ، حتى عاد القلق إليها واضطرب قلبها واتقد ذهنها ؛ كان عليه أن يهدّئ خيالها المتهيّج ، ويحدّ من حساسيتها المفرطة .

فضباب الهلوسة والإيمان بالمصادفة . اختفيا من حياتها . أصبح الأفق أمامها واضحاً جلياً كالماء العذب الرقراق ، فقد أصبحت ترى فيه بوضوح وصفاء كل حصاة وأخدود . ومن ثم القاع النظيف الصافي .

— إني سعيدة ! — همست أولغا وهي ترمي حياتها السابقة بنظرة شكر وامتنان ، ثم تطلعت الى المستقبل ، وهي تتذكر حلم سعادتها ، الذي تخيلته في سويسرا ، والأمسية الرائعة الحالمة هناك . فوجدت أنّ حلمها ذاك يسري كالظلّ في حياتها .

« لماذا كان ذلك كله من نصيبي ؟ » — فكرت أولغا بوداعة . كانت تستغرق في التفكير ، حتى انها كانت تخشى أحياناً ، أنْ تنقطع هذه السعادة فجأة .

انقضت سنوات على زواجهما ، لكنهما ظلاّ ينعمان بالعيش المشترك . كان الهدوء قد خيم . والإنفعالات العاطفية قد هدأت ؛ أصبحت تعرجات الحياة مفهومة ، إذ كانت تواجَهُ بصبر وبهمّة ، لكن حياتهما لم تخمد .

تربت أولغا بروح الفهم الصارم للحياة ، فقد توحد كيانها مع كيان أندريي وَشَكَّلا مجرىً حياتياً واحداً ؛ فعربدة الأهواء الجامحة وتسلطها لم يكن ممكناً : فحياتهما كان تجري بايقاع وبهدوء .

يحلم المرء أن ينام في هدوء جديد كهذا ، وأنْ ينعم به ويستمتع ، كما يستمتع سكان المناطق المنعزلة النائية ، الذين يتجمّعون ثلاث مرات يومياً ، ويتثاءبون أثناء تبادل الحديث ، ويغطون في سبات عميق ، ويشعرون بالضجر والملل والتعب خلال النهار ، لأنه لم يعد هنالك شيء يثير تأملهم وحديثهم ، ولم يبق لديهم موضوع يطرقونه، فقد تكلموا الكثير وتحدثوا عن كل مايمكن أنْ يتحدثوا عنه . لأنّ هذه هي « سنة الحياة على الارض » .

من حيث المظهر الخارجي ، كان يحدث عندهم كل مايحدث عند الآخرين .

صحيح أنهما لم يكونا يستيقظان مع الفجر ، لكنهما كانا يستيقظان باكراً ؛ كانا يحبّان أن يجلسا طويلاً حول مائدة الشاي ، حتى أنهما كانا يصمتان بتكاسل أحياناً ، ثم يفترقان بعد ذلك الى اماكن مختلفة ، أو يعملان معاً ، ويتناولان الغداء ويذهبان الى الحقول ، ويعزفان الموسيقى. أي أنهما كانا يفعلان كما يفعل الآخرون ، وكما كان يحلم أبلوموف .

لكنهما ، لم يعرفا النعاس ولا الكآبة ، كانا يقضيان الأيام بلا ملل أو خمول ، فلم تكن نظراتهما ذابلة ولا كلماتهما : لم يكن الحديث ينتهي بينهما ، حتى أنه كان حاراً وحامياً في أغلب الأحيان .

twitter @baghdad_library

كانت أصواتهما الرنانة تتردّد في أوجاء الغرف ، وتصل اصداؤها الى الحديقة ، وهما يتبادلان أطراف الحديث ويرطمان زخرف أحلامهما ويكشفان عن همسات روحيهما ، التي لاتكاد تُسْمَع . . .

كان صمتهما أحياناً ، تعبيراً عن سعادة متأملة ، حلم بها أبلوموف في وقت من الأوقات ، أو عملاً ذهنياً صامتاً من جانب كلٍ منهما يتصدى للإجابة على الأسئلة ، التي طرحها كل منهما على الآخر . . .

كانا غالباً يستغرقان في دهشةٍ صامتة وهما يتأملان روعة الطبيعة وتألقها الدائم المتجدد أبداً . فلم تفقد الطبيعة روعتها في أعينهما ، إذ كانا يجدان دائماً في الأرض والسماء والبحر مايحرّك مشاعرهما ، ويثير متعتهما ، وكانا يجلسان جنباً الى جنب صامتين ، ينظران بعيونٍ واحدة وبروح واحدة الى ذاك التألق الخلاّب ويفهمان بعضهما بدون كلمات .

لم يصدف أن استقبلا الصباح بعدم اكتراث ، ولم يقدرا على النظر الى سحر ليل الجنوب الدافىء ، كثير النجوم بعدم مبالاة . فحركة الأفكار الدائمة ، وتهيّج الروح المستمر ، وحاجتهما لأنْ يفكّرا ويشعرا ويتحدثا معاً ، — كل ذلك كان يثير مشاعرهما .

لكن ، ماهو موضوع هذه النقاشات الحامية ، والأحاديث الهادئة ، والمطالعات ، والنزهات البعيدة ؟

كانا يتطرقان لكل شيء . فشتولتس كان قد أقلع عن القراءة والعمل لوحده ، منذ أنْ كان في الخارج : وها هو الآن يفكر مع أولغا بشكل مشترك . فقد بذل الكثير من الجهد ، حتى استطاع اللحاق بأفكار أولغا السريعة المتلاحقة .

فالسؤال ، الذي طرحه في وقت من الأوقات ، المتعلق بما سيفعله ويشغل به نفسه في الحياة الزوجية ، قد وجد حلاً من تلقاء ذاته . فقد اضطر لأن يشركها في الجانب العملي من حياته ، لأن انعدام الحركة في الحياة . يخنق الإنسان ، كما يخنقه انعدام الهواء تماماً .

فأي مبنى يشيد في أملاكه أو في أملاك أبلوموف ، وكل أمر يتعلق بالشركة التي يعمل فيها ، كان يتم بمعرفتها ومشاركتها . لم يكن يرسل رسالة إلا بعد أن يقرأها على مسامعها ، لم تكن هنالك فكرة تتعلق بمشروع مفترض ، إلا وكانت تعرفها ، كانت تعرف كل شيء وتهتم بكل شيء . لسبب جوهري هو أن ذلك كان يهمه .

كان شتولتس يفعل ذلك كله في البداية ، لأنه كان من المتعذر عليه إخفاء ذلك عنها :

فالرسالة التي يكتب ، والحديث مع وكيل القرية ، أو مع أحد المتعهدين ، — كل هذا كان يجري أمام سمعها وبصرها ، ثم أصبح مستمراً على ذلك فيما بعد بحكم العادة . لكن الامر قد تحول اخيراً الى ضرورة بالنسبة له .

أصبحت ملاحظتها ، ونصيحتها . وصار استحسانها أو استنكارها بالنسبة له تدقيقاً لاغنى عنه : فقد أدرك بأنها تفهم الأمور كما يفهمها هو تماماً ، وتعالجها وتناقشها ليس باسوأ منه . . . فزاخار كان يغضب بسبب توفر هذه الموهبة والإمكانية في زوجته ، وكذلك يغضب الكثيرون ، لكن شتولتس كان سعيداً !

twitter @baghdad_library

أما القراءة والتعلم ، فهما المصدر الأبدي للإمداد بالأفكار وتطويرها المستمر ! فأولغا كانت تتحمس لكل كتاب جديد ، ومقالة صحفية ، حتّى انها كانت تغضب بشدة ، لابل تشعر بالإهانة عندما يرى شتولتس بأنه من غير المستحسن ، حسب رأيه ، إطلاعها على أمر ما بسبب صعوبته وجديته الفائقة وعدم قدرتها على فهمه : كانت تسمي ذلك حذلقةً وابتذالاً وتخلّفاً ، حتى انها كانت تنعته بأنه « رجعي ألماني عتيق ». كانت تحدث بينهما بسبب ذلك ، مشاهد حية ، من الغضب والإنفعال .

كانت أولغا تغضب ، أما شتولتس فكان يضحك ، الأمر الذي كان يثير غضبها أكثر ، لم تكن تهدأ إلاّ بعد توقف شتولتس عن المزاح واقتناعه بإطلاعها على فكرته وبمشاركتها له في كل شيء . كان الأمر ينتهي بينهما بالإتفاق على أنّ كل ماهو ضروري بالنسبة لشتولتس من قراءة ومعرفة وخبرة ، هو ضروري بالنسبة لها أيضاً .

لم يفرض عليها أن تصبح عالمة تكنيك ، كي لايكون هنالك مايدعو الى التبجّح والتباهي بأنها « زوجة عالمة » . فمجرد الإشارة أو التلميح من خلال كلمة تفلت منها بادعاء ذلك ، يمكن أنْ يثير خجله وارتباكه ، اكثر مما تثيره نظرة بلهاء جاهلة تصدر منها رداً على سؤال اعتيادي مألوف في الحقل المعرفي . مازال بعيداً عن متناول التربية الأنثوية المعاصرة ، لكنه كان يرغب ، وكانت هي ترغب أكثر أيضاً ، بألاّ يبقى هنالك شيء على الإطلاق مستعصياً على الفهم والإدراك .

لم يكن يرسم لها الجداول البيانية والأرقام ، لكنه كان يحدثها عن كل

شيء ، فقد قرأ لها الكثير ، لم يترك نظرية اقتصادية ، ولا مسألة فلسفية أو إجتماعية إلاّ وحدثها عنها بكثير من الحماس والإهتمام : كأنه كان يرسم لها لوحةً معرفيةً حيّةً لا نهاية لها . كانت التفاصيل تختفي من ذاكرتها فيما بعد ، لكن مامن أحدٍ كان يستطيع أنْ يزيل من ذهنها الوّقاد الأفكار الأساسية الرئيسية ، أو يطفيء النور الذي أضاء كل شيء من حولها .

سيرتعش زهواً وسعادة، عندما سيرى بعد ذلك شرارة الضياء تلمع في عينيها . عندما سيتأكد بأنّ الأفكار التي نقلها إليها ، أصبحت تتردّد في أحاديثها ، بعد أنْ ترسخت في وعيها وإدراكها ، وبعد أنْ تمّ استيعابها في ذهنها . لتتبدّى الآن في كلماتها وقد اكتسبت بريقاً أنثوياً رائعاً وانسجاماً متقناً ، خاصةً إذا ما استقرت قطرة مما قرأه ورسمه وقاله لها في قاع حياتها كاللؤلؤة .

كان ينسج لها ، كمفكر وكفنان . كياناً ذكياً رائعاً ، لكنه لم يكن يوماً مستغرقاً بعمل هكذا . لافي مرحلة الدراسة . ولا في أيامه الصعبة القاسية ، عندما كان يصارع الحياة ليتخلص من مصائبها ومكائدها وليخرج من معمعانها أشدّ بأساً وأقوى عزيمةً ، كما هو مستغرق الآن في عمله البركاني المستمر هذا ، وهو يتصدّى بدأب لتكوين وصقل شخصية رفيقة حياته !

ــ كم أنا سعيد ! ــ أسرّ شتولتس لنفسه وهو يحلم على طريقته الخاصة ، ويستبق الأمور بعيداً الى الأمام ، الى الزمن ، الذي تكون فيه سنوات الزواج الذهبية قد انقضت .

twitter @baghdad_library

في الأفق البعيد ، كان هنالك طيف جديد يبتسم له ثانية . لكنه لم يكن طيف أولغا الأنانية ، ولا طيف الزوجة التي تحبه بشغف ، ولا طيف الأم — مربية الاطفال ، الغارقة في حياة ذابلة تافهة . بل طيفٌ من نوعٍ آخر لم يراه مثيلاً من قبل . . .

حلم بالأم — المبدعة ، المساهمة في إبداع الحياة الخلقية والإجتماعية لجيلٍ كامل يرفل بالسعادة .

كان يفكّر بخوف : إنْ كانت القوة والإرادة ستتوفران له من أجل تحقيق ذلك . . . لذا فقد هبّ لمساعدتها على تطويع الحياة بأسرع مايمكن ، مغتنماً الظرف الراهن بالذات ، القادرين فيه على العطاء : الظرف الذي لايزالان فيه شابين قويين ، من أجل أنْ يؤمّنا ذخيرة كافية من القوة الضرورية لمواجهة الحياة ، طالما أنها — أي الحياة — مازالت ترأف بهما ، طالما أنّ صفعاتها ولطماتها مازال ممكناً احتمالها ، وطالما أنّ المصيبة ما زالت تغور في الحب .

أظلمت أيامهما ، لكن لمدة غير طويلة . فالإخفاقات في العمل ، وفقدان مبلغ كبير من المال ، — لم يكن يملك بالنسبة لهما أهمية كبيرة . فمثل هذه الأمور كانت تتطلب منهما جهوداً إضافية ، ومزيداً من الأسفار والتنقلات . ثم يُسوّى الأمر ويُطوى نهائياً .

أثار موت العمة دموعاً حارة صادقة سخية لدى أولغا ، وقد خيّم الحزن على حياتها أكثر من نصف عام .

أكبر المخاوف والهموم وأشدها ، كان يسببها مرض الأطفال ، لكن

ما إنْ تنتهي الأمور بخير ، حتى تعود السعادة لتخيّم من جديد .

كان أكثر مايقلق شتولتس صحة أولغا : كانت تبقى طويلاً بعد الولادة قبل أنْ تستعيد عافيتها ، وكان يظل قلقاً منشغلاً عليها ، حتى بعد أنْ تستعيد صحتها . فهو لم يعرف مصيبة أكبر من ذلك .

— كم أنا سعيدة ! — كانت أولغا تؤكد بهدوء وهي تتأمل حياتها ، حتى أنها كانت تستغرق في التفكير أحياناً في لحظة اعترافها هذا . . . وخاصةً بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على زواجها .

— غريب هو الإنسان ! كلما كانت سعادته أكبر ، كلما أصبح أكثر تأملاً ، وحتى . . . خوفاً . كانت أولغا تراقب نفسها وتجد ، بأنّ صمت الحياة وسكونها يكدّرانها . أخذت تنفض عن كاهلها قسريّاً ، هذا الهاجس ، وراحت تبحث عن حياة نشطة ، مليئة بالضجة والحركة والمشاغل ، وصارت تذهب مع زوجها غالباً الى المدينة ، وتلتقي بالناس ، لكن لمدة ليست طويلة .

كانت جلبة المجتمع تنعكس عليها سلباً ، لذلك كانت تسارع لتخفف عن نفسها من وطأة هذا الانطباع الثقيل غير المألوف ، المخيم عليها ، فتنصرف من جديد لتُشْغِلَ نفسها بشؤون الحياة المنزلية الصغيرة : إذ كانت تبقى أياماً بكاملها دون أنْ تغادر حجرة أطفالها وهي تقوم بواجب الأم — المربية ، كما كانت تستغرق مع أندريه في القراءة والنقاشات عن « الجدّي والماضجر » ، كانا يقرآن عن الشعراء ، ويتحدثان عن السفر إلى إيطاليا .

twitter @baghdad_library

كانت تخشى أنْ تصاب بخمول أو ضجر من النوع الأبلوموفي . فعلى الرغم من محاولاتها الجادة المتكررة . لم تستطع أنْ تتحرر من لحظات الذهول الدورية ومن كبوة الروح وسباتها . في البداية ، كانت تشعر بالسعادة ، وهي تسترسل مع همسات الليل الناعمة الرقيقة ، فتحسّ بالخدر ، ثم ماتلبث أنْ تخيّم من جديد ، لحظة التأمل ، التي كانت تبدو لها بمثابة استراحة من عناء الحياة ، ثم يعقبها . . . القلق ، الخوف ، التعب ، ونوع من الحزن الصامت العميق . ثم تتتابع في ذهنها أسئلة مبهمة غامضة بلا انقطاع .

كانت أولغا تصغي بانتباه شديد وتتأمل بعمق حالتها في محاولة منها للوقوف على حقيقة ماتبحث روحها عنه ، لكنها لم تستطع أنْ تستنبط شيئاً : كان يبدو لها أنّ روحها تبحث عن أمر ما لاتعرف كيف تحدّده. إنها تتعذب وتتألم ، كأنها قد ملّت حياتها السعيدة تلك وتعبت منها ، وهاهي الآن تبحث عن ظواهر جديدة ، لم تحدث من قبل ، وتنظر بعيداً الى الأمام . . .

« ماهذا ؟ — كانت أولغا تفكر برعب — هل يعقل ، بأنني لاأزال أريد شيئاً ما ؟

الى أين أذهب ؟ لا يوجد مكان أذهب إليه ، لم يبق أمامي طريق ... لكن ، هل من المعقول أنْ أكون قد اجتزت طريق الحياة كله ؟ هل هذا هو نهاية المطاف . . . » . . كانت روحها تتكلم ، لكنها لم تستطع أن تكمل . . . أخذت أولغا تنظر بقلق الى ماحولها ، لتتأكد إنْ كان

هنالك أحد قد سمع أو فهم همسات روحها . . . كانت تسأل بعينيها السماء ، البحر ، والغابة . . . لكنها لم تلق جواباً : فهناك البعد والعمق والظلام .

كانت الطبيعة تردّد شيئاً واحداً لايتغير ، فقد شاهدت أولغا فيها مجرى الحياة الرتيب المستمر ، بدون بداية ، وبلا نهاية .

لنفترض أنها عثرت على من تسأله عن سبب قلقها هذا ، فماذا سيكون الجواب ؟ كم سيكون مروّعاً ، لو اتضّح ، أنّ قلقها هذا ناجم عن ذهن كليل ، والأسوأ من هذا أيضاً ، أنْ تكون معاناتها تلك ناجمة عن قلب غير مؤهل للعاطفة والحب ! ياإلهي ! لكن شتولتس مُتَيّمٌ بحبّها — فكيف يمكن لعقلها وقلبها أن يكونا بهذه الدرجة من القساوة ! ماذا تفعل ؟ هل هي حقاً مجرّدَةٌ من الرقة الأنثوية ؟ كم سيكون وضعها صعباً ، عندما ستتكشّف له عذاباتها ومعاناتها الجديدة هذه ، التي لابدّ أنْ يقف على حقيقتها !

كانت تشيح بوجهها عنه أو تتذرع بالمرض ، عندما كانت عيناها تفقدان الرقة الأنثوية ، رغماً عن إرادتها ، فتبدوان جامدتين بدون بريق ، وعندما كانت غمامة من الكآبة تغطي وجهها . حتى انها لم تكن تستطيع أن تجبر نفسها على أن تتصنع الابتسامة ؛ كانت تستقبل بعدم اكتراث ، أهمّ الأخبار السياسية في العالم وأكثرها جدّةً وأهمية ، كما كانت تصغي بعدم مبالاة أيضاً لأحدث الإكتشافات المثيرة في مجال العلم ولأروع ماتحَقّقَ من إنتاجٍ إبداعي في مجال الفنون .

twitter @baghdad_library

لكنها لم تبك ، ولم تشعر برعشة مفاجئة ، كما كان يحدث معها فيما مضى . عندما كانت أعصابها تضطرب ؛ عندما كانت تستيقظ وتتأجج عواطفها الأنثوية الفياضة . كلا ، فما تشعر به الآن هو شيء آخر تماماً!

ــ ماهذا الذي يحدث لي ؟ ــ كانت تسرّ لنفسها بقنوط . عندما تصبح فجأة ، كئيبة غير مبالية بشيء ، على الرغم من روعة ليل الجنوب وحتى وسط ملاطفات زوجها وأحاديثه . . .

كانت تتجمّد فجأة وتصمت . ثم تتململ بعد ذلك قليلاً وتتظاهر بالحركة ، من أجل أنْ تخفي حالتها تلك ، أو تتذرع بالشقيقة وتذهب لتنام .

لكنه لم يكن سهلاً عليها أنْ تخفي ذلك كله عن نظرة شتولتس الثاقبة : كانت تعرف ذلك جيداً ، كانت تستعد مسبقاً لمواجهة الحديث الذي لابد أنْ يدور ، تستعد لذلك بكثير من الإضطراب ، من نوع ذاك الذي كانت تشعر به عندما كانت تستعد للإعتراف بماضيها . وها هي لحظة الحديث قد حانت .

ذات مساء ، كانا يتمشّيان في الممر ، الذي تحيط به أشجار الحور . كانت مستندةً على كتفه وهي صامتة بعمق . كانت هنالك نوبة من الإضطراب الداخلي الخفي تعذبها ، وكانت تجيب باقتضاب ملحوظ على كل ماكان يقوله زوجها .

ــ المربية تقول ، بأنّ أولينكا كانت تسعل أثناء الليل . أليس من الضروري أنْ نستدعي الطبيب غداً ؟ ــ سأل شتولتس .

— لقد سقيتها شراباً ساخناً ، ولن أسمح لها بالخروج غداً الى النزهة. سنرى ماسيكون ! — أجابت أولغا برتابة .

ظلاّ صامتين بعض الوقت ، ووصلا الى نهاية الممر وهما على هذه الحالة .

— لماذا لم تجيبي على رسالة صديقتك سونيتشكا ؟ — سأل شتولتس .
كدت أنْ أتأخر عن البريد ، بسبب انتظاري لك . فها هي الرسالة الثالثة قد وصلت منها ، دون أن تردّي على أي منها .

— أريد أنْ أنساها بأسرع مايمكن . . . — قالت أولغا ، ثم صمتت .

— لقد أبلغت بيتشورين تحيتك . — بدأ أندريي الكلام من جديد . إنه معجب بك ، فلعلّه يجد في ذلك بعض العزاء ، الذي يمكن أنْ يخفّف من انزعاجه ، بسبب عدم وصول محصوله من القمح اليه في الوقت المحدد .

ابتسمت أولغا بجفاء .

— أنت الذي قلت ذلك ، لاأنا ، — قالت بعدم اكتراث .

— مابك ، هل تريدين النوم ؟ — سأل شتولتس .

دقّ قلبها بشدة ، ولم تكن هذه هي المرة الأولى . بل كان ذلك يحدث لها في كل مرة تقترب فيها الاسئلة من الموضوع ، الذي تخشاه .

— كلا ، — قالت بحيوية متصنّعة ، — لماذا ؟

twitter @baghdad_library

ـ هل أنت متوعكة ؟ ـ سأل من جديد .

ـ كلا . لماذا يبدو لك ذلك ؟

ـ لأنّ الملل بادٍ عليك .

ضغطت بشدة على كتفه بكلتا يديها .

ـ كلا ، كلا ! ـ أجابت بالنفي بصوت متصنع ، كان الضجر يظهر فيه بوضوح . أخرجها من الممر وصَوَّبَ وجهها نحو ضوء القمر .

ـ انظري إليّ ! ـ قال شتولتس وهو ينظر الى عينيها بإمعان .

ـ يمكن الإعتقاد بأنك . . . غير سعيدة ! فعيناك غريبتا الأطوار . ليس اليوم فقط ، بل . . . ماذا جرى لك ياأولغا ؟

ـ أمسكها بخصرها وقادها من جديد الى الممر .

ـ أتعرف لماذا : لأنني . . أحس بالجوع ! ـ قالت أولغا وهي تحاول الضحك .

ـ لاتكذبي ، لاتكذبي ! فأنا لاأحب الكذب ! ـ أضاف شتولتس بصرامة متصنّعة .

ـ غير سعيدة ! كررّت معاتبة وهي تستوقفه في الممر . ـ أجل فأنا غير سعيدة ، لسبب واحد . . . هو أنني جدّ سعيدة ! ـ أكملت أولغا بصوت ناعم رقيق لطيف ، أجبر شتولتس على أنْ يقبّلها .

أصبحت أكثر جرأة . ومع أنّ الافتراض بأنها غير سعيدة ، قد جاء في صيغة مازحة . إلا أنّ ذلك قد دفعها لأنْ تتكلّم فجأة ، بصراحة .

ـ أنا لاأشعر بالملل . ولا يمكن أنْ أشعر بالملل : فأنت تعرف ذلك

ولا تصدّق بالطبع ماقلته بهذا الصدد ؛ لست مريضة ، بل . . . حزينة . فهذا مايحدث لي أحياناً . . . كنت أعرف ، بأنني لن أستطيع أن أخفي ذلك عنك ! أجل ، إنني حزينة ، لكنني لاأعرف السبب !

وضعت رأسها على كتفه .

— هكذا إذن ! ماالسبب ؟ — سأل بصوت خافت وهو يميل نحوها.

— لاأعرف كررت أولغا .

— بيد أنه لابدّ أنْ يكون هنالك سبب ، إنْ لم يكن فيّ ، أو من حولك ، فيجب أنْ يكون فيك بالذات . فهذا الحزن لايعدو أن يكون أحياناً بداية المرض . . . فهل صحتك بخير ؟

— أجل ، قد يكون الأمر ، — قالت بجدّية — شيئاً من هذا القبيل ، مع أنني لاأحس بشيء . فأنت ترى كيف آكل وأتنزه وأنام وأعمل . وفجأة أشعر بنوع من الإكتئاب . ويصبح مزاجي سوداوياً . . . فتبدو الحياة كأنّ شيئاً ينقصها . . . لاتأبه لما أقول : فهذا كله كلام فارغ .

— تكلمي ، تكلّمي ! — ألحّ باصرار وبحيوية . — إذاً ، فالحياة ينقصها شيءٌ ما ، ماذا أيضاً ؟

— ينتابني نوع من الإحساس بالخوف أحياناً ، — تابعت أولغا ، — أجل ، فكل ماأرجوه هو أنْ تكون الحياة أغنى وأخصب مما عشت ، إذ لابد أنْ تكون هنالك أمور أخرى كثيرة . . . فهذه الفكرة تعذبني ، لكنني أتساءل وأقول : ماذا يمكن أنْ يكون أيضاً ؟ . . . ماهي السعادة ،

twitter @baghdad_library

ماهي الحياة . . . — كان صوتها يخفت أكثر فأكثر ، كأنها قد خجلت من هذه الأسئلة ، — هل هي الافراح ، المصائب . . . الطبيعة ، — همست أولغا ، — لكنني أشعر بالرغبة أيضاً بما هو أبعد وأعمق من ذلك ، ماذا أقول ! أبدو وكأنني غير راضية بأي شيء مما هو موجود وقائم . . . ياإلهي ! إني أشعر بالخجل من هذه الحماقات . . . هذا حلم .

أرجوك أنْ تتغاضى عن ذلك ، أرجوك ألاّ تكترث . . . — أضافت بصوت متوسل وهي تلاطفه .

— فهذا الحزن سيزول سريعاً ، وسأصبح من جديد مرحة مسرورة كما أنا الآن !

التصقت به بحياء وبمحبة وقد خجلت من نفسها حقاً ، كأنها تطلب المعذرة بسبب ماارتكبته من « حماقات » .

استنطقها زوجها طويلاً ، وردّتْ على أسئلته طويلاً ، كما يردّ المريض على أسئلة الطبيب . إذ أفصحت عن أعراض حزنها . وعن الاسئلة الغامضة ، التي تتردّد في ذهنها ، وعن الإضطراب الذي ينتابها . كما أوضحت ، كيف كانت هواجسها تختفي بعد ذلك وتزول — ، أي انها أخبرته عن كل شيء كانت تستطيع أنْ تتذكره وتلاحظه .

أخذ شتولتس يسير من جديد في الممر صامتاً ، منكّساً رأسه ، متأملاً بعمق وبقلق وبذهول اعتراف زوجته المبهم .

نظرت أولغا الى عينيه ، لكنها لم تر شيئاً ، وعندما وصلا في المرة الثالثة الى نهاية الممر ، أمسكت به وأخرجته من الممر ، وصوّبَتْ وجهه نحو ضوء القمر ، ثم نظرت الى عينيه متسائلة .

– مابك ؟ – سألت بحياء . – إنك تسخر من حماقاتي . أليس كذلك ؟ فحزني هذا سخيف جداً – أليس هذا صحيحاً ؟

ظلّ شتولتس صامتاً .

– لماذا تصمت ؟ – سألت بفارغ الصبر .

– لقد صمتت طويلاً ، مع أنك كنت تدركين بالطبع . بأني قد لاحظت منذ زمنٍ بعيد كل الأعراض ، التي كنت تشعرين بها ، عليك الآن إذاً ، أن تتركيني أصمت وأفكر . فلقد طرحت عليّ مسألة ليست سهلة .

– لكني سأتعذّب . لأنك ستفكّر بحلّ هذه المسألة لوحدك . كان ينبغي ألاّ أقول لك شيئاً ! – أضافت أولغا . – من الأفضل أنْ تقول شيئاً ما . . .

– ماذا أقول لك ؟ – قال متأملاً . – ربما كان اضطراب الأعصاب مازال يؤثر عليك ، فقد يكون من الجائز ، أنه هو الذي يتكلم : في مثل هذه الحالة ، الطبيب هو الذي يقرر ويوضح حالتك ، وليس أنا . يجب استدعاء الطبيب غداً . . . فاذا مااتضح بأنه ليس اضطراباً . . . –

بدأ شتولتس ، ثم استغرق في التفكير .

– « فاذا مااتضح بأنه ليس اضطراباً » ، فماذا سيكون ؟ قُلْ ! أكمل ! – ألحّت أولغا بفارغ الصبر .

تابع شتولتس السير وهو مايزال مستغرقاً في التفكير .

– تكلم ! – قالت أولغا وهي تهزّ يده .

twitter @baghdad_library

ـ ربما كان هذا من فرط الخيال : فأنت حيوية جداً . . . ولربما كان ذلك ناجماً أيضاً ، لأنك نضجت وبلغت مرحلة . . . ـ أكمل بصوت خافت جداً ، كأنه يتحدث الى نفسه .

ـ أندريي ، تكلم بصوت عال من فضلك ! فأنا لاأستطيع أنْ أتحمل عندما تغمغم ! ـ قالت شاكية . ـ مادمت قد أفضيت لك بكل شيء فلا يجوز أنْ تغمغم بالكلام !

حتى انني أصبحت أشعر بالخوف معك في هذا الظلام . . .

ـ لاأعرف ماذا أقول . . . « تقولين أنّ الحزن يتتابك ، وأنّ بعض التساؤلات تقلقك » :

ماذا يُفْهَمُ من ذلك ؟ . . .

ـ لكنك غمغمت : « إذا . . . ربما . . . نضجت . . . بلغت » : ماهي الفكرة ، التي كانت تدور في ذهنك ؟ ـ سألت أولغا .

ـ كنت أفكر . . . ـ قال بهدوء وبتأمل ، وهو لايثق بفكرته ، كأنه يخجل أيضاً مما يقول . ـ بأنه توجد لحظات . . . ماأريد قوله . هو أنه إذا لم يكن هذا علامة من علامات الاضطراب ، واذا كنت صحيحة الجسم تماماً ، فلربما يكون تفسير ذلك ، هو أنك نضجت وبلغت مرحلةً يتوقف فيها تطوّر الحياة . . .

ـ يبدو ، أنك تريد أنْ تقول بأنني هرمت . أليس كذلك ؟ ـ قاطعته بحيوية . ـ حذار ! . . حتى أنها هدّدته بإشارة من يدها . ـ فأنا لاأزال شابة ، قوية . . . ـ أضافت أولغا وقد انتصبت قامتها .

بدا شتولتس بالضحك .

— لاتخافي . — قال شتولتس ، — يبدو أنك لاتفترضين مطلقاً .. بأنك ستهرمين يوماً ! كلا ، فأنا لم أقصد ذلك . . ففي سن الشيخوخة تضعف القوى وتخور وتصبح عاجزة عن مواجهة الحياة . أما حزنك ، وتعبك ، فهما كما أعتقد ، دلالة على القوة . . . فتحرّيات واستقصاءات الذهن الوقاد المضطرم ، تصطدم أحياناً بحدود الحياة اليومية المألوفة الرتيبة ولا تعثر على الأجوبة بالطبع ، فيظهر الحزن ، يظهر التبرّم المؤقت من الحياة وعدم الإرتياح . . . إنه حزن النفس المتسائلة عن أسرار الحياة . . . فحالتك هي من هذا النوع على ماأعتقد . . .

تنفست الصعداء ، فقد سرّها أنّ مخاوفها قد انتهت ، وانها لم تسقط في عيني زوجها ، بل على العكس . . .

— ها أنا ذا سعيدة ، فذهني ليس خاملاً ؛ وأنا لاأحلم ؛ حياتي متنوعة — ماالذي ينقصني ؟ لماذا هذه التساؤلات ؟ — قالت أولغا . — إنه المرض والإرهاق !

لعلّ الإرهاق سمة ملازمة للذهن الضعيف الواهي . الذي لم يتهيّأ بما يكفي لمواجهة قضايا الحياة . ربما أخرجَ هذا الحزن وهذه التساؤلات الكثيرين من عقولهم ؛ لعلّها تمثل في نظر الآخرين مظاهر شائنة ، ونوعاً من هذيان العقل . . .

— إنها تريد أن تعيش في غمرة السعادة . . . لكن السعادة هنا ، قد شابها فجأة نوع من الحزن . . .

twitter @baghdad_library

ــ آ ! هذا جزاء نار بروميثيوس ! ففضلاً عن الصبر ، يجب على الإنسان أن يحبّ هذا الحزن ويحترم هذه التساؤلات : إنها فيض الحياة ورونقها ، وهي تظهر غالباً في ذروة السعادة ، عندما لاتكون هناك رغبات فظة خشنة ؛ إنها لاتظهر في مجرى الحياة الإعتيادية ، حيث الناس مشغولون بمصائبهم وبحاجاتهم ، اذ ليس لديهم الوقت للتفكير بذلك ؛ فالناس العاديون البسطاء لايعرفون هذا النوع من التساؤلات والحيرة . . .

ــ لكنه يصعب التغلب على هذا الحزن وهذه التساؤلات : فهي تسبّب الملل وعدم المبالاة تجاه كل شيء . . . تقريباً . . . ــ أضافت أولغا بتردّد .

ــ لكن ، ليس لمدة طويلة . فهي تجدّد الحياة بعد ذلك . ــ قال شتولتس . ــ إنها تقود الى الهاوية ، التي لايستوضح المرء منها شيئاً مطلقاً . لكنها ترغم المرء على أنْ ينظر الى الحياة من جديد ، بكثير من الحب ... إنها تصقل القوى وتزيدها خبرة وحنكة ، من خلال عملية الصراع مع النفس ، وكأنها لاتريد لهذه القوى أنْ تغرق في النوم مستقبلاً

ــ كم هو صعبٌ ومضنٍ العذاب ، الذي تسبّبه هذه التساؤلات والتخيلات ! ــ قالت أولغا شاكية . ــ يكون المرء صافي الذهن ، مرتاحاً ، وإذا بغمامةٍ من القلق والشك تخيّم عليه فجأة ! ألا توجد وسائل للحيلولة دون ذلك ؟

ــ لكن هذا امر مهم في الحياة ! فالعيش يصبح مقرفاً بدون هذه التساؤلات !

– ماالعمل ؟ هل نستسلم ونكتئب ؟

– علينا أن نتسلّح بالعزيمة ونتابع طريقنا بصبر وباصرار – قال شتولتس .

فأنا وأنت لسنا عمالقة . – تابع وهو يضمّها ، – ولن نسير مع ألغاوستيين والمانفريديين لخوض صراع جسور مع الأفكار المتمرّدة المضطربة . ولن نقبل تحديهم ، وإنما سنحني رؤوسنا وسنجتاز اللحظة الصعبة باستكانة ، وبعد ذلك ستبتسم لنا الحياة والسعادة من جديد . . .

– وإذا لم تتركنا هذه التساؤلات أبداً : ألن يؤرقنا الحزن عندئذ أكثر فأكثر ؟ ... – سألت أولغا –

– نستقبل الحزن عندئذ كعنصر جديد طارئ من عناصر الحياة ... لكن هذا لايحدث ، ولا يمكن أن يحدث بالنسبة لنا ! هذا لاينطبق على حزنك ؛ إنه مرض البشرية بوجه عام . لم تصبك منه إلا قطرة واحدة فقط . . . سيكون ذلك كله مرعباً عندما يفقد الإنسان الصلة بالحياة . . . عندما يفقد الدعامة ، التي يرتكز عليها . أما بالنسبة لنا . . . فكل ما أرجوه من الله ، هو أن يكون حزنك هذا ناجماً عن الأسباب ، التي ذكرت . وليس علامة من علامات المرض . . . فمرضك ، سيكون بالنسبة لي مصيبة حقيقية تنهك قواي وتقضّ مضاجعي . . . عندئذ تستطيع نظرات الارتياب والتساؤلات أنْ تحرمنا السعادة و . . .

لم يكمل كلامه ، أما أولغا فقد ارتمت في أحضانه كالمجنونة ، وتجمّدت لحظة في غيبوبة من النشوة ، وهي تطوّق رقبته بيديها .

twitter @baghdad_library

– لن يستطيع الحزن ، ولا الضباب ، والمرض ، ولا . . . حتى الموت أنْ يحرمنا من سعادتنا ! – همست بحماس ، وقد أصبحت من جديد سعيدة ، هادئة ، مسرورة . بدا لها ، أنها ماأحبته يوماً بشغف ، كما أحبته في هذه اللحظة .

– لاتدّعي القدر يحرمنا من سعادتنا تلك ، لاتدعيه يحسدنا ، – ختم شتولتس كلامه ، مبدياً الكثير من الحذر ، – لاتغضبيه ، ولاتنسي أن تشكريه ؛ فهو يغضب عندما يجحد الناس بعطاياه . حتى الآن ، كنت تتعرّفين على الحياة فقط ، لكنك ستضطرين لأنْ تخوضي غمارها . . . وعندما ستثور وتضطرم ، سيحين العمل والمصيبة . . . وعندئذ لن يكون لدينا متسع للإنشغال بهذه التساؤلات . . . حافظي على قواك ! – أضاف شتولتس بهدوء وبصوت خافت ، كأنه يسرّ لنفسه ردّاً على انفعالها العاطفي . كانت نغمة حزينة تتخلّل صوته ، كأنه قد رأى في الأفق البعيد « المصيبة والعمل » .

صمتت أولغا ، وقد أذهلتها فجأة نغمة الحزن ، التي كانت تتخلل صوته . كانت تثق به بلا حدود ، كانت تثق بصوته أيضاً . انْعَقَدَتْ بتأمله ، فركّزت تفكيرها وراحت تفكر بعمق .

كانت تسير في ممر الحديقة غريزياً وببطء ، وهي مستندةعليه ، غارقة في الصمت . كانت تنظر بخوف أيضاً الى أفق الحياة البعيد ، حيث هناك لحظة « المعاناة » و « العمل والمصائب » .

تراءى لها حلم آخر ، فلم تعد ترى الليل الرائع الجميل ، ولا المنطقة

الوادعة الشفافة ، التي لبست حلة العيد ، ولا الوفرة التي تحيط بهما . . .

كلا ، فقد كانت ترى هناك الحرمان والمعاناة المغمورين بالدموع ، والتضحيات التي لا مفرّ منها ، والتخلي عن النزوات ، كانت ترى الآهات والدموع النابعة من مشاعر خفية مكبوتة جديدة ؛ رأت المرض وزحمة الأعمال وخسارة الزوج . . .

ارتعشت وخارت عزيمتها ، لكنها كانت تنظر بجرأة وفضول الى هذا الطراز الجديد من الحياة ، وتتفحّص بخوف ماتملكه من قوى وإمكانات تساعدها على المجابهة . . . لكن الحب لم يخنها في هذا الحلم ، فقد بقي الحارس الأمين الوحيد على حياتها الجديدة ، بيد أنها كانت تحس من الأعماق ، بأنها لم تعد كما كانت سابقاً !

فالحرارة اختفت من أنفاسها ، وغابت أشعة الليل المضيئة البراقة من ناظريها ، وبدا لها أن أحلام الطفولة عن الحب المتأجج المضطرم قد غارت في لجة الحياة الرهيبة المقبلة تلك . فلا وجود للقبلات والضحك هناك ، ولا للأحاديث العاطفية العذبة وسط الأزهار وفي عيد الطبيعة والحياة ... فكل شيء قد « ذبل وانقضى » .

فذلك الحب المتألق الدائم ، كان يرقد على وجهيهما وقت الكربة ، ويلمع بصمت وببطء في نظرتهما المتبادلة ، المليئة بالألم والمعاناة ، ويُسْمع من خلال مواجهتهما واحتمالهما مشاق الحياة بصبر ، كما كان يتبدّى عبر الدموع المكبوتة والبكاء المخنوق . . .

ففي حزن أولغا وتساؤلاتها ، بدأت تستقر بهدوء أحلام أخرى محددة ، واضحة ومخيفة ، على الرغم من أنها بعيدة . . .

twitter @baghdad_library

كانت أولغا تجد في كلمات زوجها المطمئنة الحازمة ، وفي ثقتها غير المحدودة به ، ارتياحاً نفسياً كبيراً يساعدها على التخلص من حزنها الغامض المحيّر ، غير المألوف بالنسبة لأناس كثيرين ، كما كانت تسير إلى الأمام بحيوية متخطية التنبؤات المستقبلية المخيفة .

أقبل الصبح المضيء بعد « الضباب » ، الصبح الزاخر بمشاغل الأم وربّة البيت ، فجنينة الزهور كانت تجذب أولغا ، وكذلك الحقل وحجرة زوجها . لكن أولغا كانت تستعد لمواجهة الحياة ، وتنتظر أحداثها المرتقبة بتفكير نشط وبعزيمة عالية . . .

كانت تسمو أكثر فأكثر . . . أما أندريي فقد تأكد بأنّ مثله الأعلى السابق عن الزوجة والمرأة ، لا يمكن بلوغه ، لكنه كان سعيداً بالإنعكاس الشاحب لمثله ذاك في شخصية أولغا : حتى أنه لم يكن يتوقع أن يظفر بذلك أبداً !

في تلك الاثناء ، كانت هناك مسألة هامة تشغل اهتمامه ، هي أن يصون كرامة الرجل عالياً في عيني أولغا الأبية المعتدّة بنفسها ، ليس من باب الغيرة المبتذلة ، بل من أجل ألا يكفهر صفاء الحياة ورونقها ، الأمر الذي كان يمكن أن يحدث ، إذا اهتزت ثقتها به .

كثيرات هنّ النساء اللواتي لايفكّرن بذلك : فيقبلن مزايا الزوج وسيئاته بمجرد أنْ يتزوّجن ، ويرضين بلا تردّد بواقعهنّ الجديد ويخضعن باستكانة لمشيئة أزواجهن ، ويسلّمن بما تفرضه عليهنّ الحياة الزوجية من واجبات ، فلا يعارضن ولا يتذمّرن ، بل يتذرّعن بالقول : « إنّ القدر قد جعل المرأة مخلوقاً ضعيفاً » . . . الخ .

وحتى إذا ماتفوّق الزوج على جموع الناس بعقله ، وهي مزية رائعة جذابة في الرجل ، فان أمثال أولئك النساء يتباهين بميزة الزوج هذه كما يتباهين بعقد ثمين من اللؤلؤ ، شريطة أن يكون ذهن الزوج الوقاد هذا غافلاً عن حيلهنّ وتصرفاتهن .

وإذا ماتجاسر على النظر والإمعان في مهزلتهن التافهة الأنثوية المخادعة والمعيبة أحياناً ، فانهن يتضايقن وينزعجن عندئذ من هذا الذهن .

لم تعرف أولغا مثل هذا المنطق من الخضوع الأعمى للقدر ، ولم تكن تفهم أهواء النساء تلك ونزواتهن . فما إنْ تسلّم بجدارة الشخص ، الذي اختارته وتعترف بحقوقه عليها ، حتى تثق به وتحبه ، لكن ماإنْ تفقد ثقتها به ، حتى تتوقف عن حبه فوراً ، كما حدثَ لها مع أبلوموف .

لكنّ خطواتها لازالت غير ثابتة ، وإرادتها متردّدة ، فهي مازالت تتأمل الحياة وتتبصر فيها ، وتستخلص منها كل ماهو ضروري لوعيها وإدراكها ، فمرحلة الخلق والإبداع لم تبتدىء بعد ، ومسالك الحياة مازالت مجهولة بالنسبة لها .

لكنها لاتثق الآن بأندريي بعمى ، بل بوعي ، فقد تجسّد فيه مثلها الأعلى عن كمال الرجل . لكنّ شتولتس كان يجد صعوبة أكبر في المحافظة على المكانة الرفيعة ، التي كان يحتلها ، ليس في ذهنها وقلبها فحسب ، بل وفي مخيلتها أيضاً ، وذلك كلما ازدادت ثقتها فيه . كانت تثق فيه بطريقة ، لم تكن تعترف فيها بوجود أي وسيط أو مرجع بينهما إلا الله .

twitter @baghdad_library

لذا ، فإنها ما كانت لتحتمل أبداً أي تخفيض لفضائل ، التي تتمسك بها ، فأيّ خلل في هذا المجال . كان يمكن أنْ يثير في ذهنها نفوراً وتناقضاً لا مثيل لهما . فمبنى السعادة المتهدم يمكن أنْ يدفنها تحت الأنقاض ، وإذا ما سلمت قواها ، فانها قد تبحث عما تؤمن به أيضاً . . .

مثل هذا النوع من النساء لايخطىء مرتين . فبعد انهيار ثقة كهذه ، وحب كهذا ، يصبح انبعاثهما وتجدّدهما ضرباً من المستحيل .

كان شتولتس سعيداً بحياته المانجة المترعة تلك ، حيث الربيع فيها مزهر دائماً ، كان يحرص عليها ، ويهتم بها ويصونها بكثير من الرعاية والنشاط والغيرة . وعندما كان يتذكر . بأنّ أولغا كانت على وشك الهلاك ، وأنّ كيانيهما المتّحدين في كيان واحد ، كانا معرّضين للإفتراق ، وأنْ عدم معرفة طرق الحياة ومسالكها كان من الممكن أنْ يسبّب خطأً قاتلاً ، وأنّ أبلوموف . . . فانّ شتولتس كان يرتعد خوفاً من الأعماق .

كان يرتعش . كيف كان يمكن أن تعيش أولغا حياة ، كالتي حدّثها عنها أبلوموف ! كيف كان يمكن أن تتحوّل الى مجرّد مربية أطفال وربّة بيت !

كيف يمكن عندئذ أنْ تتحوّل تلك التساؤلات والشكوك ومضامين الحياة كلها ، الى مجرّد اهتمامات منزلية بسيطة تافهة ، كانتظار الأعياد والضيوف والإجتماعات الأسروية ، ومناسبات الولادة ، والتعميد ، كيف يمكن أنْ يتحوّل ذلك كله الى خمول وعدم مبالاة .

الزواج عندئذ سيصبح شكلاً ، لا مضموناً أو وسيلة أو غاية ؛ فهل يمكن قبول أنْ يصبح الزواج مجرد إطار لاستقبال الضيوف وزياراتهم ، هل يمكن الموافقة على أنْ يتحوّل الزواج الى إطار لحفلات الغداء والعشاء والثرثرة الفارغة ؟ . . .

كيف كان يمكن أنْ تتحمّل أولغا ذلك كله ؟ ستقاوم في البداية بحثاً عن أسرار الحياة وألغازها ، وتبكي وتتعذب ، ثم تعتاد بعد ذلك ، وتترهّل وتأكل وتنام وتصبح بدينة ، بلهاء . . .

كلا ، قد يحدث لها شيء آخر : ستبكي وتتعذب وتذبل وتموت في أحضان زوجها العاجز ، المحب للخير مسكينة أولغا !

لكن ، ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنّ النار لم تنطفىء ، لو أنّ الحياة لم تفقد بريقها ، لو أنّ القوى لم تذبل ، بل ظلت تنشد الحرية والإنطلاق ؛ ماذا كان يمكن أنْ يحدث لو أنّ أولغا رفرفت بجناحيها ، كما ترفرف أنثى العقاب القوية حادة البصر ، وامتلكت القوة الكافية وانطلقت الى صخرة عالية ، لتجد عليها عقاباً أكثر قوة وحدّة نظر منها؟... مسكين إيليا !

ـ مسكين إيليا ! ـ قال أندريي ذات مرة بصوت مسموع ، وهو يتذكر الماضي . لدى سماع أولغا هذا الاسم ، أسبلت يديها فجأة ، بعد أنْ تركت التطريز ، ثم رمت رأسها الى الخلف واستغرقت في التفكير . فهتاف التعجب ، الذي صدر عن شتولتس أثار ذكرياتها .

ـ ماذا حدث له ؟ ـ سألت بعد ذلك . ـ ألا نستطيع أنْ نقف على أخباره ؟

twitter @baghdad_library

هزّ أندريي كتفيه .

– تخيّلي ، – قال شتولتس ، – لو اننا نعيش في زمن لم يعرف فيه استخدام البريد بعد ، تخيّلي ، لو اننا نحيش في زمن يعتبر الناس فيه بعضهم بعضاً بحكم المفقودين عندما يرتحلون ، فيختفون فعلاً دون أنْ يقفوا على أخبار بعضهم .

– ليتك تكتب من جديد الى أحد أصدقائه : فلربما نعرف على الأقل . . .

– لن نعرف شيئاً زيادة على مانعرفه الآن : حي يرزق ، يعيش في نفس الشقة – فهذا أمر أعرفه بدون مساعدة من أحد . أما كيف يعيش ، كيف يقضي حياته ، هل مات معنوياً ، أم أنّ بصيص الحياة لم ينطفىء بعد – فتلك أمور لن يستطيع الآخرون معرفتها . . .

– آه ، لاتتكلم هكذا ياأندريي : فأنا أرتعد وأتألم عندما أسمع ذلك ! كم أريد أن أعرف ، إنْ كان . . .

كانت على وشك أن تبكي .

– سنكون في بطرسبورغ في الربيع . – وسنعرف بأنفسنا .

– لايكفي أنْ نعرف . بل يجب أن نفعل كل ما في وسعنا . . .

– وهل تعتقدين بأني لم أفعل ؟ كم بذلت من الجهود من أجله ، فقد نظمت أملاكه ورتبت أموره ، على أمل أنْ يتحرّك ، لكن لاحياة لمن تنادي ! عندما كنت ألتقي به ، كان يبدي استعدادهلفعل كل شيء ، لكن ما إنْ أبتعد عنه ، حتى ينام من جديد ، إنه كالسكران تماماً !

— ولماذا تتركه وتبتعد عنه ؟ — اعترضت أولغا بلهفة . — يجب التصرف معه بحزم ؛ يجب أنْ تضعه في العربة وتأخذه . فنحن سننتقل الآن لنسكن في أملاكنا ، وسيصبح عندئذ على مقربة منا . . . يجب أنْ تأخذه معنا .

— ليست المهمة سهلة — قال أندريي وهو يتمشى في أرض الغرفة ، — فلا أجد حلاً لها !

— لماذا تبدي تبرّمك ! — قالت أولغا . — هذه مفاجأة ! إنها المرة الأولى ، التي تتذمرّ فيها من هذه المهمة .

— أنا لاأتذمر ، — أجاب أندريي ، — بل أحاكم الأمر .

— ومتى كنت تحاكم أمراً كهذا ؟ ألم تعترف بنفسك بأنّ الأمر مقلق مزعج ؟

نظرت إليه مستطلعة . هزّ رأسه بالنفي .

— كلا فالأمر ، ليس مزعجاً ، بل عديم الجدوى : هكذا أفكر أحياناً .

— لاتتكلم ، لاتتكلم ! — أوقفته أولغا عن الحديث . — سأمضي اليوم كله حزينة ، كما حدث لي في الاسبوع الفائت . إذا كانت مودتك له قد انتهت ، فيجب عليك من باب الحب للإنسان أنْ تنجز هذه المهمة . وإذا كنت قد تعبت من ذلك ، فسأذهب لوحدي ، ولن أخرج بدونه : فسيستجيب لتوسلاتي ، وسأبكي بحرارة ، إذا مارأيته ، بأنه فقد الاحساس بالحياة ، فلربما تفيد الدموع ف . . .

twitter @baghdad_library

– فتبعث الحياة فيه ، أليس هذا ماتفكرين به ؟– قاطعها أندريي .

– إذا لم تبعث النشاط فيه ، فانها ستجبره على الأقل ، على أن ينظر الى ماحوله ، ويغيّر حياته بصورة أفضل . لن يبقى في الأوحال ، بل سيكون قريباً ممن هم في منزلته ، سيكون قريباً منا . فعندما ظهرت في حياته – استفاق فجأة وخجل . . .

– اما تزالين تحبينه كالسابق ؟ – سأل أندريي مازحاً .

– كلا ! – قالت أولغا بجدّية وبتأمل وهي تستذكر الماضي . – إني لاأحبه كالسابق ، لكن يوجد شيءٌ ما أحبه فيه ، وقد بقيت ، على ما يبدو وفيةً له ، ولن أخونه ، فلن أفعل الآن كما . . .

– كما يفعل مَنْ ؟ أفصحي !لكن،حذار أن تلدغيني ! كما أفعل أنا الآن ؟ – أليس هذا ماكنت تريدين قوله ؟ إنلك تخطئين ، فأنا الذي جعلتك تحبينه ، تلك هي الحقيقة ! فلولاي ، لما كنت قد لاحظت وجوده. أنا الذي جعلتك تدركين ، بأنه يملك ذهناً لايقلّ عن أذهان الآخرين ، لكنه مدفون تحت الأنقاض ، نائم بخمول . أتريدين أن أقول لك ، لماذا هو غالٍ عليك ، ولماذا لاتزالين تحبينه ؟

هزّت برأسها ، مبديةً علامة الموافقة .

– لأنه يوجد فيه ماهو أثمن من ذهنه : قلبه المخلص الأمين ! ذلك هو كنزه الفطري الثمين ، فقلبه ظلّ سليماً مُعافىً طيلة حياته. لقد سقط تحت تأثير الصدمات ، ففترت همته ، وغاب نشاطه ، وأصبح خاملاً. وفي نهاية المطاف ، أصبح يائساً خائر العزيمة ، ففقدَ القدرة على الحياة،

لكنه لم يفقد الإخلاص والوفاء . فقد ظلّ قلبه نظيفاً ، نقياً لاتشوبه شائبة . لم يعرف قلبه الخداع والغدر ، ولم يحِدْ عن طريق الإخلاص والوفاء ؛ لم تستطع أوساخ العالم أن تنال منه ، ولا الشرور أو السموم . فأبلوموف لايمكن أنْ يسلك أبداً طريق الخداع ، فروحه دائماً نظيفة ، نقية ، طاهرة . . . إنها صافية ، شفافة ، فأمثاله قليلون ، لابل نادرون ؛ إنهم كاللآلىء وسط الحشود ! تلك هي الأسباب ، التي جعلتك تظلين وفيّةً له ، والتي تجعلني أيضاً لاأشعر بالإنزعاج عندما أبذل الجهود من أجله . لقد عرفت أناساً كثيرين يتحلون بصفات نبيلة سامية ، لكنني ماعرفت يوماً قلباً أنظف وأوضح وأبسط من قلبه ، أحببت أناساً كثيرين ، لكنني ماأحببت أحداً بعمق وبرسوخ كما أحببت أبلوموف .

ماإنْ يعرف المرء صفاته هذه ، حتى يصبح العدول عن حبه أمراً مستحيلاً .

ظلت أولغا صامتة ، مطرقة رأسها وهي تنظر الى مطرزاتها . أما أندريي فقد استغرق بعد ذلك في التفكير .

-- هل ذكرت عنه كل شيء ؟ ماذا يوجد فيه أيضاً ؟ — أضاف شتولتس بعد ذلك بسرور بعد أنْ صحا من تأمله . — لقد نسيت أنْ أتحدّث عن « رقته المتناهية وعن . . . » .

بدأت أولغا تضحك ، ثم توقفت عن الخياطة والتطريز فجأة ، وهرعت الى أندريي ، ثم طوّقت عنقه بذراعيها ، وتفحصت بعينيها المشعتّين وجهه بضع لحظات واستغرقت بعد ذلك في تفكير عميق ، بعد

twitter @baghdad_library

أن وضعت رأسها على كتف زوجها . انبعث في مخيلتها وجه أبلوموف الوديع الحالم ، ونظرته الرقيقة المسكينة ، وابتسامته الخجولة الذليلة ، التي كانت تغطي وجهه في آخر لقاء بينهما قبيل الفراق ، رداً على لومها وعتابها . . . فشعرت بالألم والإشفاق عليه ، لدرجة أنها . . .

– لن تتخلى عنه ، ولن تتركه ، أليس كذلك ؟ – قالت أولغا وهي لاتزال تطوّق عنق زوجها بذراعيها .

– أبداً ! إلاّ إذا انشقت هاوية عميقة بيننا ، وانتصب جدار سميك يحول دون لقائنا . . .

طبعت أولغا على وجه زوجها قبلة .

– ألن تأخذني إليه عندما سنكون في بطرسبورغ ؟

صمت شتولتس والتردد باد عليه .

– أجل ؟ أجل ؟ – ألحّت اولغا باصرار على أنْ يجيبها بالموافقة .

– اسمعي ياأولغا ، – قال شتولتس ، وهو يحاول أن يفكّ طوق ذراعيها من حول عنقه ، – يجب أوّلاً أنْ . . .

– كلا ، قل : نعم ، اعطني وعداً ، فلن أكفَّ عن الإلحاح ، الى أنْ أحصل على وعد منك بالموافقة !

– على الأرجح ، – أجاب شتولتس ، لكن ليس في المرة الأولى ، بل في المرة الثانية : فانا أعرف ماسيحدث لك ، إذا كان أبلوموف . . .

– لاتقل ، لاتقل ! – قاطعت أولغا . – أجل ، ستأخذني

معك : سنستطيع أن نحقق كل شيء معاً . أما إذا كنت بمفردك ، فلن تستطيع أن تحقق شيئاً !

— كما تريدين ، لكنك ستحزنين ، ولربما سيستمر حزنك طويلاً . —

قال شتولتس وقد بدا عليه بأنه لم يكن راضياً تماماً ، بسبب انتزاع أولغا الموافقة منه .

— تذكر ، — ختمت أولغا الكلام ، وهي تجلس مكانها ، — بانك لن تصرف النظر عن محاولاتك وجهودك تجاه أبلوموف ، إلا عندما « تنشق الهاوية وينتصب جدار عال بينك وبينه » .

فأنا لن أنسى هذه الكلمات .

— ٩ —

كان الهدوء والصمت يخيمان على ناحية فيبورغ ، وعلى شوارعها السقيمة وأرصفتها الخشبية ، وعلى حدائقها الخاوية وقنواتها المكسوة بنبات القراص ، حيث إحدى العنزات ، التي تجر برقبتها حبلا مقطوعاً تقضم العشب من تحت السياج ، أو تنام ببلاهة . وحيث تتعالى وسط النهار وقع أقدام أحد الموظفين الكتبة وهو يسير على الرصيف الخشبي أو تتحرك إحدى الستائر المصنوعة من الشاش ، فتطل من النافذة إحدى الموظفات ، أو يلوح ويختفي فجأة وجه نضر لإحدى الفتيات ، التي تقفز من فوق سياج ما في إحدى الحدائق ، فيلوح بعدها مباشرة وجه فتاة أخرى ويختفي فجأة أيضاً ، ثم يظهر بعد ذلك من جديد ، وجه الفتاة

twitter @baghdad_library

الأولى ويتناوب مع وجه الفتاة الأخرى ، ثم يُسمع بعد ذلك ضحك وهرج الفتاتين ، اللتين تتهاديان في أرجوحتين .

الصمت يلفّ منزل بشينتسينا . يدخل المرء حوش المنزل فيفاجأ بالجلبة : الدجاجات والديوك تسرع فوراً لتختبىء في إحدى الزوايا ؛ الكلب يبدأ بالنباح ، بينما تتوقف أكولينا عن حلب البقرة ، ويتوقف البوّاب عن تقطيع الحطب ، ويتطلع الإثنان بفضول الى الزائر .

— من تريد ؟ — يسأل البواب ، ثم يشير الى عتبة المنزل بمجرد أنْ يسمع إسم إيليا إيلييتش ، أو اسم صاحبة الشقة ويتابع بعد ذلك تقطيع الحطب من جديد ، بينما يسير الزائر على الدرب المفروشة بالرمل قاصداً المدخل ، ثم يصعد درجات السلم ، المفروشة بقطعٍ من سجادة قديمة ، لكن نظيفة ، ويقرع قبضة ناقوس نُظّـِف بعناية ، فتفتح الباب أنيسيا ، أو الأطفال ، وأحياناً صاحبة الشقة نفسها أو زاخار - ، الذي يفتح آخر الجميع .

يحتوي منزل بشينتسينا على وفرة من المؤونة والأدوات المنزلية ، لم تكن متوفرة فيه سابقاً ، حتى عندما كانت أغافيا ماتفييفنا تعيش فيه وحيدة مع أخيها .

المطبخ والدولاب والنملية مليئة بالآنية المتنوعة من صحون وفناجين وطناجر وكؤوس صغيرة وكبيرة ، نحاسية وزجاجية ، وحتى فخارية .

وفي الخزانات ، توجد الآن فضيات السفرة العائدة لأبلوموف ولأغافيا ماتفييفنا .

توجد أيضاً صفوف كاملة من أباريق الشاي الكبيرة والصغيرة ، الموشاة برسوم جميلة زاهية ، وصفوف عديدة من فناجين الشاي المصنوعة من الخزف الصيني اللماع الرائع . وهناك أيضاً علب زجاجية كبيرة مليئة بالقهوة ، والقرفة ومسحوق الفانيليا ، والشاي ، والزبدة والخل .

هنالك رفوف بكاملها ، وضعت عليها أشياء أخرى متنوعة ، من رزم وعلب . فيها أدوية وغسول للعيون ، ومراهم وأعشاب ومساحيق وبخور ؛ هناك أيضاً صابون وعقاقير لتنظيف المزركشات وإزالة البقع ، وغيرها ، وغيرها ، — باختصار يمكن للمرء أن يعثر على كل شيء تهتم به ربة بيت حقيقية .

عندما تفتح أغافيا ماتفييفنا فجأة باب الدولاب ، المليء بهذه الأشياء فانها لاتستطيع أن تتحمل الرائحة القوية لهذه المخدّرات ، حتى أنها تحوّل وجهها جانباً كي تتفادى تأثيرها في البداية .

وفي السقف تُعلق أفخاذ الخنزير ، والسمكات الكبيرة ، كي لاتطالها الفئران ، كما تُعَلّق أيضاً أكياس مليئة بالفطر المجفّف واللوز .

وعلى الأرض ، توجد براميل صغيرة مليئة بالزيت وأوعية أخرى مغطاة مليئة بالقشدة الرائبة ، وسلال مليئة بالبيض ، بالإضافة الى أشياء أخرى كثيرة .

فحتى ريشة هو ميروس تعجز عن تعداد وذكر ما هو موجود بالتفصيل ، في أركان وزوايا هذا المطبخ وعلى رفوفه العديدة .

twitter @baghdad_library

كان المطبخ بالنسبة لأغافيا ماتفييفنا ومساعدتها أنيسيا ، يمثل حصناً منيعاً تفاخران به . فأشعة الشمس ، والهواء النقي ، وعين صاحبة البيت الساهرة ، وأنامل أنيسيا النشيطة . كانت تطال كل زاوية من زوايا المطبخ والبيت ، فتجعل الأشياء مرتبة . نظيفة رائعة . لكن حجرة زاخار كانت شبيهة بالعش .

كانت غرفة زاخار بدون نوافذ ، فقد جعلها الظلام الدامس أشبه بالجحر . وعندما كانت صاحبة الشقة تتطرق في حديثها لإدخال بعض التحسينات الى غرفة زاخار . وإجراء مايلزم من التنظيفات فيها . كان زاخار يتصدّى باصرار ، لمقاومة ذلك ، معلناً أنه ليس من حقها التدخل في أموره وشؤونه الخاصة ، وموضحاً ، بأنه ليس من اختصاص النساء أنْ يحددن له أين يوضع الحذاء والدهان والفرشاة ، وليس من شأنهن أيضاً توجيه أية ملاحظة له ، تتعلق بتكويم ثيابه في الزاوية ، أو بالنوم على سرير يكسوه الغبار . أما فيما يتعلق بالمكنسة والألواح الخشبية ، والآجرّتين وقطعتي الحطب والأشياء الأخرى ، التي يحتفظ بها في غرفته فانه لم يكن يستطيع الاستغناء عنها ، لكنه لم يكن يوضح سبب ذلك ؛ كان يؤكد بأنّ الغبار والعنكبوت لايزعجانه مطلقاً ، وأنّ الملاحظات المتعلقة بهذا الصدّد لامعنى لها ، وأنه لايريد أنْ تتدخل أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا في شؤونه ، مادام لايتدخل هو ، بشؤون المطبخ .

ذات مرة أدرك زاخار أنيسيا هناك ، فنظر إليها نظرة استخفاف ، وهدّدها جدّياً بحركة من مرفقه باتجاه صدرها ، كي تكفّ عن ذلك ،

فخافت ولم تعد تتدخل في ترتيب حجرته . وعندما نُقلَتِ القضية الى المرجع الأعلى ، الى إيليا إيليييتش لينظر فيها ، ذهب السيد النبيل ليرى الوضع بنفسه ، ويتدبر الأمر كما ينبغي ، لكنه ما إنْ أطلّ برأسه دقيقة فقط من باب حجرة زاخار الى الداخل ، وشاهد كل شيء ، حتى بصق دون أنْ يتفوّه بكلمة .

ـ ماذا أخذتّما ؟ توجه زاخار بالحديث الى أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا اللتين كانتا بصحبة إيليا إيلييتش ، وكله أمل بأنّ تدخّله في الموضوع سيساهم باحداث تغيّرٍ في الآراء . ثم ضحك بعد ذلك على طريقته الخاصة ، ضحكة قوية ، أخذ فوداه يتحركان من جرّائها في كل الإتجاهات .

أما الغرف الأخرى فكانت نظيفة ، يتخللها الهواء النقي ويغمرها الضياء . الستائر القديمة البالية اختفت ، واستُبْدِلت بأخرى جديدة جميلة . . .

ـ كان ذلك كله من عمل وإنجاز أغافيا ماتفييفنا .

كانت الوسائد بيضاء كالثلج ، مكدّسة فوق بعضها ، لدرجة أنها كادتْ أنْ تبلغَ السقف ، أما اللحف فكانت من النوع الفاخر .

كانت حجرة صاحبة الشقة تبقى أسابيع كاملة مليئة بالطاولات ، التي تُنْشَر عليها هذه اللحف ، كما كان ينْشَر عليها أيضاً رداء أبلوموف .

twitter @baghdad_library

كانت أغافيا ماتفييفنا تفصّلها وتبطّنها بالقطن وتخيطها بيديها : كانت تنحني عندما تقوم بذلك ، وتتابع بعينيها عملها المضني هذا ، حتى انها كانت تستخدم فمها عندما تريد أنْ تقطع بأسنانها خيطاً هنا وآخر هناك . كانت تعمل بدأب وبجدّ ، وتبذل جهداً منقطع النظير من أجل أنْ يتكلّل عملها بالنجاح . كانت هنالك فكرة محببة تستولي عليها وتبعث فيها السرور ، هي أنّ هذه اللحف ستدثّر إيليا إيليتش .

كان أبلوموف يستلقي أياماً بكاملها على الأريكة ، وهو يستمتع بالنظر الى مرفقيها العاريين المتحركين الى الأمام والخلف ، وهما يتبعان الإبرة والخيط . فقد نام أكثر من مرة على الصوت المنبعث من قطع أغافيا ماتفييفنا للخيط بأسنانها ، تماماً كما كان يحدث له في أبلوموفكا .

— لقد اشتغلتِ كثيراً ، ستتعبين ! — كان أبلوموف يستوقفها عن العمل .

— الله يحب العمل ! — كانت تجيب ، دون أنْ ترفع بصرها ويديها عمّا تقوم به .

القهوة ، التي تُقدّم له ، كانت رائعة ، نظيفة ، لذيذة ، تماماً كما كانت تُقدّم له في البداية منذ بضع سنوات خلتْ ، عندما انتقل الى هذه الشقة . أما الحساء الرائع الشهي ، والمعكرونة الفاخرة والفطائر المحشوة ، ولحم الفروج ، — فقد كان يتمّ تناولها بالتناوب وفق نظام محدّد ، فتُدْخل تنوّعاً محبباً يكسر رتابة الأيام في هذا المنزل الصغير .

كان شعاع الشمس البهيج يغمر النوافذ من الصباح الى المساء ، إذ

كان يغمرها في النصف الأول من النهار من إحدى الجهات ، بينما كان يغمرها في النصف الثاني من جهة أخرى ، دون أن يعيق شعاع الشمس هذا أي شيء .

كانت عصافير الكناري تغرّد بمرح ، وكان الزنبق ، الذي يجلبه الأولاد أحياناً من حديقة الكونت ، ينفث عبقاً رائعاً يملأ الحجرة الصغيرة ، فيمتزج مع رائحة السيجار الكوبي الأصلي المصنّع في هافانا ، ومع رائحة القرفة ، التي كانت تدقها صاحبة الشقة ، وهي تحرك مرفقيها بحيوية لامثيل لها .

كان يبدو على إيليا إيلييتش وكأنه يعيش في إطار الحياة الذهبي الذي تتبدل فيه فقط ، كما في الرسم البياني تماماً ، فصول السنة ومراحل النهار والليل ؛ لم يعرف التبدلات والتغيرات ، لم يعرف المصادفات الكبيرة المفاجئة ، ولا الأحداث المثيرة ، التي يمكن أنْ تشوّش رتابة الحياة تلك ، أو تخلق نوعاً من الإنقباض النفسي بالنسبة له .

منذ أنْ حرّر شتولتس قرية أبلوموفكا من براثن ديون أخ صاحبة الشقة ، فان العلاقة بين أبلوموف من جهة وتارانتييف وأخ صاحبة الشقة من جهة أخرى ، قد انقطعت تماماً ، فزال بانقطاعها كل ما يلحق الأذى والضرر بحياة إيليا إيلييتش . أصبح يحيط به الآن فقط ، أناس طيبون ، بسطاء محبّون ، يسندون كيانه بكل جوارحهم وإمكاناتهم ، ويبذلون كل مافي وسعهم ، كي تكون حياته خالية من أي شيء يمكن أن يثير قلقه ، أو يدفعه للتفكير .

twitter @baghdad_library

كانت أغافيا ماتفييفنا تعيش في غمرة السعادة ، لم تشعر بسعادتها يوماً كما تشعر الآن ، لكنها لم تكن تفصح عن أحاسيسها ومشاعرها تلك حتى أنه لم يخطر في بالها أمر كهذا .

كانت تصلّي وتتوسل الى الله لأنْ يطيل عمر إيليا إيلييتش ويجنّبه « الذل والظلم والفاقة » ، بينما كانت تسلّم أمرها وأمر طفليها وبيتها كله لإرادة الله ومشيئته . لكن وجهها كان يعبّر دائماً عن سعادة وارتياح لكن سعادتها تلك لم تكن مقترنةً بالرغبات ، الأمر الذي كان يعتبر نادراً ، لابل مستحيلاً بالنسبة لطبع أية امرأة أخرى .

استعادت صحتها ، وأصبحت مكتنزة ، كان صدرها وكتفاها يتألقان صحةً وعافية ، وكانت عيناها تشعّان وداعةً واهتماماً بشؤون المنزل فقط . استعادت هدوءها واعتزازها بالنفس ، وهما السمتان المميزتان لها سابقاً ، عندما كانت تدير شؤون المنزل ومن حولها أنيسيا وأكولينا والبوّاب . فقد أصبحت تتهادى كالسابق من الخزانة الى المطبخ ومنه الى المستودع ، وتصدر أوامرها بهدوء وبثقة ، وهي تدرك تماماً ماتفعل .

أما أنيسيا فأصبحت أكثر حيوية من السابق ، لأنّ حجم العمل قد صار أكبر : فهي تتحرك وتعمل دائماً ، بتوجيه من صاحبة الشقة . حتى عيناها أصبحتا أكثر تألقاً ، وأنفها الذي تتكلم بواسطته ، والذي يبرز بشكل مميز ، كان مشغولاً ، منهمكاً ، يتكلم بلا انقطاع ، على الرغم من أنّ لسانها كان صامتاً .

أما ملابس كل من أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا فكانت منسجمة ومتوافقة مع المكانة والمسؤوليات التي تضطلع بها كل منهما في تدبير الشؤون المنزلية . فصاحبة الشقة كانت تملك خزانة كبيرة مليئة بفساتين الحرير والمعاطف ، أما قلنسواتها الخفيفة فكانت تشتريها من شارع ليتيني ، وأحذيتها من أشهر المخازن ، وقبعاتها من مورسكوي . أما أنيسيا فكانت ترتدي عندما تطبخ ، وخاصة في أيام الآحاد ، فستاناً من الصوف .

كانت أكولينا هي الوحيدة ، التي تسير وطرف ثوبها موضوع تحت الزنار ، أما البواب فلم يكن يستطيع ، حتى في العطلة الصيفية ، أن يفارق فروته القصيرة ، المصنوعة من جلد الخراف .

أما الحديث عن زاخار فنوع من العبث : فقد عمل من بدلته الرمادية سترة ، كما كان يستحيل على المرء تحديد لون بنطاله ، ولا نوع القماش الذي صُنِعَت منه ربطة عنقه . ينظف الأحذية ، وينام بعد ذلك ويجلس عند البوابة ، وهو ينظر ببلاهة الى المارة القلائل ، ثم يجلس أخيراً في أحد دكاكين الخرداوات ، ويفعل كل ما كان يقوم به سابقاً في أبلوموفكا أولاً ، ومن ثم في شارع غوروخف .

وأبلوموف نفسه ؟ كان أبلوموف انعكاساً حقيقياً وتجسيداً طبيعياً

twitter @baghdad_library

للهدوء والسكون الشاملين . فبعد أن أمعن في التفكير فيما حوله ، وتأمل حياته ونمط معيشته الراهن ، وبعد أن اعتاد وألف الوسط ، الذي يعيش فيه ، قرر أخيراً ، بأنه لم يبق هنالك شيء يبحث عنه ، ولا مكان يذهب إليه ، لأنّ نموذج حياته الأمثل قد تحقّق ، وإن لم يكن بنفس الصورة الشاعرية الزاهية ، التي رسمها خياله يوماً ، واستمدّها من المجرى الخامل للحياة ، التي كان يعيشها وسط الفلاحين والنبلاء .

كان ينظر الى حياته الراهنة ، كاستمرار لتلك الحياة الأبلوموفية ، لكنْ مع بعض الإختلاف في الصورة المكانية والزمانية . فقد تيسّر له هنا بسهولة ، كما في أبلوموفكا ، أنْ ينعزل وينقطع عن الحياة ، ويؤمّن لنفسه الهدوء والسكون .

كان يحس في أعماقه بنشوة النصر ، لأنه استطاع أنْ يتخلص من مطالب الحياة وأعبائها اللجوجة المؤرقة ، ويفلت من تأثير ذلك الأفق ، الذي تلمع فيه بشدّة بروق الأفراح والمسرات ، وتحدث فيه على نطاق واسع المصائب المحزنة المفاجئة . حيث الآمال الكاذبة المخادعة وأشباح السعادة الرائعة ، حيث ينوء الإنسان تحت أعباء التفكير المضني ، ويموت بتأثير العواطف المتأججة ، التي تنهزم أمام العقل . كان يحس في أعماقه بنشوة النصر ، لأنه استطاع أنْ يتخلص من معمعان الحياة ، التي يحارب المرء فيها بلا انقطاع ، فيخرج من ساحة المعركة محطماً ، مهزوماً .

ربما أنه لم يعرف الصراع ، ولم يشعر بلذة المجابهة والتحدي ، فقد رفض أبلوموف ذهنياً كل ما يعكّر سكونه وهدوءه ، فلم يكن يشعر

بالطمأنينة إلا في بقعة نائية ، لاحركة فيها ولا صراع ولا حياة .

لكن ، إذا مااضطرمت مخيلته أيضاً ، وإذا مااستيقظت ذكرياته المنسية وأحلامه غير المتحققة ، وإذا ماأحس بوخز الضمير ، لأنه عاش حياته على هذا النحو ، وليس بشكل آخر ، — فانه يقلق وينام نوماً سيئاً ثم يستيقظ ويقفز من الفراش ،ويذرف أحياناً دموعاً باردة تعبيراً عن اليأس وفقدان الأمل بتحقيق أحلامه التي انطفأت الى الأبد ، ويبكي كما يبكي الناس بمرارة على متوفى عزيز عليهم ، كتعبير عن عدم ارتياحهم ورضاهم على ماقدموه له في حياته .

بعد ذلك ، يتطلع الى ماحوله ، ويذوق طعم الخيرات المؤقته ويهدأ ثم ينظر بتأمل الى قرص الشمس وهو يغرق عند المغيب ، ويقرر أخيراً ، بأن حياته لم تتكون هكذا ببساطة وسذاجة فحسب ، بل انها خُلِقتْ وتحددتْ أيضاً بمنتهى السذاجة وقلة الحكمة ، للتعبير بمنتهى الإتقان عن إمكانية وجود الجانب السكوني من الحياة البشرية .

وبما كان من نصيب الآخرين ، كما كان يعتقد ، أنْ يعبروا عن الجوانب القلقة المضطربة من الحياة ، ويحركوا قوى الإبداع والتدمير فيها فلكلٍ غايته !

تلكم هي الفلسفة ، التي تكونت عند أفلاطون الأبلوموفي ، التي كانت تهدهده وتهدىء من روعه وسط التساؤلات الملحة والمطالب الصارمة للواجب الإنساني وللرسالة الانسانية ! فهو لم يولد ولم يترعرع كمصارع محترف على الحلبة ، بل كمشاهدٍ مستكينٍ لما يجري عليها ؛

twitter @baghdad_library

فلن تستطيع خلجات السعادة ولا لطمات الحياة أنْ تحرّك أو تثير روحه الخاملة الهيّابة — وبالتالي ، فانه كان يعيش على هامش الحياة ، لايفكر بإدخال أي تغيير الى حياته ، أو إبداء أي أسف عليها .

سنوات القلق والندم صارت نادرة . أصبح أبلوموف يؤطرّ حياته تدريجياً بهدوء وباستكانة في تابوت كيانه ، الذي صنعه بيديه ، كما يحفر قبره بيديه عجوز طاعن في السن ، ملّ الحياة .

لم يعد يحلم بإعادة تنظيم أملاكه ، ولا بالسفر الى القرية ليعيش هناك. كان وكيل الأعمال ، الذي عيّنه شتولتس ، يرسل الى إيليا إيلييتش بانتظام دخلاً محترماً ، وكان الفلاحون يجلبون لهالدواجن،والحبوب، فأصبحت البحبوحة والوفرة تغمران البيت وتزيدانه بهجة .

حتى إنّ إيليا إيلييتش اقتنى زوجاً من الأحصنة ، لكنه اختارهما بسبب حذره الشديد المميز ، بمواصفات محدّدة ، بحيث لايتحرك كان عن العتبة إلا بعد السوط الثالث ، إذ يبدأ أحدهما بعد السوط الثاني بالتمايل ثم يخطو جانباً خطوة واحدة ، ويفعل الحصان الثاني بعد ذلك الشيء ذاته، ثم ينطلقان بعد ذلك معاً بمجرّد أنْ يُشَدّ اللجام ، وهما يهزّان رأسيهما. كانا يُستخدَمان لنقل فانيا الى المدرسة ، الكائنة في الجهة الأخرى من نهر النيفا ، كما كانت تستخدمهما صاحبة الشقة عندما تقوم بالتسوّق .

في عيد الصوم الكبير ، كان جميع أفراد الأسرة وكذلك إيليا إيلييتش شخصياً ، يذهبون في نزهة حتى أنهم كانوا يحجزون أحياناً مقصورة ، ويذهبون جميعاً الى المسرح .

في الصيف ، كانوا يذهبون جميعاً الى الضاحية ، بمناسبة من المناسبات . هكذا كانت الحياة تجري برتابة ، دون أنْ تُحدِثَ أية تغيرات مضرّة ، قاتلة ، حتى أنه يمكن القول ، بأنّ ضربات الحياة ولطماتها لم تكن تطال الأماكن الصغيرة الهادئة كلياً . لكن الرعد ، لسوء الحظ ، الذي يهزّ الجبال والفضاء الفسيح المترامي ،كان يصل تأثيره وصداه ليطال جحر الفأر ، ومع أن الصوت والصدى يكونان في داخل الجحر ضعيفين خافتين ، لكنهما محسوسين .

كان إيليا إيلييتش يأكل كثيراً ، وبشهية ممتازة كما كان في أبلوموفكا ، وكان يتحرك ويعمل بخمول وكسل ، كما كان يفعل في أبلوموفكا أيضاً . وعلى الرغم من تقدم السنين ، فقد كان يشرب النبيذ والفودكا بتغافل ، كما كان ينام بعد الغداء بتغافل أكثر .

تغيّر ذلك كله فجأة .

ذات مرة ، أراد أبلوموف بعد نومه النهاري ، أنْ ينهض من على الأريكة ، لكنه لم يستطع ، أراد أنْ يتكلم — لكنّ لسانه لم يطاوعه . أخذ يلوّح بيده بذعر ، كي يهرعوا لنجدته .

لو كان أبلوموف يعيش مع زاخار فقط ، لظلّ حتى الصباح يلوّح بيده ، ولمات في نهاية المطاف قبل أن يهرع زاخار لنجدته ، لكن عين صاحبة الشقة ، كانت تسهر عليه ، كعين العناية الإلهية : فقلبها كان دليلها دائماً عندما يحدث لإيليا أي مكروه ، وقد كان دليلها أيضاً هذه المرة .

انطلقت أنيسيا فوراً باتجاه العربة لاستدعاء الطبيب ، أما أغافيا

twitter @baghdad_library

فوضعت الجليد على رأسه وأخرجت من الخزانة بلمح البصر كل الغسولات والكحول النقي — وكل مادلّتها خبرتها عليه من أشياء يمكن أنْ تفيد في حالة كهذه . حتى انّ زاخار شارك أيضاً في هذا الظرف بالإعتناء بسيده ، فقد كان يتململ بالقرب من إيليا إيليتش ويهتم به مع الطبيب وصاحبة الشقة وأنيسيا .

أُعيد إيليا إيليتش الى وعيه ، وفُصِد دمه ، ثم أعلن الطبيب بأنّ هذا كان من أعراض السكتة القلبية ، وانه يجب أنْ يغيّر نمط حياته .

مُنع أبلوموف عن تناول الفودكا والنبيذ والبيرة ، إلا في حالات ومناسبات استثنائية نادرة ، كما مُنع أيضاً عن الدسم واللحوم والشحوم والتوابل، وتقرر بأنْ يستعيض عن ذلك كله بحركة يومية مستمرة وبنوم معتدل في الليل فقط .

لولا أغافيا ماتفييفنا وعينها الساهرة لما كان تنفيذ ذلك ممكناً ، فقد استطاعت من خلال التحايل تارةً ، وبالملاطفة تارة أخرى أنْ تبعد أبلوموف عن تناول الأطعمة المغرية ، الضارة له وعن المشروبات الكحولية . وعن النوم في فترة مابعد الغداء ، وعن الفطائر الدسمة .

فما إن ينعس أو يشرف على النوم ، حتى يُقْلب كرسيّ هنا في الغرفة ، أو يُرْمى صحن أو آنية هناك في الغرفة المجاورة ، أو يبدأ الأطفال بالصراخ والضجة - كل هذا من أجل أنْ يمنعوه من النوم نهاراً . وإذا لم تُجدِ هذه الأساليب ، فانّ صوتها الوديع كان يناديه ويسأله عن أمرٍ ما ، كي تلهيه عن النوم .

كان إيليا إيلييتش يتمشى في الحديقة صباحاً ومساءً ساعتين من الزمن . كانت أغافيا ماتفييفنا ترافقه عادةً ، وإنْ لم تستطع فماشا أو فانيا ، أو أحد معارفه القدامى المتفانين ، الموافق على كل شيء ، والمذعن لكل أمر ، ألكسييف .

هاهو إيليا إيلييتش يسير ببطء في الحديقة ، مستنداً على كتف فانيا ، الذي أصبح شاباً تقريباً . كان يرتدي زي المدرسة الرسمي ، ويكبح خطواته النشطة ، ليساير مشية إيليا إيلييتش. لم يكن أبلوموف يستطيع أن يسير بحرية وبسهولة بعد ، بسبب آثار النوبة القلبية ، التي ألمّت به .

ــ هيا الى الغرفة يافانيوشا ! ــ قال أبلوموف .

اتجها نحو الباب . أتت أغافيا ماتفييفنا لملاقاتهما .

ــ الى أين أنتما ذاهبان في هذا الوقت المبكر ؟ ــ سألت ، دون أنْ تمكّنهما من الدخول .

ــ وقت مبكر ! لقد اجتزنا الحديقة عشرين مره ذهاباً وإياباً ، بالإضافة الى المسافة التي تفصل المنزل عن السياج ، فنكون قد مشينا فرسخين .

ــ كم مرة عبرتما الحديقة ؟ ــ سألت صاحبة الشقة ابنها فانيوشا . ارتبك فانيا .

ــ لاتكذب ، انظر إليّ !ــ قالت الأم متوعدة ، وهي تُحدّق في عينيه . ــ لن أدعك تخرج ازيارة أحد في يوم الأحد .

ــ كلا ، ياأمي . فلقد عبرنا الحديقة اثنتا عشرة مرة .

twitter @baghdad_library

– آه ، يالك من مخادع ! – قال أبلوموف . – لقد أحصيتها بنفسي . . .

– كلا ، انتظرا ، فشوربة السمك ليست جاهزة بعد ! – قالت أغافيا ماتفييفنا ، ثم أغلقت الباب لتحول دون دخولهما .

اضطر أبلوموف لأنْ يجتاز الحديقة ثمان مرات أخرى رغماً عنه ، ثم عاد بعد ذلك الى الغرفة .

كان البخار يتصاعد من شوربة السمك ، الموضوعة على الطاولة الكبيرة المستديرة .

جلس أبلوموف على الأريكة لوحده ، بينما جلست أغافيا ماتفييفنا على كرسي وضع على يمينه ، وأجلست على يسارها ، على كرسي صغير طفلاً في الثالثة من عمره . جلست بالقرب من الطفل ، ماشا ، التي بلغت من العمر الثالثة عشرة . وجلس بعدها فانيا ، وأخيراً جلس ألكسييف مقابل أبلوموف ، حيث اتفق أنْ يكون هذا اليوم في زيارتهم .

– انتظرْ ، سأضع لك أيضاً فرخاً من السمك ! – قالت أغافيا ماتفييفنا وهي تضع في صحن أبلوموف سمكة .

– كم كان رائعاً لو أنك أعددت فطائر محشوة ! – قال أبلوموف .

– نسيت ، حقاً نسيت ! كنت أريد أن أحضّرها منذ مساء البارحة لكنّ ذاكرتي خانتني !

– قالت أغافيا ماتفييفنا بدهاء .

– كما نسيت أنْ أحضّر لك الملفوف الى جانب الشرحات يالإيفان

ألكسييتش ، — أضافت وهي توجه الحديث إليه . — لاتؤاخذني .

كانت تتحايل من جديد .

— لايهمّ : فأنا أتناول أي شيء ، — قال ألكسييف .

— لماذا لم تحضّري له حقاً شيئاً من لحم الخنزير أو البفتيك ؟ — سأل أبلوموف . — فهو يحبّ . . .

— لقد ذهبت الى السوق بنفسي ياإيليا إيلييتش ، لكني لم أعثر على لحم بقر جيد ! لكنني بالمقابل أمرت بتحضير شرابٍ من عصير الكرز والنشاء : فأنا أعرف ، بأنك مولع به ، — أضافت أغافيا ماتفييفناوهي تخاطب ألكسييف .

لم يكن سحلب الكرز مضرّاً لإيليا إيلييتش ، لذا كان على ألكسييف الذي لايبدي معارضة لشيء ، أنْ يحبّه ويأكله أيضاً .

بعد الغداء ، لم تكن هنالك قوة في الارض تستطيع أنْ تمنع أبلوموف عن الإستلقاء . كان يستلقي عادة على ظهره هنا على الأريكة ، مدة ساعة من الزمن . ومن أجل أنْ تمنعه من النوم ، كانت ربة المنزل تصبّ القهوة ، وهي تجلس على الأريكة ذاتها وتجلب الأولاد كي يلعبوا هنا أيضاً ، على السجادة ، لترغم إيليا إيلييتش على المشاركة في لعبهم .

— لاتزعج أندريوشا أكثر من ذلك : لأنه سيبكي ! — كان أبلوموف يزجر فانيشكا ، عندما كان الأخير يزعج الطفل .

— ماشينكا ، كوني حذرة ، ولا تدَعي رأس أندريوشا يصطدم بالكرسي ! — كان أبلوموف يحذّر بعناية واهتمام ، عندما كان الطفل يتسلّل تحت الكراسي .

twitter @baghdad_library

كانت ماشا تندفع لتُخْرِج أخاها من تحت الكراسي .

أصبح الصمت يلفّ كل شيء ، فقد ذهبت أغافيا ماتفييفنا الى المطبخ ، لترى إنْ كانت القهوة قد أصبحت جاهزة ، بينما هدأ الاولاد تماماً . أصبح الشخير يُسْمع في الغرفة خافتاً في البداية ، ثم بدأ يشتدّ أكثر فأكثر ، وعندما ظهرت أغافيا ماتفييفنا وهي تحمل إبريق القهوة ، الذي يتصاعد منه البخار ، أذهلها هذا المشهد .

أخذت تهزّ برأسها ، وهي توجّه اللوم لألكسييف .

حاولت إيقاظه ، لكنه لم يستجب ! – قال ألكسييف مبرّئاً نفسه .

وضعت إبريق القهوة على الطاولة بسرعة ، وخطفت أندريوشا من على الأرض ووضعته بهدوء على الأريكة ، بالقرب من إيليا إيليتش . أخذ الطفل يدبّ عليه ووصل حتى وجهه ، ثم أمسك بأنفه .

–(باضطراب) آ ! ماذا ؟ من هذا ؟ – قال إيليا إيليتيش ، الذي صحا فجأة من نومه .

– كنتَ نائماً ، فأيقظك أندريوشا ، – قالت ربة البيت بلطف وتودّد .

– ومتى نمت ؟ – قال أبلوموف وهو يأخذ أندريوشا بأحضانه . – أتعتقدين بأني لم أشعر به عندما كان يدبّ على جسدي ؟ آه ، يالك من صبي لعوب : تمسك بالأنف فوراً ! حسناً ! سأرى منك الكثير ! -- قال أبلوموف ملاطفاً ومداعباً الطفل . ثم أنزله بعد ذلك الى الأرض . وتنفّس الصعداء .

– إيفان ألكسييتش ، حدّثني شيئاً ما ! – قال أبلوموف .

– لقد تحدّثنا عن كل شيء ياإيليا إيلييتش ، لم يبقَ هنالك شيء نتحدث عنه ، – أجاب ألكسييف .

– كيف لم يبق شيء ؟ فأنت تزور الناس : ألا يوجد لديك شيء جديد تحدثني عنه ؟ أعتقد بأنك تقرأ ، أليس كذلك ؟

– أحياناً أقرأ ، وأحياناً أخرى يقرأ الآخرون ، ويتحدثون وأنا أصغي .

كنت البارحة ، على سبيل المثال ، في زيارة ألكسيي سبيريدونيتش. استمعت الى ابنه الطالب ، وهو يقرأ بصوت مرتفع . . .

– ماذا كان يقرأ ؟

– كان يقرأ عن الإنكليز ، الذين يورّدون الأسلحة والبارود الى الغير . ألكسيي سبيريدونيتش قال ، بأنّ الحرب ستنشب .

– لمن كانوا يورّدون الأسلحة ؟

– الى اسبانيا أو الهند – لاأذكر الى أيّ منهما ، لكن السفير لم يكن راضياً .

– أي سفير ؟ – سأل أبلوموف .

– ذلك مانسيته ! – قال ألكسييف وهو يرفع أنفه نحو السقف ، محاولاً أنْ يتذكر .

– ضد من ستنشب الحرب ؟

– ضد الباشا التركي ، على مايبدو –

twitter @baghdad_library

ــ ماذا يوجد لديك أيضاً من أخبار أخرى في السياسة ؟ ــ سأل إيليا إيليتش ثم صمت .

ــ يقال بأنّ الكرة الأرضية ستتغطّى كلها بالجليد يوماً ما

ــ وهل هذا سياسة ؟ ــ قال أبلوموف .

ارتبك ألكسييف .

ــ في البداية ، قرأ ديميتري ألكسييتش عن السياسة ،ــقال ألكسييف مدافعاً عن نفسه ، ــ ثم تابع القراءة بعد ذلك ، دون أنْ يذكر متى سينتهي الحديث عنها .

لكني عرفت فيما بعد ، بأنّ ماقرأه بعد ذلك ، كان يدور حول الأدب .

ــ ماذا قرأ عن الأدب ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ قرأ عن كتابٍ مشاهير من أمثال كارامزين ، باتيوشكوف وجوكوفسكي . . .

ــ وبوشكين ؟

ــ لم يقرأ شيئاً عنه . حتى أنني تساءلت ، لماذا لم يتضمن ذلك الكتاب شيئاً عنه .

فبوشكين عبقري .

ران الصمت . أتت أغافيا ماتفييفنا وبدأت تخيط شيئاً ما ، كان في يدها ، لكنها كانت تنظر من حينٍ لآخر الى إيليا إيليتش ، وألكسييف وترهف السمع لتتأكد إنْ كانالهدوءوالنظاميسودان الحجرات الأخرى ،

وإنْ كانت أكولينا تغسل الآنية ، وإنْ كان البوّاب لايزال يعمل في الحديقة ، أم أنه غادرها الى الحانة ، وإنْ كان زاخار يتشاجر مع أنيسيا في المطبخ .

استغرق أبلوموف في تأمل وصمت عميقين . لم يكن تأمله هذا حلماً ولا يقظة : كان يدع الأفكار تهيم بتكاسل على هواها ، دون أنْ يركّزها على شيء ، كان يصغي بهدوء الى دقات قلبه الرتيبة ، بينما كانت عيناه ترفّان بانتظام بين الفينة والأخرى، كعلامةٍ على شروده الذهني الخامل . لكن وضعه هذا ، كان محيّراً ، غامضاً ، غير محدد ، أشبه مايكون بالهلوسة .

تمرّ على الإنسان أحياناً ، لحظات قصيرة نادرة ، يبدو له فيها ، أنه يعيش مرة أخرى وينفعل ويتأثر بظرفٍ ، سَبَقَ أنْ تأثرّ به وعانى منه في وقتٍ ما وفي مكانٍ ما . لكنّ الأمر يلتبث عليه ، فهو لايعرف إنْ كان المشهد ، الذي يبرز في مخيلته الآن ، قد شاهده في الحلم ، أم أنه عاشه فعلاً في الماضي ، ثم نساه . بيد أنه يرى الآن نفس الوجوه ، التي كانت جالسة بالقرب منه سابقاً ، ويسمع نفس الكلمات ، التي سمعها ذات مرة : لكن الخيال عاجز عن استرجاع ذلك المشهد ، والذاكرة غير قادرةٍ على إحياء صورة الماضي ، الأمر الذي يدفع المرء الى التأمل .

هكذا كان وضع أبلوموف الآن . فلوحة الصمت والسكون السابقة التي عاشها في مكانٍ ما تبرز في مخيلته الآن ، ورقاص الساعة الجدارية المألوف يهتزّ الآن برتابة أيضاً ، كما يُسمَع نفس الصوت الناجم عن

twitter @baghdad_library

قطع الخيط بالأسنان ؛ تتردّد الكلمات المألوفة ذاتها ، والهمس ذاته : « لا أستطيع أنْ أدخل الخيط في خرم الإبرة ياماشا ، افعلي ذلك بدلاً مني ، فعيناك أكثر حدّةً ! » .

كان ينظر بخمول ، وبصورة آلية ، كما لو أنه في غيبوبة ، الى وجه أغافيا ماتفييفنا . فتبرز من أعماق ذكرياته ، صورة مألوفة ، شاهدها من قبل في مكانٍ ما . حاول أنْ يتبيّن أين ومتى سمع ذلك الهمس ، لكنه ...

تذكر أيضاً غرفة الجلوس الكبيرة المظلمة ، المضاءة بشمعةٍ شحمية في منزل والديه ، تذكّر أمه الهادئة ، الجالسة حول طاولة مستديرة مع بعض النساء الأخريات ، وهنّ يخطن بصمت ؛ تذكر أباه وهو يتمشى في الغرفة بصمت أيضاً . اتحد الحاضر بالماضي واختلطا .

تخيل أنه قد بلغ تلك الارض الموعودة ، التي تجري فيها أنهار من العسل واللبن حيث الناس يسيرون فيها وهم يرفلون بالذهب والفضة . . .

هاهي تتردّد في أسماعه الآن ، أحاديث المنامات وقراءة البخت وقرقعة الصحون وصوت السكاكين ، فيلتصق بمربيته العجوز ويصغي الى صوتها المرتجف، وهي تشير الى أغافيا ماتفييفنا قائلة : « ميليتّريسا كير بتييفنا ! » .

وكما في الماضي ، فانه يرى الآن الغيمة ذاتها تسبح في السماء الزرقاء ، ويحس بالرياح القوية ذاتها ، وهي تهبّ من النوافذ وتعبث بشعره . وها هو أيضاً ديك من أبلوموفكا يسير ويصيح تحت النافذة .

هاهو الكلب قد بدأ بالنباح : لابد أنّ ضيفاً قد أتى . من يدري .

ربما يكون أندريي قد جاء مع والده من فيرخليوفا ؟ ستكون فرحة عظيمة في الواقع . لابد أنْ يكون هو : فالخطوات تقترب أكثر فأكثر . . . هاهو الباب ينفتح . . « أندريي ! » – قال أبلوموف .

ظهر أمامه أندريي حقاً ، لكنه لم يكن صبياً ، بل رجلاً ناضجاً .

صحا أبلوموف من حلمه : كان يقف أمامه في اليقظة ، لا في الهلوسة ، شتولتس الحقيقي ، الواقعي .

خطفت أغافيا ماتفييفنا الطفل بسرعة ، وأخذت من على الطاولة ما كانت تخيطه ، وأخرجت الأولاد واختفت ؛ اختفى كذلك ألكسييف . بقي شتولتس وأبلوموف لوحدهما ، وكلّ منهما ينظر الى الآخر بصمت وبلا حركة . كان شتولتس يطعنه بنظراته .

– لاأكاد أصدّق . هل أنت أندريي حقاً ؟ – سأل أبلوموف بصوت لايكاد يُسْمَع من شدة الاضطراب ، كما يسأل الحبيب حبيبته بعد فراق طويل .

– نعم ! – قال أندريي بصوت خافت . – هل أنت حي ، معافى ؟

– عانقه أبلوموف وضمّه بشدة إليه .

– آه ! – أجاب أبلوموف وهو يصبّ في آهته الطويلة تلك كل ما في نفسه من أحزان وأفراح ، لم يعرف مثلها منذ فراقهما .

جلسا وبدأ كل منهما ينظر الى الآخر ، من جديد ، بإمعان .

– هل أنت معافى ؟ – سأل أندريي .

– أجل ، فأنا الآن بخير والحمد لله .

twitter @baghdad_library

ـــ هل كنت مريضاً ؟

ـــ أجل ياأندريي ، أصبت بالذبحة القلبية . . .

ـــ ماذا ؟ ياإلهي ! ـــ قال أندريي بذعر وبتعاطف . ـــ هل مرّت بدون مضاعفات ؟

ـــ أجل ، لكنّي لاأتحكّم بساقي اليسرى بسهولة . . .

ـــ آه منك ياإيليا إيليتش ! ماذا حدث لك ؟ أراك قد يئست تماماً ! ماذا كنت تفعل طيلة ذلك الوقت ؟ فقد مرّت خمس سنوات دون أن نلتقي ؟

تنهّد أبلوموف .

ـــ لماذا لم تسافر الى أبلوموفكا ؟ لماذا لم تكتب ؟

ـــ ماذا أقول لك ياأندريي ؟ لاتسألني أكثر ، فأنت تعرفني جيداً ! قال أبلوموف بأسى .

ـــ لم تغادر هذه الشقة طيلة هذه السنين ؟ ـــ قال شتولتس وهو يعاين الغرفة ، ـــ لم تسافر ؟

ـــ أجل ، فمازلت هنا . ولم أغادر الى أي مكان . . . فأنا لن أغادر هذه الشقة بعد الآن ؟ .

ـــ كيف ؟ هل قرارك هذا نهائي : حاسم ؟

ـــ أجل ياأندريي ، إنه نهائي وحاسم .

نظر شتولتس إليه بإمعان ، ثم استغرق في التفكير وبدأ يتمشى في الغرفة .

-- وأولغا سيرغييفنا ؟ هل صحتها جيدة ؟ أين هي ؟ هل تتذكر ...؟

لم يكمل .

— إنها بخير ، فهي تتذكرك ، كما لو انكما قد افترقتما البارحة . سأقول لك الآن ، أين هي .

— والأولاد .

-- بخير . . . لكنْ ، قل لي ياإيليا : هل أنت عازم حقاً على البقاء هنا ؟ فقد أتيت الى هنا من أجل أنْ أصطحبك معي لعندنا ، الى القرية ...

-- كلا . كلا ! -- قال أبلوموف وهو يخفض صوته وينظر الى الباب ، وقد بدا عليه القلق . — كلا ، أرجوك ألاّ تكرر هذا . . .

— لماذا ؟ ماذا حدث لك ؟ — بدأ شتولتس . -- فأنت تعرف ، بأني أطالبك بهذا منذ زمن بعيد ، ولن أكفّ عنك . كانت هنالك أمور مختلفة تشغلني ، أما الآن فقد تحرّرت منها . يجب أنْ تعيش معنا ، بالقرب منّا : ذلك هو قراري وقرار أولغا . أشكر الله ، لأنني وجدتك هكذا ، وليس أسوأ . لم أكن أعتقد أني سأجدك هكذا . . .

هيا ، استعد للسفر معي ! . . . فأنا على استعداد لأن أصطحبك بالقوة ! يجب أن تغيّر نمط حياتك . . .

كان أبلوموف يسمع هذا الخطاب بفارغ الصبر .

— لاتصرخ . اخفضْ صوتك من فضلك ! — توسل أبلوموف. فهناك . . .

— ماذا هناك ؟

twitter @baghdad_library

ـ سيسمعوننا . . . ستعتقد صاحبة الشقة ، بأني أريد أنْ أسافر حقاً . . .

ـ وماذا لو سمعت ؟ فلتعتقدْ كما تشاء ؟

ـ (مقاطعاً) آه . كيف يمكن ذلك ! اسمعْ ياأندريي ! ـ أضاف فجأة بلهجة حاسمة . لاسابق لها ، لاتحاولْ عبثاً أنْ تقنعني : سأبقى هنا.

نظر شتولتس الى صديقه بدهشة . كان أبلوموف ينظر إليه بحزم وبهدوء .

ـ لقد هلكت ياإيليا ! ـ قال شتولتس . ـ فهذا البيت ، وهذه المرأة . . . وحياتك هذه كلها . . . ضربٌ من الجنون : هيا ، سافر معي

أمسك شتولتس أبلوموف بكمه وسحبه باتجاهالباب .

ـ لماذا تريد أنْ تأخذني معك ؟ الى أين ؟ ـ قال أبلوموف معانداً عناد المستميت .

ـ كي أخرجك من هذه الحفرة ، من هذا المستنقع ، الى النور والرحابة ، حيث الحياة الطبيعية السليمة ! ـ أصرّ شتولتس ، بطريقة آمرة تقريباً . ـ أين أنت؟ من أصبحت؟انهَضْ من غيبوبتك ! هل هذه هي الحياة ، التي كنت تمنّي نفسك بها ؟ هل تريد أنْ تنام كالخلد في هذا الجحر ؟ تذكَّر ماكنت تمنّي نفسك به . . .

ـ لاتذكّرْني . لاتثر الماضي ، فلن يعود ! ـ قال أبلوموف ، وهو يتمتع بكامل وعيه وإرادته . ـ ماذا تريد أنْ تخلق مني ؟ فقد انقطعت الصلة الى الأبد ، مع ذاك العالم الذي تشدّني إليه ، فلن تنتزعني ،

ولن تستطيع أنْ تعيدني الى الحياة . لقد ترسّخت جذوري في هذه الحفرة وإذا ما حاولت أنْ تقتلعني منها ، فسيكون موتي .

– تبصّرْ جيداً ، أين تسكن ومع من تعيش ؟

– أعرف ، وأدرك . . . آه ياأندريي ، فأنا أشعر بكل شيء ، وأدرك كل شيء : أشعر منذ زمن بعيد بالخجل من حياتي هذه ! لكني لاأستطيع السير على طريقك ، حتى ولو توفرّت لديّ الرغبة . . . ربما كان ذلك ممكناً في لقائنا السابق . اما الآن . . . (أخفض بصره وصمت لحظة) فقد أصبح الوقت متأخراً . . . اذهبْ ولا تتوقفْ من أجلي . فأنا جدير بصداقتك – الله يعلم ذلك ، لكني لست جديراً بعنائك .

– كلا ، لاتقل ذلك ياإيليا . سآخذك معي من أجل ذلك خصيصاً . فافتراضك هذا يدفعني أكثر لأنْ أصطحبك معي . . . اسمَعْ . – قال شتولتس ، – البس شيئاً ما واذهبْ لنقضي السهرة عندي . سأحدثك الكثير الكثير : هل تعرف مايجري عندنا الآن من نشاطات ومشاريع ؟

نظر أبلوموف إليه مستفهماً .

– لقد نسيت بأنك لاتشاهد الناس : اذهبْ . سأحدّثك عن كل شيء . . . أتعرف من ينتظرني هنا في العربة ، عند البوّابة . . .

– أولغا ! – نطق أبلوموف فجأة وقد بدا عليه الخوف . حتى أنّ وجهه تغيّر . – لاتأت بها الى هنا ، ناشدتك الله ألاّ تفعل ، خذها وسافر . وداعاً ، وداعاً !

twitter @baghdad_library

كان أبلوموف يدفع شتولتس الى الخارج ، حتى أنه بدا وكأنه يطرده ، لكنّ شتولتس لم يتحرك .

— لاأستطيع أنْ أذهب إليها بدونك : فقد أعطيتها عهداً بذلك . هل تسمع ياإيليا ؟ إنْ لم يكن اليوم ، فغداً . بامكانك أن تؤجل الأمر . لكن أرجوك ألا تطردني . . . غداً . بعد غد ، المهم أنْ نلتقي !

صمت أبلوموف وأخفض رأسه . لكنه لم يتجاسر على النظر الى شتولتس .

— متى سنلتقي ؟ — سأل شتولتس . فأولغا ستسألني عن موعد لقائنا .

— آه ياأندريي . — قال أبلوموف بصوت رقيق متوسل . وهو يعانق شتولتس ويضع رأسه على كتفه . — اتركني الى الأبد . . . ولا تتذكّرْني . . .

— الى الابد ؟ كيف ؟ — سأل شتولتس بدهشة ، وهو يبتعد عن أحضانه وينظر الى وجهه .

— أجل ! همس أبلوموف .

— ابتعد شتولتس عنه مسافة خطوة .

— أنت . الذي تقول هذا ياإيليا ؟ — قال شتولتس معاتباً . — تطردني وتتخلى عني من أجل هذه المرأة ! — ياإلهي — ! كاد أنْ يصرخ كما يصرخ المرء من ألمٍ مفاجىء . — وهذا الطفل . الذي رأيته الآن . . . إيليا . إيليا ! اهرب من هنا . لنذهبْ بأقصى مايمكن من السرعة !

كيف سقطت ! وهذه المرأة . . . من تكون بالنسبة لك . . .

— زوجتي ! — نطق أبلوموف بهدوء .

تجمّد شتولتس .

— وهذا الطفل — ابني ! أسميته أندريي وفاءً وإخلاصاً لذكراكَ ! — أكمل أبلوموف وقد شعر بالإرتياح ، لأنه ألقى عن كاهله عبء هذا السر .

تغيّر الآن وجه شتولتس ، وبدا منذهلاً ، وهو ينظر بشرود الى ما حوله . فقد « انفتحت وانشقت الهاوية » أمامه فجأة ، وانتصب « الجدار العالي » أمام ناظريه ، كأنّ أبلوموف لم يعد موجوداً ، كأنه قد غاب من عينيه وانهار . كان يشعر بذاك النوع من الألم المر والحسرة المفجعة ، التي يحس بهما الإنسان عندما يهرع بلهفة ليرى صديقاً حميماً بعد فراق طويل ، فيكتشف بأنه ليس موجوداً منذ زمن بعيد ، وأنه قد مات .

— لقد هلكت ! — قال غريزياً وبصوت هامس . — ماذا سأقول لأولغا ؟

سمع أبلوموف الكلمات الأخيرة ، وكان يريد أنْ يقول شيئاً ما ، لكنه لم يستطع . مدّ كلتا يديه الى أندريي ، ثم تعانقا بصمت وبحرارة ، كما يتعانق الناس عادةً قبل المعركة ، وقبل الموت . فهذا العناق خنقَ كلماتهما ودموعهما ومشاعرهما . . .

twitter @baghdad_library

— لاتنسَ ابني اندريي ! — كانت كلمات أبلوموف الأخيرة ، التي تفوّه بها بصوت خافت هامد .

خرج أندريي بهدوء وبصمت. كان يسير في فناء المنزل ببطء وبتأمل ثم جلس في العربة ، بينما جلس أبلوموف على الأريكة ، مسنداً مرفقيه الى الطاولة ، ومخفياً وجهه بيديه .

« كلا . لن أنسى ابنك أندريي . — فكر شتولتس بأسى عندما كان يسير في فناء المنزل . — لقد هلكت ياإيليا : لم تعد هنالك حاجة ولا ضرورة لأنْ أقول لك ، بأنّ أبلوموفكا لم تعد قريةً نائية موحشة ، فقد جاء دورها وغمرتْها أشعة الشمس ! لن أقول لك ، بأنها ستصبح بعد أربع سنوات عقدةَ مواصلات ومحطة للركاب ، وانّ فلاحيك سيذهبون للعمل على بناء سكة الحديد ، وسيُنْقلُ بعد ذلك محصولك من القمح بواسطة القطار الى المرفأ . . . وسيتمّ هناك . . . في أبلوموفكا ، بناء المدارس ، وتعلّم القراءة والكتابة . . .

كلا ، فأنت سترتعد خوفاً من فجر السعادة هذا ، وستتعب عيناك من رؤية هذه المشاهد ، غير المألوفة . لكني سأقود ابنك أندريي الى حيث لم تستطع أنت أنْ تذهب . . . وسأحقّق معه أحلام شبابنا » . — وداعاً يا أبلوموفكا القديمة ! — قال شتولتس وهو يلقي لآخر مرة نظرة على نوافذ المنزل الصغير . — لقد مضى زمانك !

— ماذا هناك ؟ — سألت أولغا وقلبها يخفق بشدة .

— لاشيء ! — أجاب أندريي بجفاء . وهو يتوقّف بين مقاطع الكلمة .

— هل هو حيّ ، معافى ؟

— أجل ، — أجاب أندريي بتثاقل .

— لماذا عدت بمثل هذه السرعة ؟ لماذا لم تنادني ، ولماذا لم تأت به ؟ دعني أذهب لأراه !

— ممنوع !

— ماذا يجري هناك ؟ — سألت أولغا بذعر . — هل « انفتحت الهاوية » ؟ هل ستقول لي ماذا جرى ؟

ظلّ شتولتس صامتاً .

— ماذا يجري هنالك حقاً ؟

— أبلوموفية ! — أجاب أندريي بكآبة ، لكنه لم يرد على تساؤلات واستفسارات أولغا أثناء الطريق ، وظلّ صامتاً حزيناً الى أن وصل البيت.

— ١٠ —

خمس سنوات انقضت . جرت تبدلات كثيرة في ناحية فيبورغ : فالشارع المقفر المؤدي الى منزل بشينيتسينا ، أصبح عامراً بالمنازل والأبنية التي تشمخ من بينها بناية حجرية حكومية عالية ، كانت تحجب أشعة الشمس عن نوافذ المأوى الهادىء للكسل .

البيت ذاته بلي قليلاً ، كان يبدو مهملاً ، غير نظيف ، كرجل لم يحلق ذقنه ولم يغسل وجهه . الدهان تقشّر ، ومزاريب مياه المطر

twitter @baghdad_library

تكسّرتْ : فأصبح فناء المنزل مليئاً ببرك المياه والأوساخ ، حيث ألقي عبرها ، كما في السابق ، لوح خشبي ضيق ، كممر للعبور . لم يعد الكلب ينبح بحيوية ، عندما يدخل أحدٌ ما فناء المنزل ، بل بتكاسل وبصوت مبحوح ، مخنوق ، دون أنْ يخرج من بيته .

كم من التغيرات قد حدثت داخل البيت . هناك أمرأة غريبة تتصرف بشؤون المنزل ، كما لم يعد الأطفال السابقون هم الذين يمرحون ويلعبون فيه . يظهر فيه أحياناً من جديد . تارانتييف المشاغب ذو الوجه الغائر ، الضارب الى الحمرة قليلاً ، بينما لم يعد ألكسييف الوديع يتردّد إليه . أما زاخار وأنيسيا فقد اختفيا منه : إذ أصبحت طاهية بدينة تتصرف بشؤون المطبخ ، وتنفذ الأوامر والطلبات البسيطة لأغافيا ماتفييفنا . بدون رغبة وبفظاظة ، بينما كانت أكولينا تغسل الطسوت والمعالف ، وهي تضع طرف ثوبها تحت زنارها ، اما البوّاب الخامل ، المحب للنوم فلا يزال يرتدي نفس الفروة المصنوعة من جلد الضأن ، يعيش بقية عمره في جحره . وفي ساعات محددة من الصباح الباكر وبعد الظهر ، أصبح يُلمحُ من جديد ، عبر السياج . « أخ » أغافيا ماتفييفنا ، متأبطاً رزمةً كبيرة ، ومنتعلاً حذاءً مطاطياً في الشتاء والصيف .

ماذا حدث لأبلوموف ؟ أين هو ؟ أين ؟ — هاهو جسده يرقد بهدوء في المقبرة المجاورة ، تحت إحدى الشجيرات . فأغصان الليلاك ، التي غرستها يدٌ محبّةٌ حانية ، تظلّل قبره كما ينمو نبات الشيح أطايبه وعبقه بهدوء . يبدو أنّ ملاك الصمت والهدوء يصون نومه ويحرس سكونه .

وعلى الرغم من أنّ عين زوجته المحبة الساهرة كانت تسهر عليه وترعاه دائماً باهتمام كبير ، فإنّ آلة الحياة كانت تتعطل وتتوقف تدريجياً وبصمت ، بفعل التأثير المدمر للسكون الدائم وانتفاء الحركة والسبات المستمر والكسل . فقد قضى إيليا إيليتش . على مايبدو ، بلون ألم أو عذاب ، كما تتوقف الساعة ، التي نُسيَتْ ولم تُدوَّرْ .

مامن أحدٍ قد رأى لحظات أبلوموف الأخيرة ، أو سمع الأنين الذي سبق الموت . فقد تجدّدت الذبحة القلبية مرة أخرى ، بعد عامٍ واحد ونجا منها أيضاً :

لكنّ إيليا إيليتش أصبح شاحباً ، ضعيفاً ، يأكل قليلاً ويخرج الى الحديقة قليلاً ؛ أصبح أكثر صمتاً وتأملاً ، حتى أنه كان يبكي أحياناً . كان يشعر بقرب موته ، وكان يخشى كثيراً ذلك الموت .

غشي عليه بضع مرات ، لكن الأمور كانت تمر بسلام . ذات مرة صباحاً ، كانت أغافيا ماتفييفنا تحمل إليه القهوة كعادتها ، فوجدته راقداً بوداعة على فراش الموت ، لكن رأسه كان منزاحاً عن الوسادة قليلاً ، ويداه مضمومة بتشنج نحو قلبه ، الى المكان ، الذي تجمّد فيه ، على مايبدو وتوقّف دمه .

ثلاث سنوات انقضت على ترمّل أغافيا ماتفييفنا : كانت أمور كثيرة قد تغيرت وفقدت مجراها المألوف السابق . فقد عمل أخ صاحبة الشقة بالتعهدات وأفلس ، ثم عاد عن طريق التحايل والتزلف والمداهنة الى عمله الوظيفي السابق ، الى حيث « يسجّل الفلاحون » ، وهاهو ذا

twitter @baghdad_library

يذهب من جديد سيراً على الأقدام الى مكان عمله ، ويرتشي بالكوبيكات وبأرباع وأنصاف الروبلات ليملأ صندوقه ، الذي خبّأه منذ زمنٍ بعيد في مكانٍ ما . أما طريقة العيش فقد أصبحت فظة ، بسيطة ساذجة ، كما كانت عليه الحال سابقاً قبل مجيء أبلوموف .

كانت إيرينا بانتيليفنا ، زوجة أخ صاحبة الشقة ، تلعب الدور الرئيسي في المنزل ، أي أنها كانت تملك الحق بأنْ تستيقظ متأخرة ، وتتناول القهوة وتغير فساتينها ثلاث مرات يومياً ؛ كانت تملك الحق بأنْ تهتم بأمرٍ واحد فقط من بين الأمور المنزلية كلها ، هو أنْ تكون تنانيرها منشّاة على أحسن وجه . باستثناء ذلك ، لم تكن تهتم أو تتدخل بأي شيء آخر ، فأغافيا ماتفييفنا كانت كالسابق ، رقاص الساعة النشيط في البيت : فهي التي تهتم بالمطبخ وتحضّر الأطعمة وتضعها على الطاولة وتسقي كل من في البيت ، الشاي والقهوة ، وتخيط لهم الملابس الداخلية ، وتغسل البياضات ، وتهتم بالأولاد وبأكولينا والبوّاب .

لكن ، لماذا أصبحت الأمور على هذا النحو ؟ إنها أرملة ابلوموف ، إنها السيدة النبيلة ، فهي تستطيع أنْ تعيش وحدها ، بكامل الإستقلالية ، دون أنْ تحتاج لمعونة من أحد . ماالذي أجبرها على أنْ تأخذ على عاتقها مسؤولية بيت غريب ، وأطفال ليسوا أطفالها ، ماالذي أجبرها على أنْ تُحمّل نفسها مثل هذه الأعباء والمشاغل ، التي تفرضها المرأة على نفسها عادة ، إما بدافع الحب ، أو من أجل الحصول على لقمة الخبز ؟ وأخيراً ، أين الميراث الذي تركه زوجها ، وأين أندريوشا الصغير ؟ أين يعيش ابنها وابنتها من زوجها السابق ؟

لقد انتظمت أمور ابنها وابنتها ، أي أنّ فانيوشا قد أنهى تعليمه وبدأ عماه ، أما ماشا فقد تزوجت من أحد الموظفين ؛ بينما يعيش أندريوشا الصغير الآن في عهدة شتولتس وزوجته ، كفرد من أفراد أسرتهما . فأغافيا ماتفييفنا لم تقرن يوماً مصير طفلها أندريوشا بمصير ولديها الآخرين ولم تساوه بهما ، مع أنّ قلبها كان يضعهما ، رغماً عن إرادتها ، في منزلة مساوية له . لكنها كانت تضع حداً فاصلا عميقاً بين تربية أندريوشا وتنشئته ، ونمط حياته المقبلة ، وبين حياة فانيوشا وماشينكا .

— من يكون فانيوشا وماشينكا ؟ إنهما قذِران مثلي ؛ — كانت أغافيا ماتفييفنا تقول باستخفاف ، — فقد ولدا في جسد لاتجري فيه دماء النبلاء ، أما هذا ، — أضافت بلهجة تنمّ عن الإحترام وهي تتحدث عن أندريوشا بلطف وبشيء من الحذر ، وربما بشيء من التهيّب أيضاً ، — فإنه نبيل ! بشرته بيضاء ، ناعمة طرية ، أما يداه وساقاه فغايةفي الجمال ، وشعره ناعم كالحرير . إنه يشبه المرحوم تماماً !

لذا ، فإنها وافقت بدون اعتراض ، وحتى بشيء من الفرح ، على اقتراح شتولتس الرامي لأنْ يأخذ أندريوشا في عهدته ، ويتعهّد بتربيته ، معتبرة أنّ مكانه الطبيعي هناك ، وليس في « هذا المستنقع » مع أولاد أخيها القذرين هنا .

ظلت تعيش مع أنيسيا وزاخار في المنزل مدة نصف عام بعد وفاة زوجها ، وهي تعاني الكثير من الحزن والألم بسبب المصيبة ، التي ألمت بها . كانت تتردّد كثيراً الى قبر زوجها وتذرف الدموع الغزيرة

twitter @baghdad_library

حزناً عليه ، ولم تأكل أو تشرب تقريباً ، كانت تعيش على الشاي فقط ، حتى أنها كانت تقضي الليالي دون أن يغمض لها جفن ، فأصبحت منهكة خائرة القوى . لم تكن تشتكي أبداً . كانت تتحمّل مصيبتها بصمت ، ويبدو أنه كلما ابتعدت عن لحظة الفراق ، كلما استغرقت في تأملها وحزنها أكثر . فكانت تنطوي على نفسها وتنعزل عن الجميع ، حتى عن أنيسيا.لم يكن هنالك أحد يعلم مبلغ ماتعانيه .

ذات مرة ، قال أحد الباعة في السوق للطاهية ، التي تعمل في منزل أغافيا ماتفييفنا . والتي تشتري من مخزنه عادة كل مايلزم البيت من مؤونة ، بأنّ صاحبة الشقة تبكي دائماً حزناً على زوجها .

أما أحد الشيوخ فقال بأنها حزينة جداً على زوجها – قال ذلك ، وهو يشير إليها أثناء توجهها الى الكنيسة الكائنة بالقرب من المقبرة ، التي كانت تذهب إليها الأرملة كل أسبوع لتبكي وتصلي من أجل راحة زوجها . وفي منزل أخيها غالباً ماكان يتردّد بأنها لاتزال كئيبة .

ذات يوم ، شنّت أسرة أخيها ، وعلى نحو مفاجيء ، هجوماً اشترك فيه أفراد الاسرة جميعاً ، بمن فيهم الأولاد ، وحتى تارانتييف ، بحجّة مواساتها وإبداء التعاطف معها . انهالت التعازي المبتذلة ، والنصائح ، التي تحثها على « الإهتمام بصحتها وبنفسها من أجل أولادها » – قيل لها باختصار ، كل ماقالوه لها ، عندما مات زوجها الأول منذ خمس عشرة سنة ، وهو الأمر الذي استقبلته حينئذ بقبول وارتياح . لكنها تلقّتْهُ الآن لسببٍ ما ، بشيء من الإشمئزاز والقرف .

شعرت بشيء من الارتياح عندما أخذوا يتحدثون عن أمرٍ آخر ، وعندما أخبروها بأنهم يستطيعون الآن أن يعيشوا معاً من جديد ، وأنّ هذا سيخفّف « من مصيبتها وسط أهلها وأقاربها » ، وأنهم سيكونون مسرورين بالعيش معها ، لأنه مامن أحدٍ يستطيع أنْ يحافظ على النظام في البيت كما تستطيع أغافيا ماتفييفنا .

طلبت إمهالها بعض الوقت لتفكر بالأمر ، ثم أمضت بعد ذلك شهرين من الأسى والحزن ، ووافقت أخيراً على العيش معاً .في هذه الآونة ، كان شتولتس قد أخذ أندريوشا ليتكفّل بتربيته ، فبقيت وحيدة.

هاهي ترتدي فستاناً أسود ، وتضع على عنقها شالا صوفياً أسود ، وهي تنتقل من الغرفة الى المطبخ كالظلّ . فتفتح وتغلق الخزانات كالسابق وتخيط وتكوي . لكن بهدوء ، وبلا حيوية ، وتتكلم بصوت خافت ، كما لو أنها تفعل ذلك بدون رغبة ؛ لم تعد تنظر كالسابق الى ما حولها باهمال ، وهي تُتنقّلُ عينيها من شيء لآخر ، بل أصبحت تنظر الى الأشياء بتركيز وتمعّن ، وهي تخفي في عينيها فكرة خفية . أصبحت هذه الفكرة خفية على مايبدو ، منذ تلك اللحظة ، التي نظرت فيها طويلا وبوعي الى وجه زوجها الميت ، فلم تفارقها منذ ذلك الوقت .

كانت تتحرك في البيت وتعمل بيديها كل ماهو ضروري ، لكنّ تفكيرها لم يكن موجوداً هنا . فوق جثة زوجها ، وفي لحظة فقدانه ، فهمت حياتها : على مايبدو ، فجأة وصارت تفكّر بمعناها ، ثم أصبح هذا التفكير راقداً كالظل على وجهها والى الأبد . فبعد أنْ فرّجتْ عن

twitter @baghdad_library

نفسها بالبكاء ، تركزّ تفكيرها كله على إدراك خسارتها : فكل شيء آخر قد مات وانتهى بالنسبة لها ، ماعدا أندريوشا . كانت أمارات الحياة تنبعث فيها ، عندما تراه فقط ، فتصبح ملامح وجهها حيوية ، وتمتلىء عيناها بشعاع من السرور والضياء ، ثم تذرفان بعد ذلك دموع الذكريات.

كانت غريبة عن كل مايحيط بها : فاذا ماغضب أخوها بسبب روبل ضيّعه عبثاً ، أو لم يكسبه ، أو بسبب شريحة من اللحم احترقت قليلا ، أو بسبب شراء سمك غير طازج ، وإذا ماتجهّمت زوجة أخيها بسبب تنانيرها غير المنشّاة كما ينبغي ، أو بسبب شاي خفيف بارد ، وإذا ما أغلظت الطاهية البدينة في القول ، فإنّ أغافيا ماتفييفنا لم تكن تلاحظ شيئاً من ذلك كله ، كأنّ الكلام غير موجه إليها ، ولا يعنيها ، ولم تكن تسمع حتّى همسهم اللاذع : « نبيلة إقطاعية ! » .

كانت تجيب على ذلك كله بصمت مستكين وبعزّة نفس أضنتها الفاجعة .

على العكس من ذلك ، ففي أيام الميلاد ، والأمسيات البهيجة لعيد الصوم الكبير ، وفي الأيام المشرقة الصاحية ، عندما يبتهج ويغني ويأكل ويشرب كل من في البيت ، كانت وسط الفرح والمرح الشاملين تذرف فجأة دموعاً حارة سخية ، ثم تنزوي وتتوارى في أحد أركان المنزل .

بعد ذلك ، كانت تركّز تفكيرها من جديد ، حتّى انها كانت تلقي أحياناً على أخيها وزوجته نظرة تنمّ عن تشامخ وإشفاق .

أدركت ، بأنها خسرت الحياة ، وأنّ الله قد أدخل البهجة الى

حياتها ثم استردّها من جديد ؛ أدركَتْ بأنّ الشمس قد سطعت ، ثم انطفأت الى الأبد . . . الى الأبد ، لكن حياتها بالمقابل ، أصبحت ذات معنى : إنها تعرف الآن لماذا عاشت ، وبأنّ حياتها لم تكن عبثاً .

أحبتْ أبلوموف حباً رائعاً ، عظيماً ، صادقاً : أحبته كعشيق ، وكزوجٍ ، وكسيد نبيل ، لكنها لم تفصح عن ذلك مطلقاً لأحد ، ولم تكن تستطيع أنْ تفعل ذلك . فما من أحد ممّن يحيط بها ، كان يمكن أن يفهم مشاعرها تلك . زد على ذلك ، أين تعثر على اللغة المعبّرة ؟ فمفردات أخيها وتارانتييف وزوجة أخيها ، خالية من مثل تلك الكلمات المعبّرة ، الزاخرة بالمفاهيم السامية والمعاني النبيلة ، فايليا إيلييتش هو الوحيد فقط الذي كان يستطيع فهمها ، لكنها لم تصارحه بذلك أبداً ، لأنها لم تكن قد أدركت ذلك عندئذ ، ولم تكن قد عرفته بعد .

مع السنين ، أصبحت تدرك ماضيها بشكلٍ أكثر عمقاً ووضوحاً ، وصارت أكثر صمتاً وتركيزاً . فأشعة الضياء ، والنور الهادىء ، التي عاشتها وأحسّت بها سبع سنوات مَرّتْ كلمح البصر ، قد أضاءت حياتها كلها ، فلم تعد تنتظر شيئاً أو تريد الذهاب الى أي مكان .

وعندما عاد شتولتس فقط من القرية في فصل الشتاء ، هرعت الى منزله ، وأخذت تنظر بلهفة الى أندريوشا ، وتداعبه بشيء من التهيّب والحفر ، ثم أرادت بعد ذلك أنْ تقول شيئاً ما لأندريي إيفانوفيتش ، وتشكره ، وتفصح له عن كل مايعتمل في أعماقها ويعيش في قلبها ، لأنه كان لابدّ أنْ يفهمها ، لكنها لم تكن تعرف أنْ تعبّر عما تشعر به ،

twitter @baghdad_library

فاكتفت بأنْ ارتمت على أولغا وألصقت شفتيها بيديها وراحت تذرف سيلا من الدموع الحارة السخية ، مما أرغم أولغا على البكاء أيضاً . أما أندريي فقد خرج من الغرفة بسرعة ، وهو في غاية الاضطراب .

ما كان يوحّدهم ويجمع بينهم . هو التعاطف المشترك ، والذكرى الصادقة الواحدة لروح المرحوم النقية الصافية . توسّلوا إليها كي تذهب الى القرية ، لتعيش معهم هناك ، بالقرب من أندريوشا ، — لكنها كانت تصرّ على شيء واحد ؛ « هنا وُلِدْتُ وعشت ، وهنا يجب أنْ أموت » .

كان شتولتس يُرْسِل إليها الدخل المتأتيّ من أبلوموفكا ، لكنّ محاولاته كانت عبثاً ؛ كانت تعيدها إليه وترجوه كي يدّخرها من أجل أندريوشا .

كانت تؤكد باصرار : هذا الدخل له وليس لي . سيحتاجه ، إنه سيد نبيل ، اما أنا فسأعيش هكذا ، كما تعوّدت .

— ١١ —

ذات مرة ، في منتصف النهار تقريباً ، كان سيّدان يسيران على الأرصفة الخشبية في ناحية فيبورغ ، كانت هنالك عربة تسير خلفهما ببطء . أحدهما كان شتولتس ، أما الآخر — فكان صديقه . كان صديقه هذا كاتباً ، بديناً ، علامات الخمول بادية على وجهه ، أما عيناه فكانتا متأملتين ، يكاد أنْ يغلبهما النعاس . أصبحا بمحاذاة الكنيسة ، كانت الصلاة قد انتهت . فخرجت أعداد كبيرة من الناس وملأت

الشارع ؛ كان المتسولون الفقراء في مقدمة الجميع . كان حشد المتسوّلين كبيراً ومتنوّعاً .

— كم أريد أنْ أعرف من أين جاء هذا الحشد من المتسوّلين ؟ — قال الكاتب ، وهو ينظر إليهم .

— ألا تعرف من أين ؟ من أصقاع مختلفة ومناطق عديدة . . .

— أنا لا أسأل عن هذا ، — اعترض الكاتب ، — أريد أنْ أعرف : كيف يصبح المرء متسولاً ، وكيف يصل الى مثل هذا الوضع ؟ هل يحدث هذا فجأة ، أم تدريجياً ، وهل هم فقراء حقاً ، أم يتصنّعون الفقر ؟ . . .

— لماذا تريد أنْ تعرف ذلك ؟ هل تريد أنْ تكتب « أسرار بطرسبورغ » . (١) .

— ربما . . . — قال الكاتب وهو يتثاءب بكسل .

— الفرصة مواتية : سَلْ أيّ واحد منهم ، وسيروي لك قصته لقاء روبل واحد ، أما أنت فبإمكانك أن تدوّن ماستسمعه ، ثم تعيد صياغته وتبيعه بربح كبير . انظر الى هذا العجوز ، فهو على مايبدو ، نموذج اعتيادي للمتسوّل . أيها العجوز ! تعال الى هنا !

التفت العجوز ، فرفع قبعته واقترب منهما .

— رحماكما ! — قال العجوز بصوت أجش . — ساعدا محارباً

---

(١) يلمح شتولتس هنا إلى المحاولات العديدة الرامية لتقليد الرواية الفرنسية « أسرار باريس » .

twitter @baghdad_library

عجوزاً فقيراً مشوّهاً ، خاض ثلاثين حرباً . . .

— زاخار ! —قال شتولتس بدهشة — هذا أنت ؟

صمت زاخار فجأة ، ثم وضع يده فوق عينيه ليحميهما من الشمس وأخذ ينظر الى شتولتس بامعان .

— اعذرني ، لم أتعرف على سيادتكم . . . لقد عميت تماماً !

— تنسى صديق سيدك ، شتولتس ، — قال شتولتس معاتباً .

— آه ، آه ، أندريي إيفانيتش ! ياإلهي ، لقد قهرني العمى وغلبني ! كيف حالك ياأبتاه ! أخذ يتململ أمامه ، وحاول أنْ يمسك يد شتولتس لكنه لم يستطع ، فما كان منه إلاّ أنْ قبّلَ طرف ثوبه .

— لقد مَنَّ الله عليّ بأنْ أعيش لحظة سعيدة كهذه . . . — بدأ يصرخ بصوت يشوبه البكاء تارة ، والضحك تارة أخرى . كان وجهه يبدو ، وكأنه محروق من جبينه الى ذقنه . أما أنفه فكان مغطى بلون أزرق . رأسه أصلع تماماً ، بينما لايزال فوداه كبيرين كالسابق ، لكنهما أصبحا متشابكين ، مشوّشين ، مدعوكين كاللبّاد ، كأنّ قبضة من الثلج قد وضعت في كلّ منهما .

كان يرتدي معطفاً عتيقاً مُنسلاً تماماً ، وينتعل حذاءً بالياً بدون جورب ، وكان يمسك بيديه قبعة من الفرو ، بالية تماماً .

— آه ، ياإلهي ! لقد منّ الله عليّ اليوم بهذه الفرحة الكبيرة . . .

— لماذا أنت في هذا الوضع ؟ لماذا ؟ ألا تخجل ؟ — سأل شتولتس بصرامة .

– آه ياأندريي إيفانيتش ! ماذا أفعل ؟ – بدأ زاخار وهو يتنهد بصعوبة . – من أين أعيش ؟ عندما كانت أنيسيا على قيد الحياة ، لم أكن أتسكع ، كنت أكتفي بقطعة الخبز ، لكن بعد أنْ ماتت بالكوليرا – وتلك هي إرادة الله – لم يقبل « أخ » سيدتي أن يبقيني في البيت واعتبرني طفيلياً . كان ميخاأندرييتش تارانتييف يعذّبني دائماً ، فما إن أمرّ بجانبه حتى يركلني بساقه من الخلف : أصبحت عيشتي لاتطاق ! كم تحمّلت من الإهانات واللوم ! صدّقني ياسيدي ، انني لم أكن أحصل على قطعة خبز أسدّ بها رمقي فليمنح الله سيدتي الصحة والعافية ! – أضاف زاخار وهو يرسم علامة الصليب . – فلولاها لكنت قد متّ منذ زمن بعيد من البرد والصقيع . كانت تعطيني الملابس ، التي تقيني برد الشتاء ، والخبز بوفرة ، والفحم للتدفئة . لكنها أصبحت تتعرّض للّوم بسببي ، لذلك قرّرت أنْ أغادر المنزل ، ورحت أتسكع في بلاد الله الواسعة ! وها أنا ذا أعيش حياتي التعسة هذه ، منذ سنتين . . .

– لماذا لم تبحث عن عمل ؟ – سأل شتولتس .

– وهل يمكن الحصول على عمل في هذه الأيام ياأندريي إيفانيتش ؟ ذهبت الى مكانين ، ولم أستطع الحصول على عمل . لم يعد الناس الآن ، كما كانوا سابقاً ، أصبحوا أسوأ . يشترطون على الخادم أنْ يكون ملماً بالقراءة والكتابة ؛ السادة في هذه الأيام لايحتاجون الى الكثير من الخدم ، ولا يريدون أنْ تكون غرفة المدخل مكتظة بالناس . فهم يكتفون غالباً

twitter @baghdad_library

بخادم واحد ، ونادراً ما يستخدمون اثنين . السادة في أيامنا هذه يخلعون أحذيتهم بأنفسهم ! يالفضيحة والعار ، لقد ضاعت النبالة !

تأوّه زاخار .

— عملت عند أحد التجار الألمان . تحدّد بأنْ أجلس في غرفة المدخل ، وسارت الأمور على أحسن مايرام ، لكنه أرسلني بعد ذلك للعمل في المقصف : فهل هذا عملي ؟ ذات مرة ، كنت أحمل آنية وأسير على أرض ملساء ناعمة ، فانزلقت ساقي فجأة ، وسقطت الصينية والآنية كلها على الأرض : فطردوني ! بعد ذلك ، اتفق أنْ أُعجِبَتْ كونتيسة عجوز بمنظري.« هيئته وقورة » ، — قالت الكونتيسة عندما رأتني ، ثم أخذتني لأشتغل عندها بوّاباً . كانت الوظيفة جيدة وعريقة : فهي تتطلب مني فقط أنْ أجلس على الكرسي بمهابة ووقار ، وأضع ساقاً فوق الأخرى ، ولا أجيب فوراً عندما يأتي أحدٌ ما ، فأزجر في البداية ، وأتفحصه بعد ذلك ، فأدعه يمر ، وإما أطرده ، أما الضيوف المحترمون ، فأستقبلهم بحفاوة . وأتحدث إليهم باطراء ! لكن السيدة كانت من النوع ، الذي يصعب إرضاءه ! ذات مرة ، ألقت نظرة على غرفتي الصغيرة ، فشاهدَتْ بقّة ، فاحتدمت غيظاً وأخذت تصرخ ، كما لو أنني أنا الذي خلقت البق ! متى كان العيش ممكناً بدون بق ! وفي مرّة أخرى ، كانت تمرّ بالقرب مني ، فتراءى لها أنّ رائحة الخمر تفوح منيّ . . . وكانت محقّة بذلك ! فرفضتني .

— إني أشم رائحة الخمر تفوح منك الآن ! — قال شتولتس .

– من الهمّ ياأندري إيفانيتش ، من الهمّ ، – قال زاخار بصوت مبحوح وبمرارة ، – جرّبت أنْ أعمل حوذياً أيضاً . اشتغلت بالأجرة عند أحد أصحاب الخيول ، فخانتني ساقاي ، ولم أصمد : فقد أصبحت عجوزاً ، فاقد الهمة والعزيمة ! كان الحصان جامحاً ، غضوباً ، فقد كاد أنْ يحطّمني ذات مرة ، وفي مرةٍ أخرى داس عجوزاً ، فأخذوني الى القسم . . .

– كفاك تسكعاً وسكراً ، تعال لعندي ، فسأخصّص لك غرفة ، وسآخذك معي الى القرية – هل تسمعني ؟

– أسمعك ياأبتاه أندريي إيفانيتش . . .

تنهد زاخار .

– لاأرغب بالذهاب من هنا ، بعيداً عن قبر سيدي ! فايتغمّد الله بواسع رحمته معيلنا إيليا إيلييتش ، – بدأ زاخار يولول . كم كان سيداً عظيماً ! عاش ليُدْخل المسرّات الى قلوب الناس ، ليته عاش مائة سنة . . . –

قال زاخار وهو ينشج . – قمت اليوم بزيارة قبره ، ما إنْ أصل الى هذه الناحية ، حتى أذهب الى قبره فوراً ، فأجلس وأجلس ، وأذرف الدموع بغزارة . . . يتراءى لي أحياناً ، أنه يصرخ لي قائلاً : « زاخار ! زاخار ! » ، فأشعر بقشعريرة تسري في جسدي ! كم كان محبّاً للخير ! كم كان يحبك أيضاً ! فليرحمه الله ، وليحطْهُ بعنايته وبركاته !

– تعالَ الى البيت ، لترى أندريوشا : سآمر لك بالمأكل والملبس ،

twitter @baghdad_library

وستعيش عندنا على راحتك ! — قال شتولتس ، ثمّ أعطاه نقوداً .

— سأذهب لعندكم ، وهل أستطيع أنْ أتمالك نفسي عن الذهاب إليكم لرؤية أندري إيليتيش ؟

يا إلهي ! هل هناك سرور أعظم من هذا ! سأذهب يا أبتاه ، سأذهب فليمنحك الله الصحة وطول العمر . . . — غمغم زاخار وهو يتابع العربة ، التي كانت تبتعد .

— هل سمعت قصة هذا المتسوّل ؟ — قال شتولتس لصديقه .

— من يكون إيليا إيلييتش . الذي تحدّث عنه ؟ — سأل الكاتب .

— إنه أبلوموف : لقد حدّثتك عنه مرات عديدة.

— أجل ، إني أذكر الإسم : إنه رفيقك وصديقك . ماذا جرى له

— هلك وضيّع نفسه .

تنهّد شتولتس واستغرق في التفكير .

— لكنه لم يكن أقلّ ذكاء من الآخرين . ولا أكثر غباءً منهم ؛ أما روحه فكانت نقيّة . شفّافة كالزجاج ؛ كان كريماً . شريفاً ، رقيقاً . ومع ذلك — فقد هلك وضاع !

— لماذا ؟ ماهو السبب ؟

— السبب . . . هو الأبلوموفية ! — قال شتولتس .

— سأحكي لك الآن : لكن أعطني فرصة لأستجمع أفكاري . دوّنْ ماسأقوله لك ، فلربّما سيفيد أحداً ما .

ثم قصّ له كل ماكُتب هنا .

١٨٥٧ — ١٨٥٨

twitter @baghdad_library

عـــن الكاتب والرواية

إيفان ألكساندروفيتش غونتشاروف (١٨١٢ - ١٨٩١) أحد أكبر ممثلي الواقعية النقدية في القرن التاسع عشر . أسهم إسهاماً كبيراً في تطوير الرواية الواقعية الروسية ، وخاصة الرواية الإجتماعية - البسيكولوجية . منطلقاته الأيديولوجية والجمالية جعلته واحداً من الكتاب الروس المناضلين ضد النظام الإقطاعي - العبودي ، حيث جاءت مؤلفاته تنقد بصرامة ذلك النظام الرجعي ، الذي فات أوانه .

ولد غونتشاروف في عام ١٨١٢ في سمبيرسك وأمضى طفولته في أسرة غنية نصف إقطاعية ، نصف بورجوازية . أسهم مربيه تريغوبوف ذو النزعة التقدمية ، القريب من الديسمبريين في بلورة أفكاره منذ سني الطفولة . خلال سنوات ١٨٢٠ - ١٨٣١ درس غونتشاروف في المدرسة التجارية في موسكو ، وفي عام ١٨٣١ التحق بكلية الآداب في جامعة موسكو وتخرج منها في عام ١٨٣٤ . وعلى الرغم من المستوى المتدني للتعليم في ذلك الزمن ومن المناخ الرجعي السائد في أوساط الأساتذة آنذاك ، فإن الجامعة كانت تعيش مخاضاً فكرياً هاماً . فالطلبة التقدميون كانوا منتظمين في حلقات يقودها غيرتسن ، بيلينسكي وستانكيفتش ، فكانوا يقرأون الكتب الممنوعة ويخوضون نقاشات سياسية وفلسفية حامية الوطيس . بيد أن غونتشاروف الذي كان يسيطر عليه الإهتمام الأكاديمي الصرف لم ينخرط بشكل مباشر في هذه الحلقات التقدمية . لكن منطلقاته الجمالية كانت إلى جانب الفن التقدمي ، فقد تأثر بشكل واضح بمؤلفات بوشكين .

بعد تخرجه من الجامعة عمل في ديوان محافظ سيمبيرسك قرابة عام ، ثم انتقل إلى

بطرسبورغ في عام ١٨٣٥ حيث عمل هناك في قسم التجارة الخارجية التابع لوزارة المالية .

في عام ١٨٤٦ تعرف غونتشاروف على بيلينسكي ، الناقد الروسي العظيم ، الذي لعب دوراً كبيراً في تكوين وبلورة أفكار ومنطلقات غونتشاروف الإجتماعية والجمالية ، فأصبح مقتنعاً بعمق بضرورة القضاء على النظام الإقطاعي – العبودي ، متمسكاً بتقاليد الفن التقدمي ومقاييسه ، فسار على طريق الواقعية النقدية حتى النهاية . ومع اشتداد ساعد الحركة الثورية وتزايد دورها ، بدأ غونتشاروف يقترب أكثر فأكثر من الكتاب الروس ، الذين تجمعهم وتوحدهم المنطلقات الليبرالية ، لكنه لم يعتنق النظرة المادية ولا الأفكار الإشتراكية ، التي كان ينادي بها الإشتراكيون الديمقراطيون الثوريون الروس ولم يدرك أهمية النضال الثوري في الصراع ضد النظام الإقطاعي – العبودي .

بيد أن غونتشاروف ظل حتى آخر سني حياته وفياً لبيلينسكي ، يكن له أعمق الإحترام والتقدير ، معتبراً إياه مناضلا جسوراً ضد الظلام والجهل والإستبداد ومعلماً تربى على يديه وأخذ منه كل مايتعلق بقضايا علم الجمال والأدب .

من أشهر مؤلفاته : « أبلوموف » ، « قصة عادية » و « الهاوية » .

* * *

twitter @baghdad_library

ابلوموف

قضية الإنسان « الكامل » ، « السليم » و « المنسجم » تحتل مكاناً مركزياً في رائعة غونتشاروف « أبلوموف » . فلا بد لكل من يقرأها للمرة الأولى ، أو يعيد قراءتها ، حتى في الربع الأخير من هذا القرن ، أن يجد في حوار أبلوموف وشتولتس – الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية – توكيداً على الدور الابداعي الخلاق للإنسان وعلى ضرورة ربط القول بالعمل والتقيد بمقاييس أخلاقية صارمة لدى ممارسة شتى أشكال النشاط الإنساني . سيجد القارىء حتماً إدانة محقة صائبة لمظاهر الكسل والخمول وقلة الحركة وانعدام النشاط ، أي للسمات ، التي تفقد الإنسان جوهره الإبداعي .

ظهرت رواية « أبلوموف » في مرحلة زمنية كانت روسيا تعيش فيها فترة مخاض وتحضير لتغييرات إجتماعية ، أهمها إلغاء نظام القنانة ، في مرحلة برزت فيها بشكل حاد مشكلة الماضي التاريخي والتطور المستقبلي « لروسيا المستيقظة من غفوتها » . وفي معرض تحديده لدور الأدب في تلك المرحلة ، أشار دوبرولوبوف إلى أن الأدب أصبح أداة هامة من أدوات التطور الإجتماعي الشامل ، فليس مطلوباً منه أن يكون وسيلة لغوية تعبيرية عن المجتمع فحسب ، بل أذناً صاغية وعيناً ساهرة أيضاً ، إذ من الضروري أن يعكس ظواهر الحياة بكل غناها وتنوعها ويقدمها في إطار شمولي مترابط . تأسيساً على ذلك ، جاءت رائعة غونتشاروف « أبلوموف » لتمثل من وجهة نظردوبرولوبوف إدانة صارمة للنظام الإقطاعي – العبودي ، الذي كان يسمح « للنبيل » أن يملك أنفساً عدة .

كتب بيساريف معلقاً على رواية غونتشاروف « أبلوموف » يقول : « سيظل مصطلح الأبلوموفية حياً خالداً في الأدب الروسي ، فاستخدام هذا المصطلح سيتجاوز حدود الأصقاع

الروسية مترامية الأطراف ليصبح مصطلحاً عاماً شاملا ، واسع الإستخدام » . لقد استطاع غونتشاروف أن يكشف بجلاء ودقة المعنى الإجتماعي والجذور التاريخية العميقة لظاهرة الأبلوموفية ويوضح خطرها وتأثيرها السلبي على مجمل عملية التطور الإجتماعي في روسيا .

نشرت رواية « أبلوموف » في العدد الأول من مجلة « المعاصر » الصادر في عام ١٨٥٩ ، في مرحلة أصبح فيها نمط الحياة الإقطاعي بعلاقاته الإنتاجية وأسلوب تفكيره ونظراته الحياتية عاجزاً عن مواكبة التطورات الجارية في روسيا آنذاك ، فجاءت الرواية تعكس بصدق حقيقي آفاق تلك المرحلة وتدين بشدة نمط الحياة الأبلوموفي الخامل الكسول .

أما الأسلوب الرئيسي ، الذي اعتمده غونتشاروف في روايته « أبلوموف » فهو المقارنة ، حيث يتم في أغلب الأحيان تقديم شخوص الرواية في تعارض تام . ذلك هو حال أبلوموف وشتولتس ، أبلوموف وأولغا ، أولغا وأغافيا ماتفييفنا . كذلك الظروف والأوضاع البيئية المحيطة يجري تصويرها في تعارض أيضاً : طفولة أبلوموف وشتولتس، تطور قصة حب كل منهما ، حياة أبلوموف في ناحية فيبورغ وحياة شتولتس في القرم . كما أن معارضة « الحركة » بـ « الهدوء » و « الحب » بـ « الحلم » تملك مغزى هاماً متعدد المضامين على صعيد الأسلوب الروائي للكاتب .

إن مايسترعي الإنتباه حقاً هو وصف الكاتب لأدق تفاصيل الحياة اليومية في أبلوموفكا وتوظيفها من أجل توضيح وإبراز الظروف البيئية المحيطة ، التي أنتجت ظاهرة الأبلوموفية . فالحياة الأبلوموفية لا تغرس في الإنسان حب العمل والنشاط والمبادرة ، بل التأمل والخمول والكسل وانعدام الحركة . لذا فان الكاتب يدين بصرامة ، لكن بشكل غير مباشر ، نمط الحياة الأبلوموفي ، يدين سمته الأساسية الأولى ألا وهي الخمول وانعدام الحركة . لكن الحياة التي يصورها غونتشاروف لا يستخدمها وسيلة للتفلسف المجرد ، فهو لا يريد أن يستخلص منها أية استنتاجات مباشرة كما يفعل بعض الكتاب ، بل يترك هذا الأمر للقارىء نفسه . مايفعله الكاتب هو أنه يقدم لنا لوحة حية رائعة مماثلة للواقع ، بينما يترك مسألة الإستنتاجات لجماهير القراء أنفسهم . فهو غير ميال لأن ينشد فوراً أغنية

twitter @baghdad_library

عاطفية لدى مشاهدته وردة أو طائراً غريداً ، على الرغم أنه سيكون مأخوذاً برؤيتهما ، لكنه سيتوقف طويلاً وهو يمعن ويمعن . بيد أننا لن نتبين بوضوح الإنطباع الذي تكون في أعماق نفسه ، لكنه لا يلبث أن يبدأ برسم شيء ما ، فتتضح اللوحة تدريجياً وتصبح جلية ، رائعة ، أخاذة ، وفجأة يمثل أمامنا الوردة والطائر الغريد ببهائهما وروعتهما . بهذه الروعة تتجلى موهبة غونتشاروف الخلاقة ، التي بز فيها كل معاصريه من الكتاب الروس . إنه يستطيع في كل لحظة أن يستحضر أية ظاهرة حياتية ، فيستوقفها ويمسك بها ويغالبها حتى تصبح طوع بنانه . فهو لا ينفعل بجانب واحد فقط من جوانب الظاهرة أو الحدث ، بل يقلب الموضوع من كافة جوانبه ، فيتريث حتى تمر وتنقضي لحظات الظاهرة جميعاً ، وعندها فقط ينكب على معالجتها وتصويرها . ينجم عن ذلك طبعاً اعتماد أسلوب هادىء ، غير منفعل من جانب الكاتب ، لدى معالجته ظاهرة محددة ، ووضوح كبير في معالجة وتوصيف أدق التفاصيل واهتمام متساو بجوانب الموضوع كلها . كثيرون طبعاً لا يعجبهم أسلوب التعامل الهادىء ، غير المنفعل مع الواقع ، خاصة عندما يأتي من جانب شاعر أو كاتب ، فتراهم يبدون شتى الإنتقادات والأحكام القاسية بحق الكاتب ويتهمونه بالتجرد عن العاطفة . إننا نفهم وندرك الخلفية العفوية ، التي ينطلق منها هؤلاء في إطلاق أحكامهم وانتقاداتهم وربما تحدونا الرغبة بأن نشاركهم الرأي القائل بأن الكاتب مدعو لإثارة المشاعر وتأجيجها لدى القراء . لكننا يجب أن نعترف بأن رغبتنا هذه ، هي في جانب منها رغبة أبلوموفية ، ناجمة عن الميل في أن نملك بشكل دائم مرشدين وموجهين حتى في العواطف . فليس من العدل والإنصاف أن ننعت الكاتب بفقدان العاطفة وقلة التأثر لمجرد أن الأحاسيس لا تتفجر عنده على شكل هيجانات عاطفية ، بل تدفن بصمت في أعماق روحه . لعل العكس هو الأقرب إلى الحقيقة . فكلما تفجرت الأحاسيس بشكل أسرع ، كلما بدت أكثر سطحية وأقل عمقاً وصميمية . يمكن أن نسوق العديد من الأمثلة لتدعيم وجهة النظر هذه . فما أكثر الناس البارعين ، الموهوبين ، الذين يملكون المقدرة على إبداء عواطفهم والتعبير عنها بهيجانات انفعالية لا تلبث أن تزول سريعاً . فالإنسان الذي يعرف كيف يرعى العواطف ويصونها في أعماق نفسه بكثير من الأناة والصبر

ثم يكشف عنها في الوقت المناسب ، بعد أن تكون قد نضجت وتعمقت ، هو الإنسان الحقيقي الذي يملك حساً مرهفاً وعاطفة دفينة جياشة .

كيف تجلت موهبة غونتشاروف في روايته « أبلوموف » ! يمكننا أن نتلمس الإجابة على هذا السؤال من خلال تحليل مضمون الرواية .

يتضح لنا من خلال قراءة الرواية أن غونتشاروف لم يتناول إطاراً واسعاً من الأحداث لتصوراته وتخيلاته . فالحديث عن استلقاء الكسول الطيب أبلوموف في سريره ، وكيف أن الصداقة والحب لم يستطيعا بعث النشاط والمبادرة فيه لا تمثل بحد ذاتها قصة هامة . لكن الأمر الذي يسترعي الإنتباه حقاً هو أن الرواية تعتبر انعكاساً ومرآة صادقة للحياة الروسية في ذلك الزمن ، من هنا تأتي أهميتها القصوى . لقد جاءت بكلمة جديدة اختزلت الواقع الروسي برمته وحددت الوضع الإجتماعي بصورة دقيقة صائبة ألا وهي الأبلوموفية . فهذه الكلمة تعتبر مفتاحاً لفهم ظواهر الحياة الروسية كلها في القرن التاسع عشر ، ونتاجاً رائعاً تفتقت عنه موهبة كاتب عملاق .

ماهي السمات الأساسية لشخصية أبلوموف :

إنها تتبدى في الخمول والكسل وانعدام المبادرة وغياب الإهتمام بكل مايحدث في هذا العالم من أحداث وتطورات . سبب ذلك يعود في جانب منه إلى وضعه الإجتماعي ، بينما يعود الجانب الآخر إلى نمط تطوره الذهني والروحي . فهو من حيث وضعه الإجتماعي «نبيل» يملك خادماً اسمه زاخار ، كما يملك ثلاثمائة زاخار آخر على حد تعبير دوبرولوبوف . فوضعه الاجتماعي جعله في منأى عن العمل كلياً ، فلم يذق مرارة الجوع والحرمان يوماً ولم يعرف المعاناة ، فكل مايريده ويطلبه موجود في متناول اليد . الخدم كثر من حوله ، فما إن تبدر منه حركة من إصبع حتى يهرع الجميع لتنفيذ مايرغب . هكذا نشأ وهكذا تربى . لم يعتمد على نفسه يوماً للقيام بعمل أو لتنفيذ مهمة ، فالكل في خدمته منذ أن أبصر النور .

هكذا يتضح بجلاء أن وضعاً كهذا لا بد أن ينعكس بالضرورة على التكوين الذهني والروحي لأبلوموف . فقواه الروحية الداخلية لا بد أن تذبل حتماً من جراء وضع كهذا ،

twitter @baghdad_library

فينغرس التواكل والخمول والكسل في نفسه . لم يمارس عملا في يوم من الأيام ، إذا استثنينا طبعاً خدمته الوظيفية القصيرة التي لا تندرج ضمن إطار العمل حتى بمفهومه الضيق ، وبالتالي فانه لا يستطيع أن يتخذ موقفاً جدياً فاعلا من أية قضية أو مسألة مهما كانت بسيطة أو صغيرة . رغباته وأحلامه حبيسة صيغة تعبيرية محددة : « لو كان الأمر هكذا لتحسنت الأمور » ، لكن ماإن يتطلب الأمر منه مجرد حركة أو نشاط حتى تراه قد تخلى فوراً عن هذه الرغبات . واضح أن أبلوموف يملك شخصية حالمة ، فهو يفكر بكثير من الأمور ، إنه إنسان طيب ، رقيق ومحب ، لكن قواه عاجزة عن تحقيق مايحلم ويفكر به . سبب ذلك أنه رضع حليب التواكل والخمول والكسل وعدم المبالاة في البيئة الإقطاعية ، التي نشأ وترعرع فيها . إنه يعيش حالة من العبودية الروحية الناجمة عن عجزه الكامل في مواجهة أية قضية تعترضه . فالعجز والكسل مشروطان بوضعه الإجتماعي ، كما أن وضعه الإجتماعي يشترط بدوره الخمول وانعدام المبادرة والحركة واحتقار العمل والنشاط . فأبلوموف رهن إرادة الآخرين ، إنه عبد ذليل لمبادرة وإرادة الغير . إنه يعيش حالة من التبعية المقيتة حتى على صعيد علاقته بخادمه زاخار . فزاخار يستطيع على الأقل أن يمارس عملا ما ، لكن أبلوموف لا يقدر على فعل أي شيء .

حتى قصة حبه لأولغا لم تستطع أن تخلق فيه أي تبدل يخفف من خموله وكسله . فعندما بلغت قصة حبه مرحلة تطلبت منه القيام ببعض الأعمال البسيطة ، كالذهاب إلى القرية لتنظيم أملاكه وتدبير بعض شؤونه الخاصة ، فاننا نراه يتخلى عن هذا الحب ، مفضلا عليه حياة الخمول والكسل . فأي محرك وباعث على النشاط والتضحية أكبر من الحب !

لكن أبلوموف يدرك سبب سقوطه وعجزه ، الأمر الذي يزيد من مأساوية وضعه النفسي والمعنوي . ففي معرض رده على سؤال أولغا : « ماالذي قتل كل شيء فيك » ! يجيب : الأبلوموفية .

أما سريرة أبلوموف الصافية الطيبة فتقدم لنا مقطوعة الجذور عن تربة النشاط الإنساني والممارسة الإجتماعية ، وبالتالي فهي لا تملك معنى إيجابياً ، لأنها غير موضوعة في إطار إجتماعي واقعي .

بعد كل ماتقدم يمكننا أن نعتبر شخصية أبلوموف تعميماً لظاهرة أفرزتها ظروف اجتماعية محددة ، نعني الأبلوموفية . لكن مصطلح « الأبلوموفية » يمكن فهمه في إطار معاصر أيضاً ، مع التشديد طبعاً على اختلاف الظروف والعصر . فالطفيليون والمتقاعسون والخاملون والمقصرون واللامنتمون هم بمعنى من المعاني نماذج أبلوموفية معاصرة . لذا فان النضال ضد هذه الظاهرة بمفهومها المعاصر ، وضد الظروف التي تفرزها ، يظل موضوعاً راهناً على الرغم من اختلاف الشروط والعصر .

ننتقل الآن للتحدث عن شخصية أخرى .

تحتل شخصية شتولتس أهمية فائقة تساعدنا على فهم المعاني والمضامين ، التي أراد غونتشاروف أن يقولها في روايته « أبلوموف » . فهي تساعدنا كثيراً على أن نفهم بصورة أعمق الشخصية الرئيسية في الرواية ، نعني أبلوموف . فشخصية شتولتس تجسد البورجوازي ، الذي تتحول الفكرة عنده إلى معنى وعمل . تراه دائم الحركة ، كثير الأسفار ، يمارس نشاطات عديدة متنوعة ، لديه تصورات واضحة تتعلق بأمور حياتية متنوعة . لكن هذه الشخصية لم ترق إلى مستوى البطل الإيجابي الشمولي . لعل سبب ذلك يعود إلى أن غونتشاروف لم يجد في صفوف الطبقة البورجوازية الروسية بطلا إيجابياً حقيقياً .

اعترف غونتشاروف بأن شخصية شتولتس بدت شاحبة ، عارية ، غير متألقة . ماسبب ذلك ياترى؟

نتلمس الجواب على هذا السؤال من خلال الطابع المزدوج لموقف غونتشاروف نفسه من شتولتس . فعلى النقيض من أبلوموف يصوره لنا الكاتب بأنه ذكي ، عملي ، ذو خبرة ، كثير الحركة والنشاط ، لكن غونتشاروف لايرفعه إلى مستوى البطل الإيجابي الحقيقي ، الذي يضحي من أجل تحقيق مثل ساميه ، فنشاطه كله مكرس لخدمة مصالحه الشخصية الخاصة .

وفي معرض تقويمه لشتولتس ، كتب تشيخوف يقول بأن هذه الشخصية لم تبعث فيه الثقة والإرتياح ، فهو ماكر يعرف جيداً كيف يتصرف لمصلحته الخاصة فقط .

twitter @baghdad_library

لعل أولغا هي الشخصية الوحيدة ، التي تملك سمات البطل الإيجابي الحقيقي . فهي بسيطة ، واضحة في سلوكها ومنطقها ، محبة ، وفية ، منسجمة مع نفسها ، شديدة التمسك بالمثل العليا ، ذات إرادة قوية ، إنها باختصار نموذج المرأة الرائعة . فهي تجسد الجديد الإيجابي في الحياة الروسية أكثر مما يمثله شتولتس . بداية حبها لأبلوموف كانت تنطلق من الثقة بتغييره باتجاه إيجابي ، وظلت مثابرة في حبها إلى أن تأكدت من انتفاء أية إمكانية لتحقيق ذلك ، عندئذ تركته . تركته لأنه عاجز عن مواجهة الحياة ورفدها بما هو إيجابي ، وستترك شتولتس الذي تزوجته ، إذا ماتأكد لها أنه قد أصبح عاجزاً أيضاً عن تحقيق ذلك . فأولغا تمثل النفي الحقيقي لظاهرة الأبلوموفية . إنها باختصار نموذج المرأة الرائعة .

المترجم

١ -
٢ -
٣ -
٤ -
٥ -
٦ -
٧ -
٨ -
٩ -
١٠ -
١١ -

twitter @baghdad_library

سلسلة روايات

التالية :

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : رفعت عطفة

ترجمة : عبدالكريم ناصيف

ترجمة : عبدالكريم محفوض

ترجمة : صالح علماني

ترجمة : فاضل جتكر

ترجمة : توفيق الأسدي

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : هاني الراهب

ترجمة : عبدالكريم ناصيف

١ –
٢ –
٣ –
٤ –
٥ –
٦ –
٧ –
٨ –
٩ –
١٠ –
١١ –

twitter @baghdad_library

سلسلة روايات

التالية :

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : رفعت عطفة

ترجمة : عبدالكريم ناصيف

ترجمة : عبدالكريم محفوض

ترجمة : صالح علماني

ترجمة : فاضل جتكر

ترجمة : توفيق الأسدي

ترجمة : يوسف حلاق

ترجمة : هاني الراهب

ترجمة : عبدالكريم ناصيف

twitter @baghdad_library

/ ٥ / ١٩٨٥

الرواية العالمية

هذه هي الرواية الثانيه عشره من سلسلة روايات عالمية التي لاقت رواجا كبيرا حيث وصلت نسخها الى أقطار الوطن العربي . ولا عجب ، فالروايه تلعب في القرن العشرين الدور الذي كانت تلعبه الملحمة في العصور القديمة ، نقصد انها خير تعبير فني ـ وايضا فكري ـ عن طبيعة المرحلة .

وسلسلتنا كشكل ، مع تكامله ، لوحة عن هذه المرحلة تتسم بالاحاطة والعمق .

من الروايات التي هي قيد الطبع :

١٣ ـ المعلم ومرغريت   بولجاكوف
ترجمة يوسف حلاق

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٥

سعر النسخة
١٨ ل.س.ل

twitter @baghdad_library